الجِهَادُ وَالفِدَائِيَّةُ
في الإسلام

حَسَن أيُّوب

دار النَّدوة الجديدة
بيروت - لبنان

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة
بيروت
١٤٠٣ ـ ١٩٨٣

دار الندوة الجديدة
بيروت لبنان ص . ب ١٤/٥١٧٤

الجهاد والفدائية

في الإسلام



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله القائل :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ آخر العنكبوت .

وأشهد أن لا إله إلا الله القائل :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ آل عمران (١٢٨) .

وأشهد أن محمداً رسول الله الذي أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان إلى يوم يبعثون .

أما بعد :

فهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل المسجد ، وقد آثرت أن أجعلها في مواضيع « الجهاد والفدائية في الإسلام » بعد أن كنت مزمعاً أن أجعلها في موضوع « المرأة المسلمة . وما لها من حقوق ، وما عليها من واجبات » .

المؤلف : حسن أيوب



ماذا يُدَبَّرُ للمسلمين ؟

أمامي جريدة السياسة الكويتية الصادرة بتاريخ ١٩٧٦/٨/٧ وفيها العناوين الآتية عن معارك لبنان : (مذابح في حي النبعة . ذبح وسحل المدنيين وهدم البيوت) ، (شاهد من تل الزعتر يقول : الكلاب نهشت جثث الضحايا ، والعدس أنقذنا من الموت جوعاً) ، (ترحيل جرحى تل الزعتر تحت طلقات القناصة) ، (٥٠٠ قتيل وجريح في لبنان في يوم وقف إطلاق النار) .

وتقرأ تحت هذه العناوين الأعمال الوحشية التي يرتكبها المتقاتلون بلبنان ، ومن هذه الأعمال منع الصليب الأحمر من إسعاف آلاف المصابين الذين يموت منهم كل يوم عشرات ، مع أن أقل المبادىء الإنسانية حتى في الحروب العالمية توجب إنقاذ أمثال هؤلاء ، وتمكين الهيئة الطبية من مباشرة عملها معهم ، كذلك منع الماء إلى درجة موت الأطفال والنساء والشيوخ عطشاً ، أما الطعام فلم يبق في المعسكر سوى العدس يأكلون منه كل يوم وجبة كي تنقذهم من براثن الموت ومخالبه .

فإذا تصورت أن بالمعسكر من الأطفال والنساء والشيوخ ما يزيد عن عشرين ألفاً أدركت قسوة هؤلاء الصليبيين ، ووحشيتهم ، وحقدهم الأسود ضد المسلمين . وأدركت أن الذين يأملون الخير منهم ليسوا إلا حمقى

مستغفلين . . . .وقد سقط المعسكر يوم ٨/١٢ سنة ١٩٧٦ بعد حصار دام سبعة أسابيع .

وهذه حلقة في سلسلة من المآسي والنكبات والبلايا التي صبها أعداء الإسلام على رأس المسلمين فخربوا الديار ، ويتموا الأطفال ، ورملوا النساء ، وأبادوهم جماعات وفرادى بدون أي مبرر أو سبب سوى ما ينهش قلوبهم الوحشية من حقد وحسد وغليان على كل مسلم من أمة محمد ﷺ وصدق الله تعالى إذ يقول :

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ البقرة (١٢٠).

وما من يوم يمر إلا ويقرأ المسلم عن أنواع من التعذيب والتقتيل والتنكيل بالمسلمين في بلد من بلاد الله .

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ البروج (٨) .

ويستوي في تعذيب المسلمين وتشتيتهم من كان في بلاد المآذن والمساجد ، ومن كان في بلاد الصلبان والكنائس ، ومن كان في بلاد داس حكامها المسجد والكنيسة معاً وهدموا جميع معابد الله تعالى .

فهناك مذابح حدثت للمسلمين في إثيوبيا ، وإرتريا ، والصومال ، والسودان ، ومصر ، وعدن ، والعراق ، وسوريا ، وليبيا ،وفلسطين ، ولبنان ، وروسيا ، ويوغوسلافيا ، ورومانيا ، وأندونيسيا ، والفلبين ، والمغرب ، والهند ، وباكستان وغيرها ، وغيرها .

وهناك اضطهاد فكري وحركي لكل جماعة إسلامية حية ذات أثر فعال ، ودعوة تحررية تهدف إلى إعادة الإسلام فهماً وعملاً وحكماً ، وأسلوب حياة .

وهناك اضطهاد مالي لكل شاب يؤمن بالله صادقاً ، ويسير على نهج الإسلام مخلصاً .

وهناك اضطهاد سياسي لكل صوت حر أبي يدعو باسم الله إلى رفع الظلم عن عباد الله .

وهناك إلحاد سافر ، وكفر صراح ، وإجرام مقنن ، وفواحش مستهترة ، وكل ذلك ينهش في دين المسلم ، ويعلن الحرب عليه .

وكل هؤلاء الكفرة والملحدين ، والفسقة والمجرمين ، لا يريدون بما يفعلون إلا إطفاء نور الله ، والقضاء على دينه ، وإزالة أي أثر حيوي لمدرسة محمد ﷺ .

وإن أنسَ لا أنسى ما نزل بالإخوان المسلمين في كثير من البلاد العربية - خصوصاً مصر - من التفنن في تعذيب شبابهم وشيوخهم وأطفالهمَ ونسائهم بصورة يشيب لهولها الوليد ، ويبكي عند سماعها الحجر الصلد .

وكلنا يذكر أن العرب بقضهم وقضيضهم . وملايينهم التي تزيد على المائة والعشرين مليوناً عجزوا على مدى ثلاثين سنة عن الوقوف امام الزحف الصهيوني الكاسح ، ولا يزالون عاجزين . !! .

ولكن هؤلاء العرب فيما بينهم مزق بعضهم لحم بعض ، وأعلن كثيرون منهم الحرب على إخوان لهم في العروبة والإسلام ، حتى حرقوهم بقنابل النابالم ، وهدموا قراهم بالدبابات ، وداسوا أطفالهم بالأحذية ، وأمسكو بالمصحف فرموا به في الأرض وداسوه بالأقدام ، وحرقوه مع عشرات الآلاف من الكتب الإسلامية ، وسحلوا المسلمين على وجوههم مربوطين بالسيارات حتى مزقوهم شر ممزق . وفجروا بالفتيات العذارى ، وأبادوا الوطنيين بالمئات ، وجعلوا من الوطن سجناً كبيراً فيه ملايين المعذبين والمضطهدين والمكممين .

وإنك لتبكي أسىً وكمداً حين تعلم أن العربي الذي يعيش في إسرائيل أكثر حرية من العربي الذي يعيش في كثير من الأقطار العربية ، وآية ذلك أنك

تسمع بين الحين والآخر بخروج تظاهرات في إسرائيل واحتجاجات ومعارك مع الشرطة هناك ، ولكنك لا تسمع عن مظاهرة واحدة في أي بلد من تلك البلاد العربية ، وإن وُجِدَت سُلِّطت عليها النيران وضرب المتظاهرون بالرصاص ، وأخذوا جماعات وفرادى إلى أقفاص التعذيب والتقطيع والتنكيل . حتى أصبحت لا تسمع صوتاً واحداً حراً في أي بلد من البلاد العربية المحكومة بالدكتاتوريين ، وما أكثرهم في هذه الدول .

وها أنت ذا وهو وهي وهم وهن ترون في بلاد العروبة والإسلام مفارقات تبكي وتدمي ، وتخجل وتخزي ، وتفزغ وتزعج ، حتى إن من يسمع بها يكاد يصدق كلام اليهود ، « بأن العرب شعوب لا تستحق الحياة الكريمة ، وليست لها بأهل » !!! واخزياه يا عرباه !!! .

عندنا زعماء متسلطون بقوة الحديد والنار على شعوب أنهكها الفقر ، وأشقاها المرض ، وأذلتها الحاجة ، حتى صارت من فرط الضياع كالأموات ، يمر على أشلائها الطغاة فلا تتحرك ، وتُغتصب أعراضها فلا تأبه ، وتسلب اللقمة من أفواهها فلا تزيد على نظرة حزينة مستكينة ليد اللصوص .

وعندنا أغنياء جزارون ، بأيديهم جميع المدى لذبح الشعب وسلخه ، وحكام لصوص يسرقون من الشعب قوته وعرضه وشرفه وحياته ، وأدباء وعلماء وكتاب هم أبواق لتبرير الإجرام وإنشاء أنواع المسالخ ، والمجازر ومدارس الهدم والنفاق ، ليموت الشعب باسم العلم عندنا ، وباسم العلم يخدر الجميع ويَأكل الأفيون حتى لا يكون به حراك مهما أُذِل وأُهين .

أما كبار موظفينا فآلهة متربعون على عرش من البغي والكبر والغرور والحمق ، والخبث والجهل وقذارة النفوس ، ونجاسة القلوب ، وظلام العقول . . وإنها لصورة تجعلك تكبر على الإنسانية أربع تكبيرات ، وتركل جنازتها بالقدم لأنها لا تستحق التشييع .

وهكذا تعيش الشعوب العربية والإسلامية في مطحنة الحكام المتسلطين ، والأغنياء المتوحشين ، والرؤساء المتألهين الساقطين . فهل هناك حياة أسوأ وأنكى وأدمى وأذل من حياة هذه الشعوب ذات الحضارات العريقة والمبادىء المقدسة المهجورة !!! .

إنك أيها القارىء تستطيع أن تعرض نماذج من ظلم الاستعمار وفتكه ، وإذلاله للشعوب ، وكبته للحريات ، ووأده للإنسانية واضطهاده الوحشي للإسلام والمسلمين ، وتستطيع أن تفتح صحائفه فتجدها داميةً كلها ، وتجد فيها الإنسان العربي والمسلم أهون على المستعمر من حشرات الأرض . . وهذا حق .

ولكنك لن تجد أكثر الحكام العرب والمسلمين ، ولن تجد أغنياءهم ورؤساء الموظفين فيهم أقل وحشية ، ولا أدنى إلى الخير والعدل من المستعمرين . بل هم أشد في كثير من الأحايين .

إن وحوش الحكام والأغنياء والمترئسين أوهموا الشعوب أنهم المخلصون والمنقذون والواقفون ضد الاستعمار والظلم بجميع أنواعه وأشكاله ، وصدَّقت الشعوب ذلك منهم فأعطتهم سلطة غير محدودة وقدستهم قداسة الآلهة ، ومكنت لهم في كل شيء ، ولم تعلم الشعوب المضلَّلة طبيعة الإنسان . حتى وجدت أولئك جميعهم يسحقون الشعب سحقاً ، ويذبحونه ذبح النعاج ، ويلغون كالكلاب في دمه وبقاياه .

والواقع أن جميع حركات التحرير كانت الشعوب وقودها ، وكانت وحدها المصابة بكل داء يرميها به المستعمر ، والمريضة بكل مرض جعله وباء للقضاء عليها .

أما الزعماء فهم حملة المباخر ، وأكلة الموائد ، وقاطفو ثمار المعارك . . هم عندنا هكذا ، وكذلك في أكثر العالم . . . هم في أكثريتهم طفيليات تلتف حول الشعوب لتمتص حركتها ، ودماءها وحياتها .

هل وجدت دم زعيم ينزف من آثار معركة ؟؟؟ الجواب . . لا : ومع ذلك يصنع له تمثال . . !! .

هل وجدت تمثالاً للشعب تقديراً لما نزف من دمائه ؟ الجواب : لا : وجزاؤه أن يوضع في حبل المشنقة !! .

إنها الحقيقة وإن كانت أمر من كل مر .

وإنها المأساة العربية والإسلامية وإن كانت مخجلة ومزرية .

وأنها الحياة لأكثرية من البشر ، وإن كانت تعكس وحشية الإنسان ودناءته .

هذه الحقيقة هي حقيقة الإنسان نفسه حين يكون فارغاً من نور وحي الله وهديه . . .

وهي الصورة العامة للبشرية ما لم يكن دين الله مهذباً لوجدانها ومسيطراً على مشاعرها . .

وهي الأصل في الإنسان سواء تحرك في صورة ذئب ، أو ثعلب ، أو أسد ، أو لبؤة ، أو حمار ، أو خنزير . إلا في حالة واحدة ، وهي أن يقول : (ربي الله ثم يستقيم على دينه) .

إن المشكلة ليست مشكلة مستعمِر ومستعمَر ، وحاكم ومحكوم ، وغني وفقير ، ورئيس ومرؤوس ، بدليل أن الفقير إذا اغتنى ، والمحكوم إذا حكم ، والمرؤوس إذا ترأس ، لبس كلٌّ ثياب الوحش والغدر ، والفتك والافتراس .

إن المشكلة هي مشكلة الإنسان في طبيعته الحيوانية ، ونزواته البهيمية ، وطموحاته السافلة المنحطة . والكل كذلك حين لا يكون دين ، مع فارق بسيط جداً : هو أسلوب تربية هذا الإنسان الحيواني ، والقوانين التي

تحكمه ، والبيئة التي نشأ فيها ، والثقافة التي غزت فكره . كل ذلك بغير دين يلون شكل الإنسان فقط ، ولكنه لا يغير من طبيعته ، ولا يسمو به على حيوانيته إلا بقدر محدود ، وفي حدود القيود التي نشأ فيها ، ولذلك حين ينطلق من هذه القيود ، ببعده عن البيئة ، أو تخفيه عن سلطة القانون ، أو تمكنه من التنفيس عن الوحشية التي بداخله فإنك ترى منه كل ما سبق ذكره ، يستوى في ذلك أستاذ الجامعة والزبال ، وناظر المدرسة وماسح الأحذية ، والجالس على عرش الملك في الأرض والذي يفترش الثرى وينام على المزابل ، كما يستوى عالم الذرة وعامل في دبغ الجلود . . .

في حالة واحدة فقط يصير هذا الإنسان ملَكاً رحيماً ، وأخاً نبيلاً ، وإنساناً سماوياً ، ومصلحاً متواضعاً ، وزعيماً أبوياً ، ورئيساً خادماً ، ونوراً يشع في جنبات الحياة ، وأملاً لكل صاحب حاجة ، وإنساناً يحمل أكرم معاني الإنسانية : وهي حالة تشبعه بالإيمان بالله ، وامتلائه بالفهم والخضوع لأسمائه تعالى ، وشعوره بالسعادة وهو يدخل مدرسة محمد ﷺ ويشرب من عذب مائها ، ويحيا بروح كلماتها ، ويلبس ثياب فضائلها ومزاياها . إنه حينئذ شيء آخر تماماً لأنه مع الله .

إنه الروح السماوي الذي سرى في الجسد الأرضي .
فهو إنسان رباني .

وهو النور الرباني الذي أشرق في الكيان الحيواني .
فهو حيوان سماوي .

وهو الحكمة الإلهية في وعاء من صنع الله وإبداعه .
فهو إبداع إلهي .

وهو الماء النازل من السماء على الأرض الطيبة المباركة .
فهو عطاء بالخير والرحمة .

وهو النهر العذب الصافي الذي يرسل في الأرض جداول ماء الحياة فهو حياة أينما وجد .

وليس معنى ذلك أن ربانيته تعصم من الخطايا بشريته ، ولكن معناه أن ربانيته تعيده الى ربه كلما غلبت عليه بشريته ، فيعرض على الله ضعف بشريته ، ويسأله غفر ذنبه وزلته ، فلا يجد إلا رحمة واسعة ، وفيضاً كريماً ، وشمولاً بالعناية والرعاية من قبل الله الذي ثاب إليه ، وتذلل له ، وارتمى في أحضان عفوه ورحمته ، ولذا جاء في الحديث :

« **كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ** » رواه الترمذي وابن ماجة والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وتستطيع بعد ذلك الفهم أن تفسر ظواهر كانت في نظرك متناقضة . ولكنها في الحقيقة متوائمة ومنسجم بعضها مع بعض كل الانسجام .

فإذا كان الفرنسيون قد دخلوا الجامع الأزهر بخيولهم في آخر القرن الثامن عشر ، فإن الجيش السوري قد هاجم المصلين في المسجد الأموي وحاصرهم بالدبابات والمدافع ودخل الجنود بأحذيتهم ورشاشاتهم يحصدون المصلين حصداً لا رحمة فيه ولا إنسانية ولا وطنية ، وكما سلط هيلاسلاسي جيشه القذر الوحشي على مسلمي أرتريا فجمعوا الرجال في المنازل وأشعلوا النيران فيها ، وحرقوا قريتين من تسع قرى سنة ١٩٦٦ م وكانت طائرات السلاح الجوي الإثيوبي تُرسَل الى القرى في الأراضي المنخفضة الغربية فتسويها بالأرض كما هو مدون في وثائق رسمية فإن الجيش المصري حاصر مدينة «كرداسة» بمحافظة الجيزة وأخرج الرجال من الدور ومعهم النساء والأطفال ، وهدموا كثيراً من أسقف البيوت ، وأتلفوا لهم الحبوب والدقيق ، ثم جعلوا الرجال عرايا كما ولدتهم أمهاتهم وأخذوا يجلودنهم بالسياط أمام نسائهم ولم يكتفوا بذلك ، بل أجبروا الرجال العراة أن ينحنوا مثل الحمير ليركب النساء ظهورهم ، ثم سيَّروهم كذلك في الشوارع زيادة في الإذلال

والقهر ، ومنعوا أهل هذه المدينة الريفية من الخروج إلى الحقول لإطعام حيواناتهم ، أو سقي هذه الحيوانات مدة ثلاثة أيام .

وإذا كان الاستعمار الانجليزي قد جلد الفلاحين المصريين سنة ١٩٠٦ وعلقهم على المشانق بقرية «دنشواي منوفية» ظلماً وغدراً وبمحاكمة عسكرية صورية فإن دكتاتور السودان قتل في يومين اثنين ما يقرب من مائة شخص بعد محاكمة عسكرية لم تستغرق ثلاثة أيام. وحدث مثل ذلك في العراق، وفي عدن ، وفي الصومال ، وفي أندونيسيا وليبيا وغيرها وكل ذلك على أيدي الزعماء الوطنيين شكلاً وانتماء .

وما من فظائع ارتكبها الصليبيون ، أو الصهيونيون ، أو الشيوعيون ضد المسلمين في بلد من البلاد إلا وتجد مثلها قد حدث للمسلمين على أيدي زعماء ينتمون للإسلام والوطنية العربية والإسلامية .

حتى أصبح الإنسان المسلم يشك في وطنية هؤلاء الزعماء كما يشك في انتمائهم إلى الإسلام .

وقد كان ذلك مثار عجب شديد واستغراب أشد . ولكن العجب يزول إذا أدركنا أن كل هؤلاء الذين يكيدون للإسلام وللمسلمين ، وللإنسان المسالم ، وللمسلم الوديع ، ليسوا إلا وحوشاً في ثياب إنسان . إنهم بغير دين ، لذا كانوا جميعاً بغير إنسانية أو رحمة ، إنهم بغير خضوع لجلال الله وبغير خوف من لقائه ونقمته وعذابه الأبدي ، لذلك لم يكونوا يوماً مصلحين ، ولن يكونوا كذلك إلا إذا انخرطوا في سلك حزب الله .

إن ابن آدم بطبيعة الحيوان «طوعت له نفسه قتل أخيه فقتله» بينما أخوه بطبيعة الإيمان يقول له :

﴿ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنّي

أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ المائدة (٢٨) .

وإخوة يوسف بطبيعتهم الحيوانية الوحشية ألقوا بيوسف الصبي في الجب غير عابئين بصراخه ونحيبه وانزعاجه وحزن أبيه من بعده ، بينما يوسف بطبيعته الإيمانية الربانية يقول لهم بعد أن مكنه الله منهم :

﴿ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يوسف (٩٢) .

وأهل الطائف وأمثالهم بوحشيتهم وغدرهم وقسوتهم يدمون قدمي النبي محمد ﷺ ويسلطون عليه الغلمان والسفهاء ليرجموه بالأحجار ويسخروا به ويطردوه من البلد وهو يدعوهم إلى الإيمان والعدل والرحمة بينما محمد ﷺ حين نزل عليه جبريل يخبره بأن الله أمره أن ينفذ في أهل الطائف ما يطلبه يقول في رقة وعطف عليهم :

﴿ اللَّهُمَّ اهْدِ قَوْمِي فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقد حسم القرآن القول في قضية الإنسان فبين أنه بغير إيمان ، ظالم وطاغ وكفور وجبان وبخيل ومستبد ومختال الخ .

قال تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم (٣٤) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ العاديات (٦) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى . أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴾ العلق (٦ ، ٧) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ

مَنُوعاً . إلَّا الْمُصَلِّينَ ، الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾ ... الخ .
المعارج (١٩ - ٢٣) .

قال ابن القيم وغيره : كل وصف جاء في القرآن يصف الإنسان بالكفر أو بالظلم والطغيان وما أشبه ذلك فإنما يراد به الإنسان الكافر الذي لم يصقله الدين الحق ويهذبه ويوقفه عند حدود الله تعالى .

وأنت إذا نظرت في أمراض الكِبْرِ والحقد والحسد والاحتقار وظن السوء والغش والخداع والرشوة والخيانة . إلى آخر هذه القائمة السوداء . تجدها كلها أمراض ظلم الإنسان للإنسان .

ولو تأملت جميع رسالات الله تعالى لوجدتها تستهدف العدل ورفع الظلم ، سواء ظلم الإنسان لنفسه بالكفر والفسوق والعصيان ، أو ظلم الإنسان غيره بالاعتداء على النفس والأهل والمال والعرض ، وذلك ما يُفهم من قوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ (العدل) وَأَنْزَلْنَا الحَدِيدَ فِيه بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾
الحديد (٢٥) .

فبين تعالى أنه أرسل الرسل بالمعجزات التي تثْبت رسالتهم ، وأنزل مع الرسل الكتاب الذي فيه تشريع الله لعباده كما أنزل الميزان الذي توزن به الأمور كلها فيعرف حقها من باطلها ، وثمينها من غثها ، وهذا الميزان مأخوذ من الكتاب ، ومن العقل الذي يتفهم الكتاب ويهضمه ، ومن النور والفقه الذي يضعه الله تعالى في قلب من يشاء من عباده ، وما أنزل الله الكتاب والميزان إلا ليقوم الناس بالعدل فيما بينهم وبين ربهم ، وفيما بينهم وبين أنفسهم ، فإن لم يفعل البعض ولم يستجب فعلى من استجاب وكانت له القوة والسلطة أن يستعمل الحديد في الضرب والحرب حتى يقيم دين الله وعدله في الأرض

تحقيقاً لقوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ البقرة (٢٥١) .

وإذا كان الإنسان الذي لم يهذبه الدين ولم يصقله الإيمان بالله تعالى لا تراه إلا ظالماً للمؤمنين وقاسياً عليهم ، ومعاملاً لهم بوحشية تفوق وحشية السباع ، فإن هذا الإنسان الوحشي لن يقف عند حد معين في تعذيبه للمؤمنين ، وذلك مصداق قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾
البقرة (٢١٧) .

وإن هذا الإنسان الوحشي لن يكون واحداً أو مَجموعة قليلة ، بل سينضم اليه جميع الذين على شاكلته في الوحشية والدناءة والتسفل ولعق الدماء ، وذلك هو نص قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾
الجاثية (١٩) .

وهؤلاء المنضمون المتحدون في الوحشية وافتراس المؤمنين تجدهم في ملابس شتى ، فهم أحياناً في مسوح العابدين ، وتارة في جلود الزعماء الوطنيين ، وأخرى في ثياب الشيوعيين أو الصليبيين أو الصهيونيين ، ولا مانع من أن يكونوا متسترين تحت عمائم ولحى المنافقين والمخادعين أو المخدوعين . . . الكل وحوش تفترس بأنيابها الشرسة جسوم المسلمين وتبذل قصارى جهدها للفتك بكل صادق الإيمان يعلي كلمة الله ، ويجاهد في سبيل العدل والحق والنور الإلهي .

وكلما ضعف المسلمون وجبنوا أمام عدوهم ، واستسلموا لأنيابه ومخالبه

فإن عدوهم يستمرىء الفتك بهم والقضاء عليهم والتسلي على تعذيبهم وتشريدهم والسخرية منهم وجعلهم أضحوكة في العالم كله إن استطاع ، ولن يكونوا أبداً رحماء بالمسلمين إلا بقدر حاجتهم إليهم واستغلالهم لهم . وسوف تبارك جميع الوحوش العالمية في هذا الإطار كل داهية تصيب المسلمين ، وكل دمار وخراب وفقر ومرض ينزل بديارهم .

وتستطيع أن تقرأ هذه المعاني كلها في قوله تعالى تعبيراً عن موقف الكافرين من المؤمنين :

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ * وَمَا نَقَمُوا مِنْهُم إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ البروج (٤ ـ ٨) .

هكذا يشعل الكفار النار في الأخشاب والأحطاب وكل ما قدروا على جمعه !!! .

وهكذ يقعدون قريبين من هذه النار ليشهدوا الضحية الضعيفة وهي تلقى في النار بقسوة ، وتصرخ من شيٍّ جلودها ولحومها بدون شفقة أو رحمة !!! .
وهكذا يلقون بمواطنيهم وأصدقائهم وإخوانهم وأزواجهم وخلصائهم بدون مراعاة لأي رابطة من هذه الروابط التي تحترمها سباع الفلوات وحيات الغابات !!! .

وليس لهؤلاء المعذبين من ذنب جنوه ، ولا جريمة أتوها ، ولا فساد أدخلوه إلى البلاد !!! .
إن ذنبهم الوحيد أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد . . فهل هذا بالله ذنب ؟ أم هو قمة السمو الإنساني والصلاح الاجتماعي ؟ . . . لكنه الإنسان الوحش ، ومعذرة لجميع الوحوش فحاشاها أن تكون مثل هذا النوع من الإنسان .

وصدق الله القائل في هؤلاء وأمثالهم :

﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ ﴾ **الأنفال** (٢٢ ، ٢٣) .

ولو رجعنا إلى أصدق تاريخ وهو القرآن الكريم لأدركنا جهل الإنسان وحمقه وقسوته الوحشية التي لا مثيل لها .

فالإنسان هو الذي ألقى خليل الله إبراهيم في نار كان لهبها يحرق الطير في جو السماء . وهو الذي نشر رسول الله زكريا . وهو الذي ذبح رسول الله يحيى بن زكريا ، وجاء برأسه في طبق من ذهب . وهو الذي قتل في يوم أربعين نبياً من بني إسرائيل ، وفي آخر اليوم نفسه قتلوا سبعين عالماً ، لأنهم لاموهم على قتلهم الأنبياء ، وأنكروا عليهم إجرامهم ووحشيتهم .

وليست وحشية الإنسان موجهة ضد المؤمنين الصادقين وحدهم ، فكم قرأنا وسمعنا ورأينا بأعيننا من قسوة الولد على أبيه ، وظلم الأخ لأخيه ، وبطش الوالد ببنيه ، وقهر الزوج لزوجته ، وسفك الحاكم دماء المحكومين وإذلالهم واستعبادهم إلى آخر هذه الأهوال والمآسي التي يلقاها الإنسان من الإنسان ، ولكن الذي يميز الناس في موقفهم من المؤمنين عن موقفهم من غيرهم ما يأتي :

أولاً : العالم الإنسي كله يعادي المؤمنين ، وتلك طبيعته ، وذلك شأنه منذ أن خلق الله الإنسان إلى اليوم ، وإلى أن تقوم الساعة مع اختلاف فقط في درجة هذه العدواة وآثارها .

ثانياً : هذه العدواة طبيعية ، لأنها عداوة بين حزب الشيطان وحزب الرحمن ، والتلاقي بينهما في حكم المستحيل .

ثالثاً : لا يقف الأمر عند إظهار العداوة للمؤمنين ، بل يتعداها دائماً إلى محاولة القضاء عليهم أو ردهم عن دينهم .

وهذا كله مفهوم من قوله تعالى :

﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾ البقرة (٢١٧) .

ومن قوله تعالى :

﴿ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ الممتحنة (٢) .

ومعنى يثقفوكم هنا : يتمكنوا منكم .

ولهذا قال تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ، تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ ﴾ الممتحنة (١) .

والخلاصة : أن العداوة بين الإيمان والكفر عداوة بين طبيعتين متناقضتين فلا يلتقيان أبداً ولا أمل في صلح ووفاق بين متناقضين بالطبيعة ، وأن هذه العداوة تأخذ دائماً شكل السطو والقهر والحرب الباردة أو الساخنة .

وأن للكفار أملاً في القضاء على المؤمنين ، وليس للمؤمنين أمل في القضاء على الكفار ، لأن الله تعالى علمهم أن الحياة بدأت بالإيمان وتنتهي بالكفر ، كما علمهم أن الصالحين في الأرض عددهم دائماً بالنسبة للكفار قليل .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يوسف (١٠٤) .

وقال تعالى :

﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ الأنعام (١١٦) .

فلا بد إذاً من إدراك المؤمنين لواقع الكافرين ، وعدائهم الأصلي لهم ، ومحاولتهم الدائمة للقضاء عليهم ، وكتم أنفاس دعوتهم ، وحصر تحركات مبادئهم ، واستعمال أشد أنواع التضييق ضدهم ، سواء كان هؤلاء الكافرون في ثياب شيوعيين ، أو في ثياب يهود ، أو نصارى أو حتى في ثياب مدعي الإسلام . .

ويجب أن يدركوا أن هؤلاء جميعاً مقتنعون باستباحة دم المسلم وماله وعرضه ، وأن مهادنتهم للمسلم أمر استثنائي عَرَضي ، وليس أصلاً ولا مبدأ . وأن الصورة التي تصل إلينا كل يوم عن طريق أجهزة الإعلام ، تكشف لنا عن ضربة للإسلام هنا وضربة هناك حتى تتوزع الضربات على البلاد الإسلامية توزعاً مخططاً مرسوماً ، بحيث لا تحدث الضربة في أي بلد إسلامي شد إنتباه المسلمين إليها إلا فترة وجيزة ، ثم نسمع دوي ضربة أخرى في بلد آخر فيُنْسى اللاحق منها السابق ، ويلهي ما يحدث في الشرق عما حدث في الغرب وهكذا . . . ضرب يتوالى وانتقاص من أفراد المسلمين وأرض الإسلام بطريقة مسبوكة ومحبوكة ، ومتمشية مع أسلوب العصر . . هذه الصورة إن استمرت فلن تبقي للإسلام والمسلمين إلا المذلة والهوان ، وحياة يكون الموت خيراً منها وأكرم ألف مرة .

فماذا يفعل المسلمون إذاً ؟ .

هذا سؤال ليس لنا الحق في الإجابة عليه من عند أنفسنا ؛ إنما الذي يجيبنا عليه هو الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه محمد ﷺ ، لأن الله تعالى هو خالق الإنسان وهو الأعلم بما يصلح له .

ولأن الله تعالى هو المالك للإنسان ، والمتصرف في شأنه ، والكل عبد خاضع لأمره تعالى وحكمه .

ولأن الله تعالى هو الذي بين لنا طبيعة الإنسان ، وشرع الطريق لإصلاحه وتهذيبه .

فلنبحث إذاً عن الطريق الذي رسمه الله لنسير عليه في حياتنا الإنسانية .

الجهاد سبيل المؤمنين

المؤمن عضو في حزب الله تعالى . وهو أرضي سماوي . . جسدي روحي . . إنساني رباني . . . ليس على شاكلته إنسان غيره إلا أن يكون عضواً مثله في حزب الله ، له فكره ، وثقافته ، ونظرته إلى الحياة ، وآماله وآلامه ، وأهدافه وغاياته ، وانطباعاته عن الكون ، وعن الأحياء والأموات ، وعن الدنيا والآخرة ، وعن الملائكة والجن والأرواح وكل عالم الغيب . فهو إنسان فريد على الأرض ولو كان واحداً . وهو فوق ذلك كله : مع الله جل جلاله .

يحب الله ولا يحب سواه مثل حبه لله :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ البقرة (١٦٥) .

ويخضع لجلال الله وعظمته فلا يسجد لأحد غيره :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ الفاتحة .

يسلم نفسه لربه إسلام المخلصين الخاضعين :

﴿ واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيكَ الْيَقِينُ ﴾ الحجر (٩٩) .

يؤمن بأن الله لا يعجزه شيء فيعتمد عليه في كل أمره :

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ﴾ الفرقان (٥٨) .

يرى الظلام في جميع حياة البشر إلا إذا استضاءوا بنور الله وهديه :

﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ النور (٤١) .

ويرى الفكر الإنساني بغير الإيمان عصارةً دنسة وعفناً من أثر الطين :

﴿ إِنَّمَا الْمُشرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ التوبة (٢٨) .

ويشعر بأن انتماءه الحقيقي إلى الله وحده :

﴿ يَا عِبَادِيَ الذينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ ﴾ العنكبوت (٥٦) .

ويشعر بالعزة والسيادة وإن كان حبيساً مغلول اليد والرِّجْل :

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المنافقون (٨) .

ويشعر بالطمأنينة وإن كانت الدنيا كلها من حوله تتزلزل هلعاً وفزعاً :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ الرعد (٢٨) .

ويشعر بالانفصال الشعوري عن غير المؤمنين وإن عاملهم وخالطهم :

﴿ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الممتحنة (٤) .

وهو يزن الأمور بغير ما يزن به الكافرون لأن معه ميزان السماء :

﴿ وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ ﴾ الأنعام (١٥٣) .

ويزن الإنسان بالتقوى والتزام حدود الله :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ الحجرات (١٣) .

ويعيش حراً لا يذِل لإنسان ، ولا يخضع للهوى ، ولا ينحني لغير الله :

﴿ فاعْلَمْ أنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ محمد (١٩) .

وهو يدرك بأن عين الله ترعاه ، وأن رقابته تعالى لضمير العبد دائمة :

﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ غافر (١٩) .

وهو ينفعل مع آيات الله ويتأثر بكلماته ووحيه :

﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ الأنفال (٢) .

هذا هو المؤمن الذي يجعله إيمانه يتفاعل مع وحي الله تعالى من كتاب وسنة تفاعلاً حقيقياً حياً بحيث يكون موقناً برقابة الله عليه ، وموقناً بأن الله تعالى أرحم به من أبيه وأمه ، فيحيا تحت جناحي خوفه من الله تعالى وحبه له ، فيمنعه الخوف من التحالف مع الشيطان والتبعية له ، ويدفعه الحب إلى عبادة الرحمن والتمتع بالخضوع لأمره ونهيه ، وحين يصير المؤمن كذلك فإنه يصبح صاحب رسالة ، له غاية يسعى إليها ، وهي « رضاء الله تعالى وشكره وحسن عبادته » وله وسيلة محددة توصل إلى هذه الغاية ، وهي السير على النهج الرباني ، والشريعة الإلٰهية التي اختارها الله تعالى لتكون وسيلة إلى الغاية المرجوة .

وخلاصة الغاية والوسيلة مذكورة في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ * جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عدنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ البينة (٧ ، ٨) .

فالغاية أن يكون الإنسان خير خلق الله ، وأن يرضى الله عنه ، ويرضى هو بعطاء الله تعالى .

والوسيلة إيمان وعمل ، وكـل من الغاية والوسيلة أمر صعب المنال على البشرية في مجموعها حيث يحتاج إلى عمليات ثلاث ، كل منها شاق وصعب ، وكل منها يحتاج صبراً ومصابرة ، وثباتاً وتضحية ، وبذلاً من النفس ، والمال ، والوقت ، والفكر ، والجهد ، والعلم ، والعمل ، وكل شيء يملكه الإنسان ، أو يتحكم فيه .

وهذه العمليات الثلاث هي :

جهاد النفس . وجهاد المجتمع البشري بالحكمة والموعظة الحسنة . وجهاد لهذا المجتمع بالسيف والمدفع ، وكل أسباب القوة إذا لزم الأمر حسب الشرع .

ولذا كانت حياة المسلم الصادق الإيمان المتصف بالصفات السابقة كلها جهاد وتضحية ولا سبيل للحياة الكريمة في الدنيا والآخرة إلا بهذا الجهاد في سبيل الله تعالى .

ولكون هذا الجهاد شاقاً ، ولأن الآخذين به قلائل ، ولكثرة الشرور والمغريات والشهوات في العالم الأرضي . لذلك كله لم يثبت على هذا الجهاد بأقسامه الثلاثة إلا عدد محدود من الناس ، وهذا ما نص عليه قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ يوسف (١٠٣) .

وتلك حكمة الله تعالى ، وهو أعلم بعباده وأرحم ، ولا يُسأل عما يفعل ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، سبحانه وتعالى ، له الحكم وإليه ترجعون . وما ربك بظلام للعبيد .

وهذه الأنواع الثلاثة من الجهاد هي التي سنتكلم عنها في هذه الرسالة مع الإيجاز في الأول والثاني والإطناب في الثالث ، حيث إن الحال يقتضي ذلك .



جهاد النفس

العالمُ في أكثريته الساحقة يموج بالشر ويضطرب بالشهوات والفتن ، وتطفو على سطحه أنواع من الفساد المدمر ، وتحكمه أفكار شيطانية ، وقوانين استغلالية ، ومبادىء فيها هدم لكل مقومات الإنسان الفاضلة الكريمة ، وتحيط به بيئة منحرفة عن الحق ، مستسلمة للهوى ، مفتونة بالشهوات المحرمة ، ويرث هذا الإنسان كل ما تركه السابقون من فساد في العقيدة والتصور ، وانغماس في الضلال ، وخضوع لشريعة الشيطان ، وتحليل للحرام ، وتحريم للحلال ، واستحسان لأحط الأعمال وأقذر المعاصي ، وهو مع ذلك في طبعه ميل للشهوات ، ويحيط به شياطين الإنس والجن .

فهو ابن البيئة ، والثقافة ، والتربية ، والأفكار ، والمواريث ، وكل ما نشأ فيه ، وما يحيط به ، وما يؤثر فيه ابتداء من الأسرة ، إلى الأمة ، إلى الدائرة الإنسانية العامة .

هذا الإنسان إذا نزل من أجله هدى السماء ، وجاءه من الله أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ، وحضره من قبل الله تعالى كتاب ، وجاءه من عنده رسول يأخذ بيده ، ويسمو به إلى أعلى ، وينظم له شؤون حياته على أساس من العدل والرحمة ، ويستنقذه من كل ما هو سبب تدميره وتحطيمه وإشقائه في الدنيا والآخرة : إذا حدث هذا فإن موقفه يختلف ، فمن الناس من تغلب عليه

كل تلك التراكمات ، وتضغط عليه كل هذه المؤثرات ، فلا يرفع للدين رأساً ، ولا يعيره أدنى اهتمام ، بل يسخر منه ، ويهزأ به ، ويعادي الدعاة إليه ، ويحارب كل من يحاول أن يغير من خط سيره ، وأن يزرع في رأسه نباتاً طيباً ربانياً ، مكان نبات خبيث شيطاني دنس .

والتعبير القرآني عن هذا النوع من الناس يريك ضعف إرادته ، وانهيار شخصيته ، وانسلاخه إنسلاخاً كلياً من صورة الإنسانية السامية الكريمة إلى صورة الحيوانية الهابطة المنحطة .

فيقول تعالى في مانع الكفار من الإيمان وقبول دعوة الحق موقف الإنسان يختلف تجاهه :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين (١٤) .

والمعنى : ليس تكذيب الكفار بسبب أن القرآن مجموع من كتب الأولين وأساطيرهم وقصصهم كما يفترون ، بل سبب تكذيبهم أن الذنوب التي فعلوها وعاشوا فيها زمناً طويلاً أثرت على قلوبهم فجعلت عليها راناً مثل الصدأ يحجبها عن معرفة الحقيقة والوصول إليها .

وهذه الذنوب التي حجبت قلوبهم هي كل ما ورثوه من ثقافة وتقاليد سيئة ، وكل ما يحيط بهم من شهوات وشياطين ومغريات ، وما يعيشون فيه من أسرة ومجتمع إلى آخر ما سبق . فكل هذه التراكمات السيئة هي الصدأ الذي حجب عقولهم وقلوبهم فصاروا لا يعقلون عن الله ولا يفقهون شيئاً لصالحهم .

وقال تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ ؟ ﴾ المائدة (١٠٤) .

وهكذا أثرت فيهم التقاليد العفنة التي لم تبن على علم ، ولا على فكر سليم ، فآثروا ما عليه آباؤهم الحمقى الجهال على ما جاءهم من عند الله تعالى !!! :

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ البقرة (٦) .

وهذا النوع من البشر تراه في أعماله وتصرفاته وأخلاقياته وحشياً عفناً دنساً رديئاً في كل شيء ، وتراه حيوانيَّ النزعة ، خنزيري الشهوة ، ذِئبي السطوة ، ثعلبي الفكرة ، ولا تكاد تفرق بينه سنة عشرة آلاف قبل الميلاد ، وبين أمثاله سنة ألفين بعد الميلاد .

فالرجل الذي كان يخطف الفتاة ويغتصبها قهراً وإذلالاً في القديم هو الذي يفعل ذلك في الحديث . . كل الفرق في الأداة التي تساعده على الخطف حيث كانت حصاناً فيما سبق ، وهي في الحاضر سيارة أو طيارة .

والذين كانوا يأتون الذكور والإناث على الطريق وأمام المارة والمشاهدين فيما مضى يفعلون ذلك اليوم وبنفس الطريقة في بلاد معروفة .

والإنسان الذي نحت الحجر وعبده في الماضي هو الذي يفعل أشباه ذلك اليوم وأكثر منه . والحاكم الذي قال : « أنا ربكم الأعلى » فيما سبق تجده موجوداً اليوم في كل دولة ، وفي كل أرض ، وفي كل وزارة ، وفي كل إدارة ، وفي كل مؤسسة . . . هي فكرة التأله البشري على ضعفاء البشر والمحتاجين منهم ، هي فكرة التسلط الوحشي على من لا ناب له ولا مخلب ، وهم أجبن الجبناء أمام الناب والمخلب والقوة . . . يا لها من نفوس حقيرة تافهة ساقطة!! وما أكثرها !!! وإني لأكاد أختنق وأنا أكتب لما أعلمه من طحن للصغار ، وسحق للضعفاء وإذلال للمحتاجين على أيدي هؤلاء

المتسلطين الساقطين الذين لا يساوي الواحد منهم بغير المنصب حفنة التراب التي تحت حذاء من يهينهم ويحتقرهم ويبطش بهم ، ولا غرابة أيها القارىء في ذلك فهي الطبيعة البشرية بغير دين كما ذكرت لك سابقاً .

هذا النوع من الناس شأنه شأن البهيمة يسوقها الراعي كيفما يشاء ، ولذا قال تعالى فيهم :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف (١٧٩) .

هؤلاء لم يجاهدوا أنفسهم ، ولم يتجردوا من الهوى ، ولم يفكروا تفكيراً متزناً ، بل غلبتهم على أمرهم أهواؤهم ، وشهواتهم ، وتقاليدهم ، والثقافات الوافدة عليهم لتدميرهم والقضاء على أمتهم ، لذلك كانوا دائماً معاول هدم لأمتهم ، وأدوات إبادة لها ، وهذا هو معنى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ * كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴾ المرسلات (١٦ ، ١٧ ، ١٨) .

هذا نوع من الناس وما أكثره !!!

وهناك نوع آخر تراه عنده استعداد للتفكير الهادىء ، والنظر المتريِّث ، والبحث المتأني ، يحاول التجرد من كل المؤثرات حين ينظر الأمور الخطيرة ، ويلغي جميع الموروثات ليكون بحثه على بصيرة ، فإذا اهتدى وعرف ، آمن وتحول وتغير وصار شيئاً آخر .

هذا الإنسان يجاهد النفس الأمَّارة ، والهوى الغلاب ، والغريزة الطاغية ، والشهوة المنحرفة ، والمواريث الساقطة ، والتقاليد المخزية ، والعادات السيئة . إنه يقول : لا إله إلا الله ، موقناً بأن معناها : لا يستحق العبادة إلا الله ، ولا يستحق الخضوع له إلا الله ، ولا أمر ولا نهي إلا لله ، ولا

حكم ولا تشريع إلا لله ، ومنه تعالى يستمد المسلم خط سيره ، وبذلك يسلم نفسه لله إسلاماً كاملاً في كل شيء فيسمى مسلماً . ويصدق بجميع القضايا التي أوحى بها الله فيسمى مؤمناً . ويقف للشياطين الإنسية والجنية بالمرصاد ، فلا يجعل لها تأثيراً على نفسه ، فيسمى صابراً ومصابراً ، ويقف عند حدود الله لا يتعداها ، إلا غافلاً فيتوب ، فيسمى مرابطاً ، ويضحي في سبيل دينه بنفسه ، وماله ، وأهله ، ووطنه ، وقد يعيش مشرداً طيلة حياته فيسمى مجاهداً . . وفي ذلك يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ العنكبوت (٦٨) .

ويقول تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا ، وَصَابِرُوا ، وَرَابِطُوا ، واتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران (٢٠٠) .

هذا النوع حين يوجد في بلد ، أو في أمة ، فهو شمسها المشرقة ، وبدرها المضيء ، وزهرها العطر ، به تتصل الأرض بالسماء ، وعليه تنزل رحمة الله ، ومن حوله تلتف ملائكة الرحمان .

له قلب بريء براءة الأطفال ، ولسان طاهر طهارة ماء المزن ، ويد ممتدة بالعون كأنها عناية الله ، ووجه مشرق بالحق كأنه الصبح ، وثبات على دين الله كأنه الجبال الرواسي . . .

إنْ ماشَيْتَهُ نفعك ، وإن صاحبته خدمك ، وإن شاورته نصحك ، وإن عاتبته عذرك ، وإن واسيته شكرك ، وإن خاصمته صالحك . صَدُوقٌ ، عف ، أمين ، يخاف الله ، فهو كما قال الله فيه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يبتغونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً ، سِيمَاهُمْ فِي

وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ الفتح (٢٩) .

وجهاد النفس أشد جهاد وأصعبه وأدومه ، وهو جهاد بالليل ، وبالنهار ، وفي العسر واليسر ، وفي الضيق والسعة ، وفي العقيدة والعبادة والمعاملة ، وفي العزلة عن الناس والاجتماع بهم ، وهو جهاد بالفكر والذكر ، والصوم والصبر ، وكل أسباب التقوية الروحية وهو جهاد يستدعي أن يكون الإنسان يقظاً واعياً ، عالماً بمواطن الضعف ، وأساليب الشيطان ، وتيارات الباطل ، ومداخل الشُّبَه والشكوك ، وعلوم الحرام والحلال ، وأوامر الله ونواهيه الخ .

وبدون الجهاد الذي يصقل النفس ، ويصفي الروح ، ويغير كل شيء في حياة الإنسان المؤمن ، ويجعل المسلم متبوعاً لا تابعاً ، ورأساً لا ذيلاً ، ومغيِّراً لا متغيراً حسب الأهواء والشهوات ، بدون هذا النوع من الجهاد يسمى الإنسان مسلماً فقط وليس مؤمناً ، ويعتبر اسماً لا مسمى له ، ولافتة لا تعبر عن حقيقة ، وصورة لا روح لها ولا جوهر .

وحين فقد المسلم جهاد نفسه فقد شخصيته الإسلامية ، وضرب أسوأ مثل للمسلمين ، وتحول إلى مسخ يسكر ، ويعربد ، ويزني ، ويسرق ، وينهب الضعفاء ، ويبطش بالمساكين ، ثم يدعي بعد ذلك أنه مسلم .

إن الجهاد النفسي يحدث تفاعلاً داخلياً وخارجياً يتولد عنه إنسان متميز كل التميز عن العالم الإنسي كله حتى يستحق الانضواء تحت قوله تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

وعدم الجهاد النفسي يلغي شخصية المسلم ويلغي مقومات إسلامه ، ويلغي أسس حياته الإسلامية حتى يصير مسخرة بين الناس ، فهذا مسلم شيوعي ، وهذا مسلم اشتراكي ، وهذا مسلم رأسمالي ، وهذا مسلم وجودي ، وهذا مسلم هبيزي إلى آخر هذه المهازل التي اجتاحت المجتمع الذي يسمى مسلماً بدون أن تجد عنده أية مقاومة ، أو حصانة ، أو مناعة ،

ولذلك هزمنا عسكرياً كلما حاربنا لأننا هزمنا نفسياً كلما غزتنا أفكار ، أو مبادىء هدامة ، أو حتى مساخر ومهازل مضحكة ومبكية .

إن الإنسان حين يكون لا شيء بمبادئه ، لا يكون أي شيء بمدفعه ودبابته . . . فليفهم المتمسلمون والمتزعمون ، وصناع المهازل والمساخر ، والهزائم . . .



جهاد المجتمع بالحكمة والموعظة الحسنة

هذا الموضوع سبق بحثه في الجزء الرابع من السلوك الاجتماعي في باب « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » فليرجع إليه من شاء الوقوف على أحكامه وآدابه ومحظوراته غير أني أحب هنا أن أوضح للقارىء أن الجهاد في المجتمع شاق ومتنوع ، ويجب أنْ يتطور طبقاً لحاجات المجتمع ومتطلبات العصر .

أما كون الجهاد في المجتمع شاقاً خصوصاً في عصرنا هذا فلأن الجاهلية التي انغمس فيها المجتمع العصري جاهلية مفلسفة على أصول زعموها اجتماعية ونفسية ، واقتصادية وجنسية ، يمسك بزمامها علماء اليهود مثل : فرويد ، وداروين ، ودوركايم ، وكارل ماركس ، وغيرهم . هذه الجاهلية تجد أساليب نشرها منظمة ومخططاً لها تخطيطاً دقيقاً ، حتى إنك لتجد جميع أجهزة الإعلام كأنما زمامها بيد شيطان واحد ، يحركها في اتجاه واحد ، في وقت واحد لنشر جريمة معينة باسم الموضة ، أو التقدم ، أو العصرية إلى آخر هذه الفلسفات الشيطانية التي تدير رؤوس الفارغين ، والتافهين ، ومن لا دين لهم ، ثم ينتقل إلى غيرهم وهكذا .

وهذه الجاهلية من ورائها قوة السلاح والمخابرات والمباحث وجميع أجهزة التدمير والفتك بالشعوب ، حتى وصل الأمر إلى أنَّ الفتاة التي تلبس

ملابس شرعية تنهال عليها أكوام التهم ، وجبال السخرية ، إلى تلفيق القضايا الجنائية .

بل وصل الأمر إلى أن زوجات بعض الزعماء والرؤساء أخذن على عاتقهن أن يحطمن كل ما هو فضيلة وكل ما هو إسلامي ، وكل ما هو شرف وعزة لهذه الأمة ، وصرن فاجرات ومحاربات لكل بنت مسلمة عفيفة محتشمة تخاف الله تعالى .

هذه الجاهلية جمعت جميع القاذورات والأوساخ والدنايا التي سقطت فيها جميع الأمم السابقة من لدن آدم إلى اليوم ، مثل : الكفر والسحر والشرك والقتل والزنا واللواط والسحاق والغش والغصب والسلب والاعتداء والتأله والرشوة والكذب والنفاق وإعلان الفواحش والربا وأكل الأموال بالباطل إلى آخره . . إلى آخره . ولا نستطيع اليوم أن نأتي على آخر المنكرات في البلد الواحد فما بالك بالدولة . . بله العالم من مشرقه إلى مغربه . . ومن حكامه إلى محكوميه ، ومن أشرافه إلى الساقطين فيه . وباء كاسح من الفواحش يجتاح العالم كله ، والمتمسلمون في فلكه يدورون ، وعلى أثره ينطلقون مغمضي الأعين بلا وعي ، وبلا تفكير ، وبلا شخصية أو شعور بكرامة .

وأكثر الحكام عبدة لغير الله ، وسدنة لآلهة المال والشهوات . ومنضوون تحت ألوية أعداء الإسلام ، من شيوعيين ، واشتراكيين ، وصليبيين ، وصهيونيين وغيرهم ، وأكثرهم آلات في أيدي الأعداء لتدمير مقومات الشعوب ، وتحطيم العزة والكرامة ، وسفك الدماء ، وغصب الأموال ؛ واقتسام مكاسب الشعب مع أنصارهم وأصهارهم وحملة مباخرهم من المنافقين والذيول ، والإمَّعات والهتافين لهم ، والمصفقين لحمقهم ، وجهلهم ، وإجرامهم ، وعهرهم .

وما من جريمة من الجرائم إلا ولها حاكم يحميها ، وجيش من المجرمين يدافع عنها وينشرها ، ابتداء من إعلان الكفر بالله ، إلى دوس

المصحف وإحراقه ، إلى الزنا على ملأ من الفجار ، إلى مطاردة كل فتى أو فتاة تخاف الله وتعبده ، إلى منع الشباب من دراسة كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ في المسجد !!!

وسوف يجد المسلم الناضج الواعي طوائف من المسلمين يعادي بعضهم بعضاً باسم الإسلام ، والإسلام بريء من حمقهم وتحريفهم ، ويكفر أحدهم أخاه بغير سبب مشروع ، ويشهِّر بعضهم ببعض في غباء وسوء خلق . يا لها من مآس باسم الإسلام !!!

لذلك كله كان الجهاد في المجتمع شديداً وصعباً ، ويحتاج بذل النفس والمال ، والدأب بالليل والنهار ، وفي جميع المجالات ابتداء من المسجد إلى المسرح والسينما والفندق ، والنادي ، والملهى .

وأما كون الجهاد في المجتمع يجب أن يتطور طبقاً لحاجات المجتمع ومتطلبات العصر ، فذلك لأنني أخشى أن يقْصر المخلصون جهادهم على الكلمة المسموعة والمقروءة ، وبالأسلوب التقليدي عن طريق الإذاعة والصحف والمجلات .

إن الناس زهدوا هذه الأساليب وينتظرون أن يقدَّم إليهم الإسلام العملي وليس الإسلام النظري فقط .

إنهم يريدون إسلاماً حياً متحركاً قائماً بكل متطلبات الحياة ، منقذاً لكل حائر ، هادياً لكل ضال يبحث عن عمل يسمى ديناً ، وليس عن قول يتمسح به صاحبه ويتاجر بالدين .

إن الذي يبني مدرسة لتنشئة جيل إسلامي من البنين والبنات ، أو يقيم مستشفى لعلاج المرضى ، أو مؤسسة للعجزة ، أو صندوقاً لجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها ، أو ملجأ لإيواء اليتامى ومن لا عائل له ، إلى آخر هذه الأمور التي تُشْعِر المسلمين بأن الإسلام أداة إنقاذ ورحمة وتفريج للكروب

ودفعٍ لأسباب البؤس الشقاء ، وليس سكِّيناً في يد الدعاة يقطعون به الرقاب ويُكفِّرون به ويفسقون ، ويوزعون الناس على الجنة والنار كما يشاءون . . . إن الذي يفعل شيئاً من ذلك يكون قد جاهد الجهاد الحق ، وأدى الرسالة كما جاءت وكما طبقها رسول الله ﷺ ، وكما طبقها أصحابه ومن جاء بعدهم من المخلصين .

وهناك أشكال وأنواع وأساليب كثيرة للدعوة إلى الإسلام ، والإقناع بجدواه وبأنه الحل الوحيد لجميع المشكلات ، وبأنه يُغني عن كل ما سواه ، ولا يغني عنه ما سواه شيئاً . وبأنه المنصف الوحيد للمرأة والعامل والفلاح والمظلوم والمحروم وكل ضعيف أو مستضعَف .

وكلمة « الحكمة » في قوله تعالى :

﴿ أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل (١٢٥) .

هذه الكلمة تشمل كل ما يستدعيه المقام ويستوجبه الموقف من طرق الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه .

والمجتمع الإنساني كله في أي مكان هو موضع للدعوة والجهاد في سبيلها والصبر والثبات عليها ، وطريق هذه الدعوة والجهاد في سبيلها هو طريق جميع المرسلين والعلماء العاملين ، وجميع المخلصين والصادقين (راجع الموضوع في الأمر بالمعروف ـ الجزء الرابع من السلوك) .



جهاد المجتمع بالسيف والمدفع

سبق أن عرفنا أن الإنسان بغير دين يهذب وجدانه ، ويصقل نفسه ، ويربيه على العدل والعفة والأمانة والرحمة هو عبارة عن حيوان شرس يطغى قويه على ضعيفه ، ويسحق حاكمه محكومه ، ويدوس غنيه كرامة الفقير وإنسانيته ، ويلغ في الشهوات الدنسة ولوغ الكلاب ، ويتساقط على الدنايا والمحرمات تساقط الذباب على الخبائث ، وعصرنا على ما فيه من مدنية أكبر شاهد ، وتاريخ من سبقنا ناضح بالمخازي والمآسي من جميع هؤلاء .

وإنك لتسمع بالكبير جداً من الملوك والرؤساء والزعماء والمحركين لدفة السفينة العالمية . تسمع عن سلمه وحربه ، ونهضته بأمته وشغله الناس بسياسته ، وقد تسمع عن إصلاحه لأمور دولته ودأبه في تقدمها ، فإذا مضى عهد حكمه ، وسقط عن منصبه وعرشه ، وأدارت له أجهزة الإعلام ظهورها وسمح للناس بالإخبار عن أخلاقه وأعماله وسقطاته وتفاهاته إذا بك تفاجأ بأن الإنسان الذي لبس ثوب المصلحين الطاهرين زمناً طويلاً أو قصيراً ظهرت حقيقته وأعماله الوحشية ، ونفسيته الدنيئة القذرة بصورة تنفر الخنازير من رؤيتها .

هذا فيمن اختاره الشعب كنموذج للطهر والعفاف والإصلاح والعدل والإنصاف والأخذ بيده نحو حياة أفضل . فما بالك بالآخرين ؟ .

من أكبر جرائم هؤلاء الحكام أنهم يقفون حجر عثرة في سبيل المبادىء السماوية ، والأنوار الإلهية ، والرسالات النازلة من عند الله سبحانه وتعالى لرحمة البشر وإسعادهم وتنظيم حياتهم ، وتطهيرهم من الأوبئة التي تفتك بهم خلقياً ، ووجدانياً وعملياً ، وهم يستطيعون بما لهم من قوة التسلط على الشعوب ، والسطوة بمن يخالفهم والتنكيل به أن يدفعوا الشعوب إلى الوقوف معهم ، والشعوب في أكثريتها تلقي بزمامها لمن أعطته ثقتها سواء أكان الحاكم جديراً بهذه الثقة أم لم يكن .

لذلك نرى هذا النوع من الملوك والرؤساء والمتزعمين والمتسلطين يقفون في وجه الإصلاح الإلهي ، ويمنعون الخير الرباني من الوصول إلى من عنده استعداد لتلقيه والإيمان به والانصهار في بوتقته .

والملوك والرؤساء والمتزعمون من هذا النوع لهم في رفضهم دين الله مآرب ومقاصد تتصل بأشخاصهم وشهواتهم ورغبتهم في استدامة التسلط والقهر والظلم والاستعباد وإذلال الشعوب .

إن الدين يجعل الجميع سواسية كأسنان المشط ، حتى إن أقل واحد من الرعية له أن يقتص من ملكه ورئيسه إذا ظلمه .

والدين يأمر بتوزيع الثروة توزيعاً عادلاً بحيث لا يغبن أحد ولا يظلم ، ولا تجد إنساناً يأكل الثرى ، وآخر يأكل أخاه ويدوسه بقدميه بطراً وفحش غنى .

والدين يطهر المجتمع من الفجور والفسوق والعهر والفواحش ، والدين قبل ذلك كله وبعده يجعل الحكم لله وحده ، ويجعل الأمر والنهي لله وحده ، ويسلب الإنسان حق التشريع والتقنين والتحكم في عباد الله حسب الهوى والمزاج ومصالح المتحكمين ، فإن الذي خلق ورزق ، وأعطى ومنع ، وأمات وأحيا ، ودبر الأمر وحكم العالم ، وبيده الملك والتبديل والتغيير كما يشاء ، هو وحده الذي له الحق في أن يصدر أسمى شيء في حياة الإنسان وأخطره ،

وهو التشريع الذي ينظم له حياته ، ويوقفه على الطريق الذي ارتضاه ربه ، وفيه سعادته في الدنيا والآخرة ، والذي بدونه يكون أشقى خلق الله ، وأكثرهم جريمة وجناية وخيانة وسوء خلق مع خالقه ومالك أمره .

والحكام المتسلطون ، والزعماء المتجبرون، والرؤساء المتكالبون على الحكم ، لا يرضون إلا أن يكونوا آلهة على الشعوب ، وفراعنة على الأمم ، وأرباباً تسجد لهم الشعوب وتركع ، عنهم تصدر التشريعات وإن كانت تقطر إذلالاً وإرهاقاً ، وتجويعاً وتعرية ، ومسخاً للكرامة وقتلاً للعزة .

ومنهم تخرج القوانين بكل ما فيها من لؤم واستغلال وهدم لكل القيم والمبادىء وركائز الحياة الكريمة .

همهم أن يحاربوا الله ورسوله والمؤمنين ، ويكونوا يداً واحدة مع جميع الشياطين .

وآمالهم هي البطر والطغيان والقتل وسفك الدماء ، وترميل النساء وتيتيم الأطفال ، وإدخال الدمار والشقاء على كل الشعوب ما عدا طائفة المصفقين والمنافقين واللصوص وجميع الشركاء غير الشرفاء .

وحياتهم تحكمها الشهوة الدنسة ، والمادية العفنة ، وطباع الكلاب والخنازير والسباع .

والعالم اليوم ، ومن قبل ، ومن بعد مليء بهؤلاء الطفيليين المتسلقين على أكتاف الشعوب ، ومصاصي دمائهم .

وهؤلاء جميعهم يسوقون الشعوب سوق النعاج بطرق متنوعة لتلقى أسوأ مصير وأشقى حياة .

يزجونها في حروب لا تخدم إلا عظمة الحكام وكبرياءهم !!! ويجيعونها الشهور والسنين لكي يشبعوا هم وإخوانهم وأصهارهم !!! ويسلطون عليهم أنواع التعذيب والتشريد والسجن حتى لا يخرج منها أحد يقول كلمة حر شجاع.

ويفتكون بكل ذي رأي مستنير سواء كان فرداً ، أو حزباً أو جماعة .

فماذا يكون الموقف من هؤلاء بعد أن ضاع الأمل فيهم وفي شعوبهم وأصبح الجميع سداً منيعاً في وجه الحق ، وحجاباً كثيفاً يمنع تسرب الضوء ، وقوة متسلطة على من يقول : « ربي الله » ؟ .

ليس هناك من حل سوى أحد أمرين :

إما أن يترك هؤلاء ليطمسوا جميع الحقائق ، ويملئوا الدنيا ظلاماً وظلماً ، ويفتكوا بكل مؤمن ومؤمنة ، ويجعلوا ملك الله ضيعة لهم يتحكمون في كل ما فيها من إنسان وحيوان لصالح أشخاصهم وشهواتهم ، ويمنعوا دين الله أن يظهر ، وكلمة الله أن تعلو ، وعباد الله أن يعبدوا خالقهم ، ومالك أمرهم ، وبذلك يشيع الفساد في الأرض وتصير الكلمة العليا للأبالسة وشياطين الجن والإنس ، وإما أن يقاتلوهم ، ويقابلوهم بكل عنف وشدة وضراوة تناسب إجرامهم حتى يلينوا لدين الله ، ويذلوا لعزته ، ويخضعوا لكلماته ، ويخروا ساجدين له وحده ، سجود عبادة ، أو سجود مذلة وطاعة وانكسار .

وفي الحالة الأولى اختلال الميزان العالمي ، واختفاء أصول القيم السماوية والفضائل الربانية ، وانحدار الإنسانية إلى جميع دركات الشقاء الأبدي .

وفي الحالة الثانية إيجاد بيئة تترعرع فيها المبادىء الإلّهية ، وتعيش فيها جماعة إسلامية ، وتقيم للناس صرح كمال ، وعدالة ، وحب ، وإخاء ، وحضارة نظيفة لا عهد لهم بمثلها عن غير دين الله . وتوجد في الأرض واحة خصيبة مظلة يأوي إليها كل من ألهبته نار الكفر والضلال والفساد ففر إلى رحمة الله وعدله ونوره وكمال تشريعه وتقنينه .

الكل ينتظر حكم الله وأمره في هذه القضية .

ولقد كان حكم الله وأمره في أمم سبقت أنها حين لم تخضع لدينه ولم تستظل بظلال رحمته ، وكان المؤمنون فيها من القلة بحيث لا يستطيعون أن يكونوا جيشاً ، ولا أن يرفعوا سيفاً ، لأنهم واحد أو اثنان أو ثلاثة أو ستون إن كثر عددهم ، كان حكم الله فيهم أن أغرقهم بالطوفان ، أو أهلكهم بريح صرصر عاتية ، أو سلط عليهم جبريل فصاح عليهم صيحة واحدة قضت عليهم ، أو سلطه عليهم فحملهم هم وأبنيتهم إلى السماء ثم ألقى بكل ذلك إلى الأرض بدون رأفة أو رحمة ، أو خسف الله بهم وبدورهم الأرض ، كما قال تعالى :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ العنكبوت (٤٠) .

فلما كثر عدد المؤمنين في بني إسرائيل وصاروا بحيث يمكنهم أن يكونوا جيشاً محارباً ، وقوة ضاربة أو مدافعة ، أنزل الله الأمر بالجهاد واستعمال القوة ضد الكافرين المتمردين على دين الله وتعاليمه ، المفسدين في الأرض بكل أنواع الفساد .

ودعوة موسى قومه لقتال الجبارين مذكورة في القرآن الكريم .

وطلب بني إسرائيل من نبيهم بعد موت موسى عليه السلام وإلحاحهم عليه أن يعين لهم قائداً حربياً يختاره الله تعالى ليقاتلوا معه أعداءهم الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم أمر معروف لكل مسلم ، لأنه مذكور في كتاب الله تعالى كدرس للتربية والاعتبار .

وبعد وجود المقاتلين من المؤمنين ، وقيامهم بواجب الجهاد لإعلاء كلمة الله بالقوة رفع عن الأمم عذاب الاستئصال وصارت قوة المؤمنين القتالية كافية لتأديب المتمردين على دين الله .

ولما أرسل الله محمداً ﷺ وجعل دينه خاتم الأديان ، ورسالته خاتمة الرسالات وأمته آخر الأمم وعليها تقوم الساعة ، كان بدهياً أن تكون الركائز التي تقوم عليها هذه الأمة صالحة للبقاء حتى يأتي أمر الله بفناء هذا العالم ، وذلك الذي كان .

١ ـ فإن الله تعالى أنزل القرآن وحفظه من أن يحدث في كلمة منه أي عبث فقال :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر (٩) .

٢ ـ وأرسل الله محمداً ﷺ ، وأمره أن يبين للناس ما نزل إليهم من القرآن شرحاً وتطبيقاً ، وأمر المسلمين أن يعملوا بما يأتيهم به رسول الله ﷺ ، وينتهوا عما نهاهم عنه ، وأمرهم بطاعته ، وأخبرهم أن طاعة رسوله طاعة له سبحانه وتعالى فدل ذلك على أن سنة نبينا محمد ﷺ باقية ومحفوظة في مجملها ، ولذلك ترى أن الله سبحانه وتعالى هيأ لهذه الأمة ما لم يهيأ لأمة غيرها ، فإن علماء هذه الأمة المخلصين قاموا بما كان يقوم به النبيون فيما سبق من الأمم ، فقد نقحوا سنة رسول الله ﷺ من الدخيل ، وحافظوا عليها محافظة جعلتها متميزة ، ومصونة ، ومأمونة من أن يدخل عليها أي غريب عنها ، حتى إن الحديث الضعيف الذي عزله المسلمون عن الأحاديث الصحيحة يعتبر أقوى سنداً وحجة من الكتب القديمة الموجودة بين أيدينا ، مثل التوراة والإنجيل ومزامير داود .

٣ ـ وهيأ الله لهذه الأمة من العلماء العاملين المخلصين من قاموا ويقومون بحفظ الدين ، وتنقيته من تحريف المحرفين ، وتزييف المزيفين ، وآراء الجاهلين ، فهم حراس الفكر والعلم ، وجند الثقافة الاسلامية وحماة الشريعة الإلهية ، يفضحون كل من يحاول أن يتلاعب بمعاني النصوص ، وأحكام الشريعة المستنبطة من الكتاب والسنة ، ويعلنون الحرب العلمية على كل جاهل مغرور ، وفاتن مفتون ، وخبيث مضلل ، يريد أن يزحزح

المبادىء الراسخة ، ويتلاعب بالمفاهيم المقدسة .

٤ ـ وفرض الله الجهاد والقتال على كل مسلم ليذود المسلمون عن أنفسهم ودينهم وأعراضهم وأموالهم ، وليردعوا المستهينين بهم ، والمتسلطين عليهم ، والمخربين لدينهم أو دنياهم ، والواقفين في طريق مسيرتهم ليصدوهم أو يردوهم عن دينهم .

فالقتال في الإسلام فرض مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج وباقي فرائض الإسلام ، لأنه لا بقاء لهذه الفرائض ، ولا احترام لهَا ، ولا تأمين لفاعليها إلا بالجهاد ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، وقد نزل به أمر الله وحض عليه رسول الله ﷺ ، وجاهد بنفسه ، وجاهد أصحابه معه ، واستشهد الآلاف من خيار هذه الأمة دفاعاً عن دين الله .

وبذلك تدرك أن استعمال القوة لحفظ المبادىء والدين ، ولحماية الأنفس والأموال والأعراض أمر لازم وضروري شرعاً وعقلاً وعرفاً ، وصدق الشاعر إذ يقول :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم



القتال في سبيل الله

الجهاد في سبيل الله عن طريق استعمال القوة المسلحة ليس مبدأ من المبادىء التي أسس عليها الإسلام ، وليس أصلاً من الأصول التي لا بد منها للعقيدة أو العبادة أو المعاملة ، إنما هو مبدأ الضرورة من أجل حماية الدعوة الإسلامية ، والكلمة الإسلامية ، والجماعة الإسلامية ، مثله مثل القصاص والحدود والتعازير . . إن وجدت أسبابها وجبت ، وإلا فلا . فهو بذلك واجب لغيره لا لذاته .

وقد عرفنا أن الحديد لا يفله إلا الحديد ، وأن السيل لا يصده إلا الجبال ، وأن الوحوش لا تنزجر إلا بقوة أشد وحشية منها ، وأن من لم يتذأب أكلته الذئاب ، وقد سبق قول الشاعر :

ومَنْ لم يَذُدْ عن حوضه بسلاحه
يُهَدَّمْ ومن لا يظلِم الناسَ يُظلَمِ

ولقد بدأت الدعوة إلى الإسلام هادئة ، لينة ، مسالمة ، مهادنة إلى أبعد حد ، ولم يكن في جوهرها ، ولا في أهدافها ما يخيف أو يزعج أو يتنافى مع العقل ، بل كانت دعوةً إلى التسامي بالإنسان فكرياً وروحياً ووجدانياً على أساس من عبادة الله وحده ، دون شريك أو وسيط ، كما كانت دعوة إلى الحرية والعزة والعدل والمساواة والإخاء ، ولقد هزت المشاعر الحية السليمة

بما أعلنته من مبادىء الرحمة والإحسان ، والتطهُر من كل ما يدنس حياة الإنسان ، أو يشقيها أو يستعبدها لغير خالقها وبارئها .

بدأت الدعوة كذلك وسارت على هذا النهج ثلاثة عشر عاماً كانت كافية في إحياء ميت الضمائر ، وإنعاش روح النصفة ، وإظهار نوع من الشعور الإنساني النبيل نحو الذين عُذبوا ، وشردوا ، وفارقوا الأهل والوطن بسبب عَنت المتزعمين والمتسلطين والجبابرة ، وذوي القلوب الصخرية ، ولكن الذي حدث في النهاية كان شيئاً تشيب له الرؤوس ، وتقشعر منه الجلود ، ويتقزز منه كل ذي مَسَكة من إنسانية أو عقل ، حيث قرر مؤتمر الكافرين قتل محمد ﷺ وتشريد أصحابه ، والقضاء النهائي على دعوته كما قال تعالى :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَروا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ خَيْرُ المَاكِرِينَ ﴾ الأنفال (٣٠) .

وحين هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة بعد أن فقدوا الأمل في حياة بلا عذاب في وطنهم وبين أهليهم وذويهم ، لم يرحم كفار مكة غربتهم ، ولم يواسهم أحد في محنتهم ، ولم يحاول أحد إرضاء خاطرهم ، بل وقفوا منهم موقفاً أشد عداء من ذي قبل ، وحاولوا حصرهم بمكة وسجنهم بها حتى يظلوا تحت سياط عذابهم ، وفي قيود ظلمهم وجبروتهم ، وفعلاً استطاعوا منع المستضعفين ، ومن لا قوة لهم ولا حيلة ، إلى أن أنقذ بعضَهم بعضُ الفدائيين ، وظل الآخرون سجناء حتى فتح مكة .

وقد رأينا فيما سبق كيف أن الإنسان بغير دين يهذب وجدانه ، ويملأ قلبه بالرحمة وروح الإنسانية الكريمة ، ليس إلا وحشاً مفترساً قاسياً معتدياً على كل ذي ضعف واستكانة .

والمؤمنون حين يطالَبون بالقتال واستعمال القوة المسلحة مع عدوهم إنما يراد لهم أصلاً أمران :

الأمر الأول هو : الدفاع عن أنفسهم ضد المعتدين والجبابرة ووحوش البشر .

الأمر الثاني هو : إيجاد الجو الآمن ، والبيئة المسالمة الصالحة لغرس روح الإخاء والعدل والقيم السماوية السامية . وسيأتي لذلك توضيح أكثر .

وهذا القتال هو القتال في سبيل الله تعالى ، وسمي كذلك لأصول أربعة :

أولها : أن هذا القتال إنما اضطر إليه المؤمنون بسبب إيمانهم بالله تعالى ، واعتصامهم به ، واستسلامهم له وحده دون غيره ، فهو قتال سببه انصهار البشرية في بوتقة الألوهية .

ثانيها : أنهم ملتزمون عند القتال بدين الله وواقفون عند حدوده في كل صغيرة وكبيرة ، فالمقاتلون يقاتلون وهم سائرون في طريق الله وسبيله ، لا ينحرفون عنه ولا يزيغون .

ثالثها : أن المؤمن حين يقاتل في هذا العالم المليء بالكفر والفسق والفجور فإنه ليس له أمل إلا في الله وحده ، ولا نصر ولا جزاء إلا منه .

فالذي يحمل مدفعه ليقاتل أعداء الله على كثرة عددهم وشدة أسلحتهم في الغالب إنما يندفع إلى ذلك وله هدف واحد فقط هو : أن ينال رضاء الله تعالى سواء قَتَل أو قُتِل .

رابعها : أن المؤمن الصادق حريص على أن تكون كلمة الله في الأرض هي العليا ، وأن يظهر دينه على الدين كله ، وأن تسير جميع الأمور في الحياة كوحدة متسقة مع النظام الكوني الذي أبدعه الله تعالى وأحكمه ، والذي يحدد هذا الاتساق والانسجام هو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأي انحراف عنهما يعتبر في نظر المؤمن خروجاً على النظام الرباني ، واعتداء على الحدود التي رسمها الله تعالى ، وهذا الاتساق

والانسجام هو سبيل الله سبحانه .

وعلى هذا فالمؤمن إذا قاتل فإنما يقاتل مضطراً ليدافع عن نفسه وماله وعرضه ، وليوجد البيئة الصالحة لاستقرار المبادىء التي يؤمن بها ويدعو إليها ، واستمرارها من أجل صالح البشر .

وحين يقاتل لا يخطر بباله إلا أنه عبد خاضع لله ، متشوف لرضاه ، مستسلم في ذلة وخضوع لأمره تعالى ونهيه ، فقتاله في سبيل الله ، وليس لهوى نفسي أو بلوغ شهوة ومأرب من مآرب الدنيا ، وفي هذا يقول تعالى في سورة الحج .

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾

الحج (٣٩ - ٤١) .

فالقتال كان ممنوعاً ثم أذن الله به ووعد المؤمنين بنصره لهم ، وهو قادر على ذلك .

وبرر الله الإذن بالقتال بعد المنع منه بأن المؤمنين لم يُتركوا لعقيدتهم وعبادتهم لربهم ولكن أخرجوا من ديارهم ، وطوردوا في وطنهم بغير حق استند إليه الكافرون المجرمون المضطهدون للمؤمنين ، إنما اضطهدوهم لأنهم يقولون كلمة « ربنا الله » وكان الأولى أن يُكَرموا بسببها ، ويعززوا لأجلها .

كما يبرر الله الإذن بالقتال بذكر مبدأ عام ، وقاعدة اجتماعية ثابتة ، وسنة

مستقرة استقرار المسلمات البدهيات وهي أنه : لولا استعمال القوة ضد المجرمين وعتاة الكافرين والمتمردين ما صفا جو تعبدي لمؤمن ، ولا ترك معبد لعابد ، ولا تمكن أحد من ذكر الله تعالى وعبادته كما أمره ربه .

لذلك أذن الله بالقتال ، ووعد المقاتلين بالنصر الملازم لهم بشرط أن يلازموا عبادة الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عَن المنكر .

والصوامع : أماكن العبادة المنعزلة للرهبان خاصة .

والبيع : للنصارى عامة يتعبدون فيها .

والصلوات : هي معابد اليهود .

والمساجد : معابد المسلمين .

قال الأستاذ سيد قطب في الظلال ج ٥ ص ٦٠١ تعليقاً على هذه الآيات : إن قوى الشر والضلال تعمل في هذه الأرض ، والمعركة مستمرة بين الخير والشر والهدى والضلال ، والصراع قائم بين قوى الإيمان وقوى الطغيان منذ أن خلق الله الإنسان .

والشر جامح ، والباطل مسلح ، وهو يبطش غير متحرج ، ويضرب غير متورع ، ويملك أن يفتن الناس عن الخير إن اهتدوا إليه ، وعن الحق إن تفتحت قلوبهم له . فلا بد للإيمان والخير والحق من قوة تحميها من البطش ، وتقيها من الفتنة ، وتحرسها من الأشواك والسموم .

ولم يشأ الله أن يترك الإيمان والخير والحق عُزَّلاً تكافح قوى الطغيان والشر والباطل ، اعتماداً على قوة الإيمان في النفوس وتغلغل الحق في الفِطَر ، وعمق الخير في القلوب . فالقوة المادية التي يملكها الباطل قد تزلزل القلوب وتفتن النفوس وتزيغ الفطر ، وللصبر حد ، وللاحتمال أمد ، وللطاقة البشرية مدى تنتهي إليه ، والله أعلم بقلوب الناس ونفوسهم ، ومن ثَمَّ لم يشأ أن يترك المؤمنين للفتنة إلا ريثما يستعدون للمقاومة ، ويتهيئون للدفاع

ويتمكنون من وسائل الجهاد . . . وعندئذ أذن لهم في القتال لرد العدوان ، وقبل أن يأذن لهم في القتال والانطلاق إلى المعركة آذنهم بأنه هو سيتولى الدفاع عنهم، فهم في حمايته : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ،وَأنه يكره أعداءهم لكفرهم وخيانتهم ، فهم مخذولون حتماً ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ اهـ من الظلال .



تطور أمر القتال وأسبابُه

يجب أن يكون مفهوماً أن الفكر الإنساني لا ينشط ولا يغزو العقول إلا في جو من الهدوء والاستقرار ، كما أنه لا يصل إلى مداه إلا إذا كانت الحالة النفسية للإنسان بعيدة عن التوتر والمثيرات العنيفة التي تولد شدة الانفعال ، أو شدة الكبت . . . والعقل في الجو الهادىء المستقر يدرس الأمور بالتأني فيصل إلى أفضل النتائج .

والعقل في الجو المتوتر تغشاه سحب تحجب عنه الحقائق ، وتجعل من صاحبه صورة إنسان وليس جوهر إنسان ، وعرض المبادىء والقيم والأفكار الغريبة والأمور العجيبة والقضايا الخطيرة على الناس في جو جميل وبأسلوب حكيم ، وفي مناسبة مقبولة له أكبر الأثر في تفتح العقول والقلوب وازدهارها واستعدادها للبحث والدرس والقبول ، ما لم تكن عند الحاضرين رواسب معينة تحجب الرؤ ية ، وتشد الفكرة إلى خط معين لا يريد صاحبه سواه ، ومن هنا ندرك السر في أن النبي محمداً ﷺ كثيراً ما كان يدعو قومه إلى الإسلام في أول الدعوة بعد أن يدعوهم ويطعمهم ويحسن مجالستهم والترحيب بهم . . وقد كان استعداد النفوس لقبول دعوته جاهزاً عند كثير ممن دعاهم ، ولكن تبعية الصغار للكبار ، وكبرياء الكبار وتعاليهم على الحقائق ، والرواسب الممتدة في جذور نفوسهم إلى مئات السنين الماضية . كل ذلك كان له أثره

في عدم قبول الدين الجديد مع إيمان الأكثرية بأنه الحق ، ولا حق سواه .

كما أن ذلك يفسر لنا الحكمة في أن الله تعالى منع المؤمنين من قتال الكافرين أو استعمال الشدة معهم طوال العهد المكي الذي امتد إلى ثلاثة عشر عاماً ، مع ما لاقاه المؤمنون من عنت الكفار وإرهاقهم لهم ، وتعذيبهم وتشريدهم ، ومطاردتهم لهم أينما وجدوا ، فإن الجو الهادىء الذي كان يسود مكة في هذه المدة من الزمن أعطى أعظم فرصة للنظر في آيات الله ، والاستماع إلى رسول الله ﷺ وهو يتلو عليهم القرآن مجيباً على تساؤلاتهم أحياناً ، ومتحدياً لهم أحياناً ، ومبيناً أخطاءهم ومدى غثاثة تفكيرهم وهبوط هممهم في سور عديدة ، كما قص عليهم قصص الأولين ، وبين لهم مآل الكافرين السابقين ، وهدد القرآن وتوعد ، وفتح باب العفو والتوبة والمغفرة ، ودعاهم إلى ربهم ليرحمهم مهما ارتكبوا من آثام ، وفعلوا من إجرام الخ . فلولا هدوء الجو ، ومنع الله المسلمين من المقاتَلة ، ما وجدت العقول فرصة للنظر ، ولا قبلت النفوس عرض آية واحدة من كتاب الله عليها ، صحيح أنهم تأخروا في الإيمان وقبول الدعوة مع اقتناعهم بأن الحق مع محمد ﷺ ، ولكنهم يوم أسلموا أسلمت معهم الجزيرة العربية كلها ، لأن قريشاً ما أسلمت إلا بعد أن اقتنعت وأيقنت أنه لا يصلح لها وللناس إلا هذا الدين ، وكان أكثر العرب في الجزيرة تابعاً لقريش ، والذي يتابع خط سير الدعوة الإسلامية يجد أن الرسول ﷺ كان يحاول دائماً إيثار السلام والجو الهادىء على استعمال القوة والعنف ما لم يكن هناك مبرر أقوى ، وسبب أكبر ، ونوع من الاضطرار إلى استعمال القوة بعد إذن الله له في ذلك ، فالرسول ﷺ هو الذي عقد المعاهدات بعد الهجرة بينه وبين جميع قبائل اليهود التي كانت تسكن المدينة وما حولها ، وكانت تلك المعاهدات تقضي بأن يؤمِّن كل من الطرفين الطرف الآخر من الاعتداء عليه ، وبأن يدافع كل منهما عن الآخر ضد أي معتد خارجي ، وبأن يحيا الجميع في جو من السلام والأمن والاستقرار ، وهو الذي صبر على إيذاء المنافقين وأمر أصحابه بالصبر على ما يحيكونه من مؤامرات

وما يدبرونه من دسائس ومكائد تذهب حلم الحليم ، حتى وصل أمرهم إلى النيل من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، بل إلى أكثر من ذلك حين قرر طائفة منهم قتل الرسول ﷺ غيلة وغدراً ، ولو شاء لجعلها حرباً عليهم ، وما استطاع أحد أن يلومه على ذلك ، ولو كان حاكماً عادياً لملأ السجون بكل من حامت حوله شبهة ، وعلق المشانق وخرب الدور ، ويتم الأطفال ، ورمّل النساء ، بدون هوادة أو إنسانية ، لكن الحبيب محمداً ﷺ كان يقول حين يخاطَب في عقاب عتاتهم : كيف يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ ولا يزيد على ذلك .

وهو ﷺ الذي عقد صلح الحديبية بأمر الله تعالى وجميع شروطه ظاهرها كان في نظر المسلمين ضد مصالحهم وضد عزتهم وكرامتهم ، ونزل القرآن بعد ذلك يبين للمسلمين ، أن هذا الصلح الذي أثارت بنوده حفيظتهم وأغضبتهم كان فتحاً مبيناً لرسول الله وللمسلمين والإسلام ، وظهرت آثار هذا الصلح حين رأى المسلمون أن الذين دخلوا في الإسلام في سنتين نتيجة الجو الهادىء الذي حققه هذا الصلح كانوا أكثر من الذين دخلوا في الإسلام من أهل مكة طيلة ثمانية عشر عاماً سابقة ، وهذا أكبر دليل على أن الإسلام دين السلام ، ودين الاستقرار والأمنة والحياة المطمئنة ، وأن القتال في الإسلام ليس إلا ضرورة تقتضيها واجبات الدفاع عن النفس ، وعن حملة المبادىء ، وعن الدعاة إليها ، كما يقتضيها واجب إرغام العدو على الحذر وعلى الخوف من محاولة البطش بأصحاب هذه المبادىء والداعين إليها .

وهذه الضرورة التي اقتضت استعمال القوة هي طبيعة الحياة بين الأحياء ضد من يشذ عن الخط الإنساني المعتدل ، فينحرف انحرافاً يؤذي غيره ، ويعوق سير الآخرين ، وينغص عليهم عيشهم ، ويكدر حياتهم بغير ذنب أو جريمة .

فالذي يعرف أن من حوله لصوصاً يسطون على أمواله ومنتجاته يحاول

بكل قوة أن يقضي على هؤلاء اللصوص ليتخلص من جرمهم ، ويعيش آمناً على نفسه وماله ، والبلد الآمن حين يشعر أهله بوجود قتلة فيما بينهم ، أو وجود هاتكين للأعراض المصونة ، أو معتدين على الآمنين ، لا يهدأ لهم بال حتى يقضوا عليهم ويطهروا البلد من عبثهم .

وحين تكثر الكلاب الضالة في بلد تكون سبباً في إزعاج الناس ، أو تكثر الفئران فتتلف الأموال ، أو تكثر القطط التي تنشر الأمراض ، لازداد عدد المتواكلين والمتراخين ، وازدادت بسبب ذلك وطأة الكفار على المؤمنين حتى ينحصروا في مضيق لا يخرجون منه ، ولا يظهرون دين الله على الدين كله ، وإنك لترى في الآية التي أمرت بالقتال ما يبعث الهمم ويثير النفوس ويشحذ العزائم ، حيث أمرهم الله تعالى أن يقاتلوا من يقاتلونهم ، فإن من الجبن والمذلة والهوان أن يعلن عدوك الحرب عليك فلا تنبعث في نفسك الغيرة والحمية والحفاظ على الكرامة والمال والعرض ، بل تعطي ما بيدك ، وتسلمه نفسك يبيع فيك ويشتري ، وينزل عليك شواظاً من نار الذل والعذاب والمهانة . فالواجب قتال من يقاتلك فعلاً ، أو قتال الذي مِنْ شأنه ومن دأبه ومن طبيعته أن يحاربك ، كما ذكر المفسرون في الآية . وإنك لترى أمر القتال قد حسم في سورة البقرة بحيث صرح فيها بفرضية القتال على المؤمنين على ما فيه من مشقة على النفوس ، ومع ما فطرت عليه النفوس من كره له ، ويظهر والله أعلم أن ذلك كان بعد آية الأمر بالقتال ، وهو في سورة البقرة أيضاً . وآية التصريح بفرضية القتال هي قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

فإن الناس يتحركون بقوة للقضاء على هذه الظواهر ، وتلك سنة الله في خلقه كما ذكر في قوله تعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ .

وسوف نرى في مسيرتنا مع القرآن الكريم كيف تطور أمر القتال بما يتناسب مع الجو والظروف التي أحاطت بالدعوة ، وكيف أن الدعوة الإسلامية كانت تنشد الجو الآمن المستقر لتنمو وتترعرع ، وإليك هذه التطورات كما ذكرت في القرآن الكريم وتعليق المفسرين عليها . وهي أربع مراحل .



المرحلة الأولى : المنع من القتال

قال تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ القِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ﴾ النساء (٧٧) .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

كان المؤمنون في ابتداء الإسلام وهم بمكة مأمورين بالصلاة والزكاة وإن لم تكن ذات النُّصب (يعني أن الزكاة بمكة لم يحدد فيها النصاب الذي يعطى للفقراء ، ولا النصاب الذي تجب فيه الزكاة ، إنما كانت زكاة مطلقة) . وكانوا مأمورين بمواساة الفقراء منهم ، وكانوا مأمورين بالصفح والعفو عن المشركين والصبر إلى حين ، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشتفوا من أعدائهم ، ولم يكن الحال إذ ذاك مناسباً لأسباب كثيرة منها قلة عددهم بالنسبة إلى كثرة عدد عدوهم ، ومنها كونهم كانوا في بلدهم وهو بلد حرام وأشرف بقاع الأرض ، فلم يكن الأمر بالقتال فيه ابتداء ، فلهذا لم يؤمروا بالجهاد إلا بالمدينة لما صار لهم دار ومنعة وأنصار ، ومع هذا لما أمروا بما كانوا يودونه جزع بعضهم منه ، وخافوا من مواجهة الناس خوفاً شديداً .

﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾

أي لولا أخرت فرضه إلى مدة أخرى فإن فيه سفك الدماء ، ويتم الأطفال ، وتأيُّم النساء . . . اهـ جـ ١ ص ٥٢٥ .

وقال القرطبي في شأن الذين خافوا القتال وقالوا هذه المقالة : ومعاذ الله أن يصدر هذا القول من صحابي كريم يعلم أن الآجال محدودة ، والأرزاق مقسومة ، بل كانوا لأوامر الله متمثلين سامعين طائعين ، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيراً من المقام في الدار العاجلة ، على ما هو معروف من سيرتهم رضي الله عنهم . اللهم إلا أن يكون قائله ممن لم يرسخ في الإيمان قدمه ، ولا انشرح بالإسلام جنانه ، فإن أهل الإيمان متفاضلون ، فمنهم الكامل ومنهم الناقص ، وهو الذي تنفر نفسه عما يؤمر به فيما تلحقه فيه المشقة ، وتدركه فيه الشدة . . . وقال :

روى عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس « أن عبد الرحمن بن عوف وأصحاباً له أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا : يا نبي الله ، كنا في عز ونحن مشركون ، فلما آمنا صرنا أذلة ، فقال : « **إِنِّي أُمِرْتُ بِالعَفْوِ فَلَا تُقَاتِلُوا القَوْمَ** » فلما حوله الله تعالى إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا ، فنزلت الآية . أخرجه النسائي في سننه ، وقاله الكلبي . اهـ جـ ٥ ص ٢٨١ .

ومن الآية تدرك أن المسلمين أمروا وهم بمكة أن يكفوا عن استعمال القوة ، ومن الحديث تدرك أن النبي ﷺ نهى المسلمين عن القتال لأنه مأمور بالعفو ، وكلمة « العفو » تشعر بأنهم كانوا قادرين على الانتقام لأنفسهم واستعمال القوة ، ولكنهم لم يفعلوا ، لأنهم لم يؤمروا بذلك ، ولم يؤذن لهم فيه ، ونحن ندرك أن أي مسلم لو رد الاعتداء عن نفسه بالضرب أو القتل وله قبيلة فإن قبيلته تأبى على نفسها وعلى عزتها وحميتها الجاهلية أن تسلم هذا المسلم للآخرين ليقتلوه أو يعذبوه ، وما حدث من إيذاء للمسلمين إنما كان

من عشيرة المسلم وقبيلته إلا أن يكون مولى ليس له قبيلة ، وما حدث من تعصب بني هاشم للنبي ﷺ حتى دخلوا معه شعب أبي طالب أيام المقاطعة ، وكذلك ما حدث من قبيلة أبي بكر حين تعصبت له وأجمعت على الأخذ بثأره إن مات بسبب الضرب الشديد الذي أصابه حين دافع عن النبي ﷺ أكبر دليل على ما ذكرنا ، والأمثلة على هذا كثيرة ، ولو أن المسلمين المعذبين أرادوا الانتقام لأنفسهم ما عجزوا عن ذلك ولفعلوا ما فعله أبو جندل وأبو بصير بقريش حتى استغاثت برسول الله ﷺ طالبة منه أن يدفع عنهم بلاء هذين المجاهدين مع من انضم إليهما ، وستأتي القصة كاملة .



المرحلة الثانية : الإذن بالقتال

قال تعالى :

﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ، وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ، وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾

الحج (٣٩ ـ ٤١) .

قال ابن كثير في تفسيره جـ **٣** ص **٢٢٥** : قال العوفى عن ابن عباس : نزلت في محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس ، وقال عروة بن الزبير وزيد بن أسلم ومقاتل بن حبان وقتادة وغيرهم : هذه أول آية نزلت في الجهاد ، وقال ابن جرير حدثني يحيى بن داود الواسطي حدثنا إسحاق بن يوسف عن سفيان عن الأعمش عن مسلم هو البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما أُخرج النبي ﷺ من مكة قال أبو بكر : أخرجوا نبيهم **!!!** إنا

لله وإنا إليه راجعون ، ليهلِكُن ، قال ابن عباس فأنزل الله عز وجل (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير) قال أبو بكر رضي الله عنه : فعرفت أنه سيكون قتال . ورواه الإمام أحمد عن إسحاق بن يوسف الأزرق به ، وزاد : قال ابن عباس : وهي أول آية نزلت في القتال . ورواه الترمذي والنسائي في التفسير من سننيهما وقال الترمذي حديث حسن . والقول بأن أول آية أنزلت في الإذن بالقتال هي الآية السابقة هو قول أكثر العلماء ، وقال بعضهم : إن أول آية أنزلت في القتال والأمر به هي قوله تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ ، وَلاَ تَعْتَدُوا ، إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ البقرة (١٩٠) .

ولكن الناظر يرى أن الآية الأولى أذنت في القتال ولم تأمر ، وأن الأخيرة أمرت به ، ولا يعقل أن يأمر الله بشيء ثم يأذن به بعد ذلك ولكن العكس هو المعقول ، لأن الأمر فيه إذن وزيادة ، والإذن ليس فيه إلا أنه إذن فقط بدون أمر . .



المرحلة الثالثة : الأمر بقتال المشركين

قال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ البقرة (١٩٠) .

هذه الآية أول آية أنزلت في الأمر بالقتال بعد الهجرة ، فالمرحلة السابقة كانت إذناً بدون أمر حتى تستعد نفوس المؤمنين للتطور الجديد ، وحتى يشعر المؤمنون بأن من حقهم بعد الذي لاقوه من الكافرين أن يشتفوا لأنفسهم ويثأروا لها بعد أن أعطَوْا من الحلم والصبر والتحمل ما لا مزيد عليه لكي يرتدع الكفار وينتهوا فلم يفعلوا ، بل زادوا عُتواً وتجبراً ، خصوصاً وأن الله تعالى قبل الإذن بالقتال أرسى قاعدة أساسية عامة يطمئن اليها المؤمنون ويتحصنون فيها غاية التحصن حيث قال تعالى في الآية التي قبل آية الإذن مباشرة :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الذِينَ آمَنُوا ، إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ الحج (٣٨) .

وبعد الإذن بالقتال أرسى قاعدة أخرى تعتبر تتميما للقاعدة القبلية ، وهي أن الله تعالى قدير على نصر المؤمنين ، ولا يعجزه عن ذلك شيء ولا أحد (وإن الله على نصرهم لقدير) ، وهذا غاية ما كانت تطمح إليه نفوس

المؤمنين ، وهو أن يسمح لهم بالقتال ليشتفوا ، وأن يعطوا مع ذلك وعد الله بالدفاع عنهم وبنصرهم ، لأن ذلك هو المسار الصحيح لمنع الفساد في الأرض ، ولتمكين المؤمنين والعابدين من عبادة الله تعالى ، فآية الإذن كانت بداية الأمل في انفراج الأزمة وظهور المؤمنين ، واستعلاء الإسلام على كل دين سواه ، ثم بعد فترة تهيأت فيها النفوس للقتال وأحست بضرورته ، نزلت آية الأمر بالقتال حتى يدرك من ظن أن له الخيار في أن يقاتل أو لا يقاتل بأن القضية ليست قضية اختيار وإنما هي قضية إلزام مفروض من قبل الله تعالى ، وفي هذه تيئيس للنفوس الضعيفة من الكسل واللجوء الى حياة الدعة ، والخمول والتواكل حين ظنت أن الاذن يعطيها الحرية في أن تقاتل أو لا تقاتل ، فإن الأمر لو ترك كذلك لازداد عدد المتواكلين والمتراخين ، وازدادت بسبب ذلك وطأة الكفار على المؤمنين حتى ينحصروا في مضيق لا يخرجون منه ، ولا يُظهرون دين الله على الدين كله ، وإنك لترى في الآية التي أمرت بالقتال ما يبعث الهمم ويثير النفوس ويشحذ العزائم ، حيث أمرهم الله تعالى أن يقاتلوا من يقاتلونهم ، فإن من الجبن والمذلة والهوان أن يعلن عدوك الحرب عليك فلا تنبعث في نفسك الغيرة والحمية والحفاظ على الكرامة والمال والعرض ، بل تترك ما بيدك ، وتسلمه نفسك يبيع فيك ويشتري ، وينزل عليك شواظاً من نار الذل والعذاب والمهانة . فالواجب قتال من يقاتلك فعلاً ، أو قتال الذي مِن شأنه ومن دأبه ومن طبيعته أن يحاربك ، كما ذكر المفسرون في الآية . وإنك لترى أمر القتال قد حسم في سورة البقرة بحيث صرح فيها بفرضية القتال على المؤمنين على ما فيه من مشقة على النفوس ، ومع ما فطرت عليه النفوس من كره له ، ويظهر والله أعلم أن ذلك كان بعد آية الأمر بالقتال ، وهو في سورة البقرة أيضاً . وأية التصريح بفرضية القتال هي قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا

تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٢١٦) .

ومعنى آية «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين» على ما قاله ابن عباس وعمر بن عبد العزيز: أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم، قال أبو جعفر النحاس : وهذا أصح القولين في السنة والنظر ؛ فأما السنة فحديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولة فكره ذلك ونهى عن قتل النساء والصبيان ، رواه الأئمة ، وأما النظر فإن «فاعَل» لا يكون في الغالب إلا من اثنين ؛ كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة ، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان ومن أشبههم كالرهبان والزَّمْنَى والشيوخ والأُجراء فلا يقتلون الخ ، جـ ٢ ص ٣٤٨ من تفسير القرطبي .

والرأي الثاني هو أن الآية تأمر بقتال الكفار إن قاتلوا ، والامتناع عن قتالهم إن لم يقاتلوا ، وهذا القول يعطي المبادرة للكفار دائماً لو أُخذ به ، ويجعل المسلمين دائماً ليسوا إلا مدافعين عن أنفسهم ، والمدافع أضعف المقاتلين ، ولذلك يقول أصحاب هذا الرأي : إن هذا الحكم نسخ بسورة براءة .



المرحلة الرابعة : الأمر بقتال كل كافر من المشركين وأهل الكتاب

قال تعالى :

﴿ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ ﴾ براءة (١ ، ٢) .

وقال تعالى :

﴿ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ براءة (٥) .

وقال تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ براءة (٢٩) .

هذه الطائفة من الآيات هي آيات المرحلة الأخيرة فيما يتصل بمعاملة الكافرين ـ سواء كانوا وثنيين أم أهل كتاب ـ في موضوع الحرب والسلام . وقد

تناولت الآيات فريقين من الكافرين : فريق الوثنيين عباد الأصنام من أهل الجزيرة العربية ، وفريق أهل الكتاب ومن يشبههم . فأما الفريق الأول فإن الله تعالى أنزل براءته منه ، وبراءة رسوله كذلك ، وأعطاهم مهلة أربعة أشهر يعيشون فيها مطمئنين لا يتعرض لهم أحد ، وهي الأشهر التي حرم الله على المسلمين أن يرفعوا فيها سيفاً على أحد من الكافرين سواء كانوا معاهدين للنبي ﷺ أو غير معاهدين ، وسواء كان انقضاء مدة المعاهدة قبل الأربعة الأشهر أو بعدها ، أو تنتهي بانتهائها على القول الأقوى . . . وكانت مهادنة الكافرين في الجزيرة العربية لا تسمح بأكثر مما سمح لهم به ، حيث مضى على الدعوة إلى الإسلام اثنان وعشرون سنة اقتنعوا فيها اقتناعاً كاملاً بصدق النبي محمد ﷺ وصدق رسالته ، وضرورة الأخذ والعمل بالدين الذي جاء به ، ولكن الرواسب الجاهلية كانت لا تزال تقعد بعضهم عن الانضمام الى الذين دخلوا في دين الله أفواجاً بعد فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، فأنزل الله هذه الآيات سنة تسع من الهجرة لأمهالهم مدة أربعة أشهر فقط ، وبعدها سيجدون المسلمين شاهرين سيوفهم في وجه من لم يؤمن ولم يخضع للإسلام .

ولذلك نزل الأمر للمسلمين بأن يقتلوا المشركين في أي مكان وجدوهم فيه بعد هذه المدة ، وأن يأخذوهم أسرى إن أمكنهم ذلك ، وأن يقعدوا لهم كل مرصد ، ولا يتركوهم إلا إذا تابوا وآمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة .

وأما فريق أهل الكتاب فإن النبي ﷺ لم يعلن الحرب عليه ابتداء حتى نزلت هذه الآية (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله الخ) وما قاتل منهم قبل ذلك إلا الذين نقضوا العهد وغدروا بالنبي وبالمؤمنين ، مثل بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة وأهل خيبر . ولكن في هذه الآيات التي أنزلت في السنة التاسعة من الهجرة أُمر النبي ﷺ بأن يعرض عليهم الإسلام فإن قبلوا فهم إخوان المسلمين ، وإن لم يقبلوا عرض عليهم أن يدفعوا الجزية للمسلمين ،

ويخضعوا للشروط التي يتفق المسلمون معهم عليها فإن امتنعوا فالقتال هو الفصل بينهما .

ولم يكن الأمر يحتمل غير ذلك بعد أن ظهر غدر هؤلاء ونكثهم للعهود وتربصهم بالمسلمين ، والاتفاق مع الوثنيين للقضاء على أهل الإيمان .

والذي يدرس السيرة النبوية وحركة الدعوة الإسلامية ، ويدرك ما لاقاه الرسول ﷺ والمسلمون معه من الفريقين ، ويدرك أن حياة الرسول في علم الله تعالى لم يبق منها سوى سنة واحدة يستطيع أن يفهم الحكمة في هذا التشريع . وقد أثبتت الأحداث أن المسلمين ما لم يكونوا أقوياء على أعدائهم ، وما لم يفرضوا على غيرهم الخضوع لسلطانهم العادل الرحيم ، فإن أعداءهم لا يرحمونهم ولا يتركونهم لبناء الحضارة ، ولا لتمكين الدين ، ولا لاظهاره ونشره بين البشر ، والتاريخ خير شاهد ، والواقع أكبر دليل على ذلك وقد سبق أن ذئاب البشرية متربصون دائماً بحملانها المسالمين .



سبيل الله . . . وسبيل الشيطان

يجب أن يكون مفهوماً لدى المسلم أن جميع طرق السلوك وسبله بالنسبة لنظرة الإسلام إليها عبارة عن طريقين فقط ، ومهما كثرت السبل المنهجية فهي منحصرة في هذين السبيلين ، وهما سبيل الله . . وسبيل الشيطان .

فكل منهج أنزله الله تعالى وبينه رسوله ﷺ فهو سبيل الله ، وكل منهج ليس من صنع الله ولا حسب كتابه وسنة نبيه ﷺ فهو منهج مضاد ، وكل منهج مضاد لدين الله فهو منهج الشيطان سواء كان واضعه فيلسوفاً ، أو زعيماً ، أو مصلحاً ، أو مخرفاً ، وسواء سمى واضعه محموداً ، أو جرجساً ، أو كوزونوفا ، أو أي اسم من أسماء مشرعي البشر ، ذلك أن الله تعالى هو خالق الناس ومربيهم ، وهو أعلمُ بأنفسهم وطباعهم ، وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم ، وهو محاسبهم ومجازيهم على جعمالهم ، فلو لم يضع شرعاً ولم ينزل ديناً يهتدي الناس به لتضرع إليه العقلاء ، واستغاث به أصحاب الفطر السليمة ، ورجاه كل ذي نصفة ، كي ينزل له ديناً يحدد معالم الطريق الصحيح ، ويعالج المشكلات ، ويضع للناس أصول الاستقرار والحياة الطيبة الكريمة . كما يضع الأسس والموازين التي يكون بها الحساب والجزاء في الدنيا والآخرة .

وإنما نسب المنهج المضاد لمنهج الله الى الشيطان وأضيف إليه مع أن واضعه إنسان ، لأن هذا الإنسان الذي رضى لنفسه أن يحارب الله تعالى بإبعاد الناس عن دينه ومنهجه ، والذي يحاول صرف البشر عن رحمة الله وتشريعه العادل ومبادئه الربانية ، إنما فعل ذلك لأن الشيطان استحوذ عليه واتخذه مطية له كي يبلغ به مأربه في إضلال البشرية وإشقائها ، مع العلم بأن كل فاعل شر يسمى شيطاناً ، لأن الشيطان تعريفه : هو كل متمرد على الله تعالى وصاد عن دينه ، ومنحرف عن سبيله ، ولذلك يسمى منهجه وقانونه وتشريعه ، وحكمه ، منهج الشيطان ، وتشريع الشيطان ، وقانون الشيطان ، وحكم الشيطان .

وإذا كان كل متمرد على الله وصاد عن دينه ومنحرف عن سبيله يسمى شيطاناً فإن كلمة «الشيطان» تكون حينئذ مقابلة للفظ الجلالة «الله» مقابلة مضادة .

وسبيل الشيطان يكون هو المضاد لسبيل الله .
وحزب الشيطان هو الحزب المحارب لحزب الله .
وأمر الشيطان هو الأمر المناوىء لأمر الله .

ومن هنا نستطيع إدراك ما جاء في القرآن الكريم والسنة المطهرة من ذكر هذه المقابلات المضادة بين منهج الله ومنهج الشيطان مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ (الشيطان) فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشَّيْطَانِ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ النساء (٧٦) .

وقوله تعالى :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ واللَّهُ يَعِدُكُم مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة (٢٦٨) .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ، فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ آل عمران (١٧٥) .

وقوله تعالى :

﴿ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً ﴾ الكهف (٥٠) .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴾
الزخرف (٣٦) .

وقوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ (الشيطان) وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ ، وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيداً ﴾ النساء (٦٠) .

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : خطَّ رَسُولُ الله ﷺ خَطّاً بيَدِه ثم قال : **هذا سَبيلُ الله مستقيماً ، وخط عن يمينه وشِماله ثم قال : هَذِهِ السُبل ليسَ منها سبيلُ إلا عَلَيهِ شَيطْانٌ يدعو إليه ثم قرأ (وأنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتفَرقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِه)** . رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح ولم يخرجاه .

فمعنى « سبيل الله » على هذا هو : الطريق الذي شرعه الله لعباده وعينه للسير فيه .

والقتال في سبيل الله : هو القتال الذي شرعه الله تعالى ، أو جعله ضمن شرعه .

وإذا فُهم هذا استبان لك أن القتال في سبيل الدفاع عن النفس وعن الدين وعن المال وعن الأهل وعن الضعيف والمظلوم يعتبر قتالاً في سبيل الله ، لأنه قتال شرعه الله تعالى ، وأذن فيه ، أو أمر به ، ولذلك كان من قُتِل دفاعاً عن واحد مما ذكر يعتبر شهيداً كما نص على ذلك الحديث الصحيح .

فعن سعيد بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **مَنْ قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شهيد ، ومن قُتِلَ دُونَ دَمِه فهو شهيد ، ومَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِه فَهُو شَهِيد ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أهْلِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ** » . رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **منْ قُتِلَ دُونَ مالِه فهو شهيد** » . رواه البخاري والترمذي .

وإنك لتدرك أن نصرة المظلومين والمستضعفين في سبيل الله من قوله تعالى : .

﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ النساء (٧٥) .

فإن كلمة « والمستضعفين » معطوفة على « سبيل الله » من باب عطف الخاص على العام . ويتضح لك الأمر أكثر إذا علِمت أن كل مسلم مطالب بإعلاء كلمة الله ، وكلمة الله هي أوامره ونواهيه ، أو هي دينه الذي أنزله وتشريعه الذي يوجب على الناس إتباعه .

ولا يمكن إعلاء كلمة الله بدون إنسان يحمل هذه الكلمة إيماناً بها ، وتطبيقاً لها ، ودفاعاً عنها ، فالدفاع عن المسلم هو إعلاء لكلمة الله ، ولو كان هذا المسلم صبياً ، وقتل المسلم قتل لحامل هذه الكلمة ، حيث لا يمكن وجود الكلمة بدون حامل لها على النحو السابق .

ومقومات كل إنسان هي دينه وأهله وماله ونفسه . لذلك كان الدفاع عن واحدة منها هو قتال في سبيل الله ، لأنه قتال في سبيل مقومات المسلم الذي يحمل كلمة الله .

وهذا الفهم يعطي المسلم سعة الأفق وشمول الوعي ، ونضج التفكير ، ويحل له كثيراً من المبهمات ، ومما أشكل عليه بسبب الأحداث المتراكمة على الأمة الإسلامية .

وفي المسيرة مع قتال الرسول ﷺ ندرك الأمور على حقيقتها ، وإليك تفصيلاً لذلك .



بعض غزوات الرسول ﷺ
وما فيها من عبر

أحاول هنا عرض نماذج من غزوات الرسول ﷺ من أجل ذكر أسبابها ونتائجها لكي ندرك من ذلك معنى « سبيل الله » ومعنى « إعلاء كلمة الله » فإن المتفق عليه ، والذي لا يشك فيه أحد هو أن الرسول ﷺ لم يرفع سيفاً إلا في سبيل الله ، وفي سبيل إعلاء كلماته ، ومن فهم غير ذلك فقد ارتكب ذنباً عظيماً قد يصل إلى الكفر ، فإذا ألممنا بأسباب بعض الغزوات عرفنا أن منها ما كان سببه الثأر ممن اعتدى على النبي ﷺ وأصحابه في النفس والمال وأخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

ومنها ما كان سببه هجوم الكفار على النبي ﷺ والذين آمنو معه .

ومنها ما كان سببه محاولة قتل النبي ﷺ .

ومنها ما كان سببه نقضهم العهد بالاعتداء على أحد المسلمين ، أو على عدد منهم إلخ .

وهذا يرد على ضيقي الأفق ، ومن لا علم عندهم ولا فهم ، ممن يفتون بأن القتال في سبيل الله لا يكون إلا إذا كان المقاتل يريد فقط إقامة دين الله وتحكيمه في الناس ، ولو قرأ هؤلاء آية الإذن بالقتال التي سبقت وتمعنوا فيها لوجدوا أن الله تعالى برر الإذن بأن المسلمين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا

أن يقولوا ربنا الله ، وبأن استعمال القوة هو الذي يوفر الأمن والاستقرار للحياة والأحياء .

١ ـ وهذه أول غزوة خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه ، وهي غزوة (ودَّان) وهي قرية جامعة من أعمال الفرع ، ويسميها البعض غزوة « الأبواء » وهما مكانان متقاربان في وادي الفرع بينهما ستة أميال ، وكان معه ستون راكباً . تاريخها : شهر صفر من السنة الأولى من الهجرة على رأس إثني عشر شهراً : الموافق شهر يونيه من سنة ٦٢٣ م .

الغرض من الخروج : كان ﷺ يريد عيراً لقريش .

النتيجة : لم يدرك رسول الله ﷺ العير ، ولقى بني ضمرة فعقد بينه وبينهم مصالحة على أنهم لا يغزونه ، ولا يكثِّرون عليه جمعاً ، ولا يعينون عليه عدواً إلخ .

٢ ـ وفي شهر ربيع الأول على رأس ثلاثة عشر شهراً من الهجرة (يوليه ٦٢٣ م) خرج رسول الله غازياً ، وكان الغرض من الغزوة : طلب كُرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح المدينة فاستاقه . . . والمراد منه سرق أنعامهم أثناء رعيها .

النتيجة : لم يلحق رسول الله ﷺ كرزا فرجع هو ومن معه إلى المدينة مع أنه ظل يطلبه حتى وصل إلى واد يقال له سفوان من ناحية بدر ، ولذلك سميت هذه الغزوة : غزوة بدر الأولى .

٣ ـ وأما غزوة بدر الكبرى فكانت في السابع عشر من رمضان على رأس تسعة عشر شهراً من الهجرة (يناير سنة ٦٢٤) .

وكان سببها إقبال أبي سفيان بن حرب من الشام في عير عظيمة لقريش فيها أموال تبلغ حوالي ٥٠,٠٠٠ جنيه مصري تقريباً وما يساوي في عصرنا ٢٠,٠٠٠ دينار كويتي .

ونتيجتها يعرفها الجميع ، وقد كانت أكبر لطمة لقريش وأعظم نصر للمسلمين .

٤ - وحارب ﷺ يهود بني قَينُقَاع ، وقد كانوا أغنى سكان المدينة ، وكانت صناعتهم صياغة الذهب ، وكانوا أول يهود نقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي محمد ﷺ ، وكانت لهم سوق بالمدينة تسمى باسمهم .

وسبب إعلان الرسول الحرب عليهم أن امرأة من العرب قدِمت بجَلَب لها (بضاعة) فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعل اليهود يأمرونها بكشف وجهها فلم تفعل فعمد صائغ إلى طرف ثوبها من خلف فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت إنكشفت فضحكوا منها ، فصرخت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهودياً فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .

أضف إلى هذا أن رسول الله ﷺ بعد غزوة بدر جمع بني قينقاع في سوقهم ثم قال : « يا معشر اليهود . احذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم وفي عهد الله إليكم » فكان ردهم أن قالوا : يا محمد لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس . . ومعنى ذلك أنهم دعوه للقتال وقالوا ما يشبه التحدي .

وكان ذلك في شوال من السنة الثالثة للهجرة (فبراير سنة ٦٢٤) .

وقد حاصرهم الرسول والمسلمون خمس عشرة ليلة ، لا يطلع منهم أحد ، حتى نزلوا على حكم رسول الله ﷺ وحينئذ تدخل رئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فشفع فيهم حتى لا يقتلهم النبي ﷺ ، واشتد على النبي ﷺ في ذلك فقال ﷺ : « خلوهم،لعنهم الله ولعنه معهم » . ثم أمر بإخلائهم عن المدينة ومعهم نساؤ هم وذرياتهم فخرجوا في ثلاثة أيام

ولحقوا بأذرِعات بالشام ، ولم يمض عليهم حول حتى هلكوا بسبب دعوته ﷺ ، وكان عدد رجالهم سبعمائة ، وما بقي من أموالهم غنمه المسلمون المحاربون .

٥ ـ وفي يوم السبت ١٥ شوال سنة ثلاث من الهجرة (يناير ٦٢٥ م) كانت غزوة أُحُد ، وسميت بذلك لأنها كانت عند هذا الجبل الذي يقع في الشمال الغربي للمدينة ، ويبعد عنها آنئذٍ حوالي ثلاثة أميال .

وسببها : هو هجوم جيش الكافرين على المدينة للأخذ بثأرهم فيما أصابهم ببدر وكان تعدادهم ثلاثة آلاف مقاتل ، وعدد المسلمين سبعمائة مقاتل ، ولم يكن للمسلمين بد من مقاتلة هؤلاء الزاحفين عليهم يريدون استئصالهم والقضاء عليهم .

النتيجة : وقد انتصر المسلمون أول الأمر على أعدائهم انتصاراً مشرفاً ، ولكنهم بسبب مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ دارت عليهم الدائرة ، فتفرقوا عن رسول الله ﷺ بطريقة لاشعورية عندما هاجمهم جيش الكفار من فوق الجبل هجوماً مفاجئاً ، ولم يثبت مع الرسول إلا العدد القليل ، وأصيب المسلمون في كثير من خيار رجالهم ، منهم حمزة بن عبد المطلب ، واستشهد في هذه الغزوة سبعون رجلاً من المسلمين ، وقتل من الكافرين ثلاثة وعشرون رجلاً .

٦ ـ وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة (يونيه ٦٢٥ م) حاصر رسول الله ﷺ بجيشه بني النضير وقطع نخلهم وظل محاصرهم خمسة عشر يوماً حتى نزلوا على حكمه ﷺ ورضوا أن يخرجوا من بلاده ولهم دماؤ هم وما حملت الإبل إلا السلاح وآلة الحرب .

وبنو النضير هم قبيلة اليهود الذين كانوا بالمدينة ، وكانوا هم وقريظة نازلين بظاهر المدينة في حدائق وحصون ، وكان بينهم وبين المدينة نحو ميلين أو ثلاثة .

وسبب هذا الحصار غدرهم بالنبي ﷺ ونقضهم العهد الذي بينهم وبينه ، وذلك أنه ﷺ خرج يوم السبت ومعه نفر من أصحابه المهاجرين والأنصار ، فصلى في مسجد قباء ، ثم أتى بني النضير فكلمهم في أن يساعدوه في دية الرجلين اللذين كانا من قبيلة كلب وقتلهما عمرو بن أمية الضمري فقالوا : نفعل يا أبا القاسم ما أحببت ، وكان رسول الله ﷺ جالسا إلى جنب جدار من بيوتهم فخلا بعضهم ببعض وهموا بالغدر به ، وقال عمرو بن جحاش : أنا أظهر على البيت فأطرح عليه صخرة . فأخبر الله رسوله بما همت به يهود فقام من بينهم كأنه يريد حاجة ثم ذهب ولم يعد إليهم ، وأرسل لهم محمد بن مسلمة أن اخرجوا من بلدي فلا تساكنوني بها وقد هممتم بما هممتـم به من الغدر ، وقد أجلتكم عشراً ، فمن رئى بعد ذلك ضربت عنقه ، فأخذوا يتجهزون للخروج ، ولكن المنافقين برياسة ابن سلول أرسلوا إليهم أن لا تخرجوا ونحن سنقف معكم ، ومعنا قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، فأرسل بنو النضير إلى الرسول يقولون : إنا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك ، فكبر الرسول ﷺ وكبر المسلمون لتكبيره ، وقال (قد حاربت يهود) ثم سار إليهم وحاصرهم كما سبق ، وفيهم نزلت سورة الحشر بأكملها .

٧ ـ وفي شعبان سنة خمس من الهجرة (ديسمبر ٦٢٦ م) كانت غزوة بني المصطلق ، وتسمى غزوة المريسيع أيضاً ، لأنها كانت في مكان به ماء يسمى «ماء المريسيع» وبنو المصطلق بطن من خزاعة .

وسببها أن الحارث بن أبي ضرار رئيس بني المصطلق كان قد جمع الجموع لمحاربة النبي ﷺ ، فلما علم النبي ﷺ بذلك أعد جيشه وخرج لملاقاتهم قبل هجومهم على المدينة .

النتيجة : قاتلهم الرسول ﷺ بجيشه فقتل منهم عشرة وأسر الباقين وكانوا حوالى سبعمائة ، وصار الرجال والنساء والذرية سبايا لدى المسلمين

فقسم رسول الله ﷺ السبايا على المقاتلين ، وكان من السبايا جويرية بنت الحارث زعيم القبيلة ، فتزوجها رسول الله ﷺ بعد أن أعتقها وجعل عتقها مهرها ، فلما بلغ المسلمين أن رسول الله تزوج جويرية وبأيديهم السبايا قالوا : أصهار رسول الله ﷺ لا يكونوا سبايا في أيدينا ،وأعتق كل مسلم من عنده من السبايا ، فكانت جويرية بركة على قبيلتها ، حيث كانت السبب في تحريرهم ، وأسلم أكثرهم ، ثم أسلم أبوها بعد ذلك ، ومن هنا تظهر حكمة الرسول ﷺ في التزوج منها .

٨ ـ وفي شوال من السنة الخامسة للهجرة كانت غزوة الخندق . وسببها ما قام به يهود بني النضير من تأليب قريش وغطفان وأشجع وغيرهم على النبي ﷺ والمسلمين لكي يحاربوهم ويستأصلوهم فيكون اليهود قد أخذوا بثأرهم ، ويرتاح المشركون من مناوأة محمد وأصحابه لهم .

وتجمعت جيوش الأحزاب وكانت عشرة آلاف مقاتل ، وحاصروا المدينة مدة عشرين يوماً أو أكثر ، ولم يمنعهم من اقتحامها إلا الخندق الذي أمر النبي ﷺ بحفره حول المدينة في الجهات الخالية من المواقع والحصون ، وفي هذه الأثناء غدر يهود بني قريظة وخانوا المسلمين فانضموا إلى جيش الأحزاب ، وظهر نفاق المنافقين ، وصارت حال المسلمين كما ذكر الله تعالى في كتابه :

﴿ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ، وَتَظُنُّونَ باللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ الأحزاب (١٠) .

النتيجة : لم يستطع المشركون أن ينالوا من المسلمين منالاً يذكر ، وفي النهاية أرسل الله تعالى عليهم ريحاً عاصفة باردة ، وألقى الرعب واليأس في قلوبهم ، فرحلوا مغلوبين على أمرهم مليئين بالحزن والأسى والندم ، فلا هم نالوا من رسول الله منالاً ، ولا هم وفروا على أنفسهم المال والجهد والعناء والفضيحة .

وبنو قريظة حاصرهم الرسول ﷺ بعد رحيل الأحزاب حتى استسلموا لحكمه فقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم والذرية ، وغنم جميع أموالهم ، وكان ذلك مصيراً لا يستحقون غيره .

٩ ـ وفي شهر محرم سنة سبع من الهجرة (أغسطس ٦٢٨ م) غزا رسول الله ﷺ يهود خيبر ، وقد كانوا أخبث اليهود وأشدهم مكراً ، وكان من فر من فلول اليهود قد لجأ إلى خيبر ، فصارت خيبر شوكة ضد المسلمين ، وقد لاقى الرسول والمسلمون من اليهود كل خيانة وغدر ونقض للعهود والمواثيق ، لذلك رأى النبي ﷺ أن يتخلص منهم كما تخلص من يهود المدينة ، وكان أهل خيبر عشرة آلاف مقاتل ، وكان جيش المسلمين ألفا وستمائة رجل .

النتيجة : فتح النبي ﷺ خيبر وهزم اليهود شر هزيمة حيث قتل منهم ٩٣ ، ولم يستشهد من المسلمين سوى ١٥ رجلاً ، وغنم المسلمون أموالهم ، وأبقى الرسول أهل خيبر على أرضهم على أن يزرعوها بنصف ما يخرج منها من ثمر أو زرع . على أن له أن يخرجهم متى شاء .

١٠ ـ وأما فتح مكة فالكل يعرف أن سببه نقض قريش للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وكانت النتيجة أن فتحت مكة وهزمت قريش واستسلمت لرسول الله ، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجاً .

هذا استعراض سريع لبعض غزوات الرسول مع ذكر النتائج والأسباب ومنها نعلم معنى كلمة « سبيل الله » فإن رسول الله ﷺ لم يكن يقاتل إلا في سبيله ، ولا يجوز أن يفهم غير ذلك بحال من الأحوال .

ومن هذا العرض ندرك أن الرسول ﷺ كانت حروبه في الجزيرة العربية وغيرها حروب دفاع أو وقاية ، وكل ذلك كان في سبيل الله بلا شك .

قال العقاد في كتابه « حقائق الإسلام وأباطيل خصومه » ص ٣٠١ :

وفي الجزيرة العربية لم تقع حرب بين المسلمين وبين قبائلها إلا أن تكون حرب دفاع أو مبادرة إلى اتقاء الهجوم المبيت في أرض تلك القبائل . . . وأخبار السرايا الإسلامية في بلاد العرب معروفة محفوظة بأسبابها ومقدماتها ،وكلها كما أحصاها المؤرخ العصري ـ أحمد زكي باشا ـ حروب دفاع واتقاء هجوم أ هـ .



نظرة في بعض آيات القتال

يهمني أن أعرض أمام القارىء الصورة التي رسمها القرآن الكريم للتعامل مع أعداء الإسلام والمعتدين عليه وعلى أهله حتى يدرك المسلم الصادق أن للأمر خطورته وأهميته الكبيرة التي لا يجوز إهمالها أو السكوت عنها .

قال تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٢١٦) .

قال ابن كثير في تفسيره لها : هذا إيجاب من الله تعالى للجهاد على المسلمين من أجل أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسلام ، وقال الزهري : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعد ، فالقاعد عليه إذا استُعين (طُلبت إعانته) أن يعين ، وإذا استُغيث أن يغيث ، وإذا استنفر أن ينفر وإن لم يحتج إليه قعد . (قلت) ولهذا ثبت في الصحيح : « **مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالْغَزْوِ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** » وقال عليه السلام يوم الفتح « **لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا** » رواه مسلم . أ هـ .

وقال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ . وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ .

يرى ابن كثير أن هذه الآية (وقاتلوا الخ) إنما هي تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله ، أي كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال تعالى :

﴿ وَقَاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة ﴾ .

ولهذا قال في الآية التي بعدها :

﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾ .

أي فلتكن همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى إخراجهم من البلاد التي أخرجوكم منها . (ا هـ ملخصاً جـ ١ ص ٢٢٦ .

ومعنى الآيتين على هذا هو : وقاتلوا في سبيل الله القومَ الذين من شأنهم أن يقاتلوكم إن قدروا على قتالكم ، ولا تعتدوا في القتال بأن تقتلوا من لا يقاتل ولا يساعد على القتال مثل الوليد والمرأة والشيخ والراهب ونحوهم فإن من فعل ذلك لا يحبه الله تعالى ، فانبعثوا ضد أعدائكم الذين أخرجوكم من دياركم وحاربوكم في أي مكان وجدوكم فيه ، فافعلوا معهم مثل ما يفعلون بكم بأن تقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه ، وبأن تخرجوهم من الديار التي أخرجوكم منها ، فإن ذلك أقل ما تفعلون ، وأهون ما يجب عليكم نحو هؤلاء الظالمين الكافرين المعتدين .

والله لكأن هذه الآية أنزلت اليوم ، فإنها تمس قضايانا بقوة ، وتحلل

أوضاع الكافرين بكل دقة ، وتفرض علينا قتال هؤلاء المعتدين من أجل الحفاظ على ديننا وعلى أنفسنا وعلى عزتنا المستمدة من هذا الدين والعمل به .

وقال تعالى :

﴿ فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً *

وَما لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً *

الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ ، فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ النساء (٧٤ ـ ٧٦) .

هذه الآيات أمر الله تعالى المؤمنين في أولها أن يقاتلوا الكافرين وأعداء الدين الذين يحرصون على إطفاء نور الله وعلى صد المؤمنين عن سبيله ، والقضاء عليهم إن وجدوا سبيلاً لذلك ، فعلى المؤمن الصادق الذي يبيع الدنيا ويشتري نعيم الآخرة أن يقاتل ولا يستسلم ، وأن يهاجم ولا ينتظر حتى يُغْزَى في عقر داره ، وهو ضامن على ربه أن يجزيه خير الجزاء سواء قُتِلَ أو لم يقتل .

وفي الآية الثانية تهييج وإثارة للمؤمنين بطريق الاستفهام على معنى : وكيف يتسنى لكم ألا تقاتلوا في سبيل الله وفي سبيل المستضعفين من الرجال والنساء والولدان المحبوسين بمكة والواقعين تحت نير الظالمين فيها مع علمكم بأن هؤلاء المستضعفين يضرعون إلى ربهم ويستغيثون كي ينجيهم

ويخرجهم مما هم فيه من الضيق والحبس على يد ولي ونصير تأخذه الحمية من أجلهم ، وتدفعه أخوة العقيدة لاستنقاذهم ، ويشعر بالألم والحسرة والحزن إذا لم ينقذهم من ضيقهم وحبسهم وعذابهم تحت أيدي عدو الله وعدوهم .

ثم ذكر تعالى في الآية الأخيرة قاعدة عامة جديرة بأن تضع المؤمنين أمام واجبهم نحو دينهم ونحو إخوانهم فأخبر تعالى أن من شأن المؤمنين أن يقاتلوا ويحملوا السلاح في سبيل الله ، ومن أجل طاعته ورضاه ، حتى يجعلوا كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى ، ويرفعوا رأس إخوانهم المؤمنين ويمكنوهم من الحياة في عزة وسيادة وحرية ما داموا يستطيعون ذلك ، أما الذين كفروا فشأنهم أن يقاتلوا في سبيل الشيطان ، ومبادىء الإجرام ، وإعلاء كلمة الكفر ومظاهر الفسوق والفجور والضلال ، وإذا كان الكافرون حريصين على نصر باطلهم وشيطانهم فإن المؤمنين يجب أن يكونوا أشد حرصاً على قتال الكافرين المعتدين من أجل حقهم ، ومن أجل إخوانهم المعذبين في الأرض ، لأنهم يستندون إلى الحق ، ويعملون بالحق ، وينتصرون للحق ، فهم بذلك أقوى من عدوهم الذي لا سند له ولا هدف يصلح لحمايته « فقاتلوا أولياء الشيطان ، إن كيد الشيطان كان ضعيفاً » .

وقال تعالى :

﴿ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ **الأنفال (٧٢)** .

قال القرطبي في تفسيرها : يريد إنْ طلبَ هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مال لاستنقاذهم فأعينوهم ، فذلك فرض عليكم فلا تخذلوهم ، إلا أن يستنصروكم على قوم كفار بينكم وبينهم ميثاق فلا تنصروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حتى تتم مدته .

قال ابن العربي : إلا أن يكونوا المؤمنون أسراء مستضعفين فإن الولاية معهم قائمة ، والنصرة لهم واجبة حتى لا تبقى منا عين تطرف فنخرج إلى

استنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلك أو نبذل جميع أموالنا في استخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم ، كذلك قال مالك وجميع العلماء ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، على ما حل بالخلق في تركهم إخوانهم في أسر العدو وبأيديهم خزائن الأموال ، وفضول الأحوال والقدرة والعدد والقوة والجلد ١ هـ تفسير القرطبي جـ ٨ ص ٥٧ .

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ : أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ . إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيئاً ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴾ التوبة (٣٨ ، ٣٩) .

فالآية الأولى كما ذكر المفسرون توبيخ على ترك الجهاد وعتاب على التقاعد عن المبادرة إلى الخروج ومعنى « اثاقلتم إلى الأرض » تثاقلتم وتكاسلتم مائلين إلى الشهوات والنعيم الأرضي الفاني .

فالذين تثاقلوا عن الجهاد بدون عذر ، هم الذين أخلدوا إلى الأرض واتبعوا الشهوات الدنيا ورضوا بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة ونعيمها وما فيها مما لا يتصوره بشر ، مع أن متاع الحياة الدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة فإنه قليل قليل قليل . . . . بحيث لا يساوي شيئاً .

أما الآية الثانية فهي تهديد شديد ووعيد مؤكد موجه إلى من ترك الجهاد ورضي بالحياة الدنيا بدلاً من الآخرة ، فوجب بمقتضاها النفير إلى الجهاد والخروج لمقاتلة الكفار حتى تكون كلمة الله هي العليا .

والوعيد المذكور هو وعيد بعذاب يقع في الدنيا قبل الآخرة بدليل ما بعده وهو قوله تعالى :

﴿ ويستبدلْ قوماً غيرَكُمْ ﴾ .

وما تهاون المسلمون في أمر الجهاد إلا ركبهم عدوهم واستذلّهم ونهب أموالهم واحتل ديارهم ومزقهم شر ممزق . ولذا قيل : إن المراد بهذه الآية وجوب النفير عند الحاجة وظهور الكفرة واشتداد شوكتهم ، ووجوب ذلك لا يستلزم وجود إمام وخليفة ولا يجب انتظار أمر الحاكم فيه لأن دفع قوة الشرك على المستطيع أمر واجب .

وقال تعالى :

﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ التوبة (٤١) .

أحاول هنا أن ألخص لك ما قاله القرطبي في أحكام القرآن جـ ٨ ص ١٥٠ وما بعدها في تفسير الآية لأهميته ولما فيه من أحكام تتصل بحاضرنا وتجيب على كثير من التساؤلات المطروحة في عصرنا هذا ، عصر تخاذل المسلمين ونكوصهم عن الجهاد ، واستسلامهم لعدوهم يفعل بهم ما يشاء ويحكم فيهم بما يريد حتى صاروا أضحوكة العالم ، وسخرية التافهين ومن لا وزن له ، فمعنى قوله تعالى :

﴿ خفافاً وثقالاً ﴾ .

أي : انفروا جماعات متفرقة أو جماعة واحدة وجيشاً واحداً وانفروا حالة كونكم نشاطاً وغير نشاط ، فقراء وأغنياء ، شباباً وشيوخاً ، مشاغيل وغير مشاغيل ، لكم عيال أو لا عيال لكم ، شجعاناً أو جبناء ، فهذه كلها أمثلة لمعنى الخفيف والثقيل .

ويستثنى من الأمر بالجهاد من رفع الله عنهم الحرج ورخص لهم في تركه مثل الأعمى والأعرج والمريض والضعيف ومن يأمره الإمام بعدم الخروج ، وقد ضرب الصحابة والتابعون أروع الأمثلة في الحرص على القتال في سبيل الله خوفاً من غضب الله وعذابه .

روى ابن عباس عن أبي طلحة في قوله تعالى :

﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾ .

قال : شباناً وكهولاً . ما سمع الله عذر أحد ، ثم خرج إلى الشام فجاهد حتى مات رضي الله عنه ، وفي رواية أخرى أنه لما قرأ هذه الآية قال : أي بنيَّ جهزوني جهزوني . فقال بنوه : يرحمك الله ! لقد غزوت مع النبي ﷺ حتى مات ، ومع أبي بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . قال : لا ، جهزوني . فغزا في البحر فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها : إلا بعد سبعة أيام ، فدفنوه فيها ، ولم يتغير .

وقال الزهري : خرج سعيد بن المسيَّب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل . فقال : استنفر الله الخفيف والثقيل ، فإن لم يمكني الحرب كثَّرت السواد وحفظت المتاع .

وروى أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلاً قد سقط حاجباه على عينيه من الكبر فقال له : يا عمِّ ، إن الله قد عذرك فقال : يابن أخي . قد أمرنا الله أن ننفر خفافاً وثقالاً .

فلهذا وما كان مثله مما روى عن الصحابة والتابعين قلنا إن هذه الآية غير منسوخة ، وقد تكون حالة يجب فيها نفير الكل وذلك إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار ، أو بحلوله بعقر ديار المسلمين ، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الديار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافاً وثقالاً ، شباناً وشيوخاً ، كل على قدر طاقته ، ويخرج من كان له أب بغير إذن أبيه ، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقاتل أو مُكَثِّر فإن عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة ، حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم ، وكذلك يجب الخروج على كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم أنه يدركهم

ويمكنه غياثهم، فيلزمه أيضاً الخروج إليهم، فالمسلمون كلهم يد على من سواهم ، حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التي نزلِ العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين . ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليه ، حتى يظهر دين الله وتُحمى البيضة وتحفظ الحوزة ويُخزى العدو ، وهذا القسم من الجهاد فرض عين على من ذكرناهم حسبما مر ذكره .

وقسم ثان من الجهاد هو واجب أيضاً : وهو إخراج جيش إسلامي كل سنة مرة لغزو العدو ، وهذا فرض على الإمام أن يقوم به ، أو يأمر من يقوم به من أجل إرهاب العدو وتأمين ديار المسلمين، وإظهار دين الله على الدين كله .

هذان القسمان واجبان على جميع المسلمين ، وما عداهما فنفل مستحب وفضيلة مرغوبة وذلك مثل إخراج الغزاة سرية بعد سرية ،وجماعة بعد جماعة حتى يظهر دين الله وتعلو كلمته سبحانه . ا هـ ملخصاً مع بعض تصرف .

فهذه الآيات وأمثالها بعد أن تبين لك تعليق علماء الأمة عليها يفهم منها :

(١) فرضية الجهاد على هذه الأمة الإسلامية والإعداد له على قدر الطاقة مادياً ومعنوياً .

(٢) الأمر بقتال من يقاتل المسلمين فعلاً وكذلك مَن شأنه ألا يترك قتال المسلمين والاعتداء عليهم .

(٣) فرضية القتال على كل مسلم إذا استغاث به مسلم آخر من عدو للمسلمين قد اعتدى عليه حتى يوجد العدد الكافي لصد هذا العدو ودحره .

(٤) إذا هجم العدو على بلد أو جانب من جوانب البلاد الإسلامية فرض على من في تلك الجهة وهذا البلد أن يخرجوا لقتاله رجالاً ونساء ، شباناً وشيوخاً، فقراء وأغنياء، أصحاء ومرضى ما داموا يقدرون على القيام بأي

شيء لمساعدة المحاربين كإعداد الطعام وتجهيز الدواء والملابس وتعبئة الذخيرة ونحو ذلك .

(٥) إذا هاجم العدو بلداً أو قطراً إسلامياً ولم يكف من فيه لرد العدو فرض على أقرب البلاد إليهم أن يساعدوهم حتى يوجد العدد الكافي لصد العدو ولو استغرق ذلك جميع المسلمين . فمنطقة فلسطين يجب الدفاع عنها على من حولها ، وهكذا .

(٦) الخروج للجهاد عند هجوم الأعداء واجب بغير إذن الوالدين ، وبغير احتياج إلى إذن الإمام أو نائبه ، لأنه دفاع عن النفس ، وذلك لا يحتاج إلى إذن أحد .

(٧) إذا غلب العدو على بلد إسلامي ، أو على جانب منه ولم يقم عدد كاف لرد العدو فإن جميع المسلمين آثمون حتى يردوا هذا العدو .

(٨) إذا وقع مسلم في يد العدو-وطلب نصرة المسلمين فرض على المسلمين نصرته سواء كان رجلاً أو امرأة أو صبياً أو عبداً أو أمة ، فإذا لم يفعل المسلمون ولم يستنقذوه بالمال أو بالسلاح أثموا جميعاً .

(٩) كل قتال في سبيل طاعة الله والعمل بدينه فهو قتال في سبيل الله ، وكل قتال لا يخضع لحكم الله ودينه أو يكون المراد منه محاربة دين الله فهو قتال في سبيل الشيطان .

(١٠) من يقاتل في سبيل الله فيقتل فهو شهيد له عند الله ثواب الشهداء وان كان وسط جيش كله شياطين ، وان غلب فله ثواب المجاهدين المحسنين ، والله لا يضيع أجر العاملين .

(١١) يعامل كل إنسان حسب نيته فيما بينه وبين الله تعالى ، فمن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، وان كان مع جيش أكثره يقاتل حميَّةً وفخراً ورياءً وكبراً ما دامت المعركة ضد أعداء الله ، والنصر فيها هو نصر للمسلمين أحباب الله . والهزيمة فيها يقع وبالها على المسلمين ، أو على جزء منهم ممن تجب نصرته .

(١٢) من هـذا يفهم أن تعلم أحكام القتال فرض على المسلمين ، ويأثمون بترك التعلم ، لأن القاعدة أن « كل ما هو فرض فعله فإن تعليمه وتعلمه مفروضان » وبهذا ندرك الخطأ الذي وقع فيه أكثر المسلمين بترك الجهاد تركاً كلياً ، تعلماً وتعليماً . وتدريباً ، واستعداداً .

وأكبر الخطأ وأعظم الإثم يقع على قوم ينشرون بين الناس أن القتال للدفاع عن النفس وعن العرض وعن الأرض لا يجب إلا إذا أوجدنا الخليفة ، وأذن لنا في القتال . . . وكأن هؤلاء اتفقوا مع أعداء المسلمين على التثبيط عن القتال حتى تحتل كل أرض الإسلام ، أعاذنا الله منهم ومن أفكارهم الخبيثة . .



حكم ولاء المسلمين لأعداء الإسلام

كل صاحب دين أو مذهب أو مبدأ من المبادىء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية وغيرها فإنه في الغالب حريص على دعوة غيره إلى ما هو عليه من باب الترويج لدينه ومذهبه ومبدئه ، ومن أجل تكثير أصحابه وأوليائه وإخوانه في الدين أو المبدأ ، ومن أجل إشعار النفس وإشعار الآخرين بأن ما هو عليه هو الحق الذي يستحق أن يتبع ويبذل الجهد والمال والنفس في سبيله . هذه حقيقة ، فما موقف المسلم من أصحاب الأديان الأخرى والمذاهب المضادة ؟ والجواب هو أن غير المسلمين لهم أحوال ، ولكل حال موقف إزاءها ، والكتاب والسنة هما اللذان رسما لنا ما يجب عمله إزاء كل حال .

الحالة الأولى :

حالة المسالمة بين الطرفين ، كأن يكون بين المسلمين وبين غيرهم عهد صلح ، أو هدنة ، أو حالة سلام ناشئة بسبب الأحوال المرعية عند غير المسلمين والتي تمنعهم من الاعتداء على المسلمين ، أو يكون المسلمون على حالة تمنعهم من مقاتلة غيرهم وهذا الغير لا يعتدي على المسلمين ، أو يكون غير المسلمين خاضعين للحكم الإسلامي ويعيشون في كنفه وهم على

دينهم كأهل الذمة . وهؤلاء جميعهم يكون الموقف إزاءهم موقفاً عادياً بمعنى أننا نعاملهم بجميع أنواع المعاملات التي لم يمنعنا الشرع منها فيما بيننا وبين أنفسنا ، فنبيعهم ونشتري منهم ، ونهدي إليهم ونقبل هديتهم ، ونعود مرضاهم ، ونرد على تحيتهم بمثلها كما جاء في الشرع ، ونؤجر لهم ونستأجر منهم ، ونصنع لهم ، ويصنعون لنا ونؤاكلهم ونشاربهم فيما هو حلال عندنا ، ونعدل بينهم إذا تحاكموا إلينا ، وننصفهم من أنفسنا فلا يحل ظلمهم ولا يجور أخذ مالهم ولا الاعتداء عليهم بأي نوع من أنواع الاعتداء .

والأصل في ذلك قوله تعالى :

﴿ لَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عن الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ في الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾

الممتحنة (٨) .

وقد ثبت في أحاديث صحيحة أن النبي ﷺ عامل من صالحهم ومن عاهدهم ، ومن لم يحاربوه معاملة حسنة ولم يسيء الى أحد من هؤلاء ولا إلى أتباعهم وأشياعهم . . ما كان ﷺ يستعمل الشدة إلا مع المعتدين فعلا ، أو من يكونون من شأنهم الاعتداء ، فاستعمال الشدة مع الآخرين في الإسلام محصور في المحاربين فقط ، بحيث لو كانت دولة محاربة للمسلمين فإن المسلمين لا يجوز لهم الاعتداء على نسائهم ولا على أطفالهم وشيوخهم ورهبانهم ممن لا يحاربون . وقد سبق ذلك . وثبت أن النبي ﷺ قبل هدية المرأة اليهودية ، وكانت شاة مسمومة ، وقبل هدية ملك الروم ، وكانت مُسْتُقَة (فروة طويلة الكمين) وهدية أُكَيْدر دومة الجندل ، وكانت ثوب حرير ، فأمر علياً أن يقسمه بين الفواطم ، وهدية أمير القبط بمصر ، وكانت بغلة وجاريتين ، وأذن لأسماء بنت أبي بكر أن تأخذ الهدية من أمها الكافرة ، وأن تبرها وتكرمها ، وفيها نزلت الآية السابقة ، كما ثبت أنه ﷺ عاد عمه أبا طالب ، وهو في مرض موته ، وعاد غلاماً يهودياً كان يخدمه وعرض عليه

الإسلام فأسلم ، ومات ﷺ ، ودرعه مرهونة عند يهودي ، وأذن للمسلمين أن يعيشوا بالحبشة فراراً من ظلم قريش لهم ، وظل كثيرون منهم بها حتى فتحت خيبر ، ومثلهم من يعيش اليوم في فرنسا وانجلترا وغيرهما .

وكان للأنصار أبناء يخدمون عند اليهود فلم يمنعهم النبي ﷺ من ذلك ، وكان الصحابي ، ربما عمل عند يهودي في إخراج الماء من البئر أو غير ذلك ليكسب قوته وقوت عياله ، ولم يصدر نهي في الكتاب أو السنة عن ذلك .

وما ورد من أنه ﷺ لم يقبل هدية عامر بن مالك ملاعب الأسنة وقال «إني لا أقبل هدية مشرك» فإن روايته ضعيفة ، وعلى فرض صحتها فهي منسوخة بما ذكر وبغيره ، أولها تأويل مناسب . لكن الأصل هو ما سبق في معاملة من ليس بيننا وبينه حرب .

الحالة الثانية

حالة الحرب بين المسلمين وبين أعدائهم الكافرين ، وهذه حالة توجب المقاطعة الكاملة للكافرين فلا يجوز لمسلم في هذه الحالة أن يبر كافراً محارباً ولا يحل له أن يعامل هؤلاء معاملة حسنة ، لأن السيف والمدفع إذا عملا في المعركة فلا مجال هنا لعاطفة ولا مكان لمجاملة ، ومن خرج عن هذا المبدأ بغير إذن من الأمير عوقب العقاب الذي يناسبه حسبما جاء في الشرع ، وسيأتي مزيد بيان لذلك في أحكام المحاربين ، والآية السابقة هي الدليل على ما ذكر .

الحالة الثالثة :

حالة الحرب بين مسلمين ومسلمين ، وهي حرب إن كان سببها الاعتداء والظلم ورغبة كل فريق في إخضاع الفريق الآخر لنفسه فهي حرب فاجرة ظالمة يبغض الله الفريقين من أجلها ويمقتهما مقتاً شديداً ، والقاتل فيها والمقتول في

النار ، وإن كانت الحرب بين الحاكم الإسلامي ، أو الإمام ، أو الخليفة ومن معه من المسلمين وبين فريق آخر منهم منشق على الإمام ، أو صاحب مذهب معين يبيح له المحاربة ، كأن رأى الإمام ظالماً ، أو مهملاً حدود الله أو غير ذلك ، فإن الحكم في هذه الحرب ومعاملة كل واحد من الفريقين للفريق الآخر هو الحكم الذي يجب تنفيذه بين جميع المسلمين من غير نظر إلى الحرب وأسبابها ، فما عدا ظروف الحرب فإنه لا يحل لمسلم أن يظلم مسلماً في نفس أو عرض أو مال ، ويجب لكل مسلم من الطرفين جميع الحقوق التي أوجبها الشرع لكل مسلم على أخيه ، وقضية الحرب يتحمل إثمها الظالم منهما والمعتدي على أخيه اعتداء لا يجيزه الشرع ولا يرضاه .



لمن يكون ولاء المسلم وحبه ؟

الولاء معناه الحب ، والنصرة ، والقرب ، والصداقة ، والتبعية ، ولها معان أخرى لا نحتاج إليها هنا .

والذي يجب التنبه إليه جيداً هو أن المسلم صاحب عقيدة وشريعة صادرتين عن الله سبحانه وأنه بهذه العقيدة والشريعة صار خير خلق الله تعالى بنص القرآن الكريم ، وصار هو ومن معه من المؤمنين خير أمة أخرجت للناس ، وأن من طبيعة الإنسان إذا أحب الله على بصيرة وصدق إيمان ، وعمل بدينه وشريعته ملتزماً كل الالتزام بالتطبيق الأمين والعمل بفرائض الدين وسننه فإنه بهذه العقيدة وبذلك الالتزام لا بد وأن يجد نفسه مخالفاً ومغايراً ومضاداً لمن لا يؤمن إيمانه ، ولا يلتزم بالإسلام التزامه ، والضدان لا يجتمعان . ولذلك يوجد الانفصال الشعوري الكامل بين مؤمن وكافر ، وبين صالح وفاسق ، وبين ملتزم ومنحرف ، فإن وجدت غير ذلك فهناك خطأ في التصور ، تصور الإيمان أو تصور الانحراف ، أو تصور الاثنين معاً .

فإن وجدت مؤمناً صادق الإيمان يحب إنساناً يكفر بأركان الإيمان وقضاياه فاحكم سريعاً بزيف الإيمان عند هذا المؤمن ، أو على الأقل أحكم بنقص إيمانه وعدم اكتماله ووصوله إلى المستوى المطلوب .

وإن وجدت مسلماً ينصر كافراً على مسلم، أو يستعين عليه بأعداء الله

فاحكم عليه سريعاً بزيف إسلامه وبطلان تصوره لحقائق الإسلام .

وان ابتليت بمسلم ينقل أسرار المسلمين إلى أعدائهم ليوقع الأعداء بالمسلمين ضرراً فهو في نظر الإسلام فاسق وخارج على القانون الإسلامي ، ويستحق أشد العقاب . وهؤلاء الذين يدّعون الإسلام وولاؤهم بالحب أو الصداقة أو النصرة ، أو التبعية لغير المسلمين ، هم في الواقع وحسب القانون الإسلامي منحرفون انحرافاً خطيراً يصل بهم أحياناً إلى أشد أنواع العقاب ، ويجعلهم أحياناً في مصاف الشياطين .

وما استطاع أعداء الإسلام أن يكيدوا له كيداً مثل كيد من يدعي الإسلام ويعيش في ظله ، ويستمتع بخيره وأمنه ورحمته مع أنه يحب أعداء المسلمين ويواليهم ، ويبلغهم الأسرار ، ويساعدهم على المسلمين .

والقرآن جاء صريحاً كل الصراحة في شرح هذه القضايا وتبيان أحكامها .

فأخبر الله تعالى في سورة المجادلة بأن طبيعة المؤمن لا تلتقي مع طبيعة الكافر المحارب لله ورسوله ، والذي يبذل جهده في الصد عن سبيل الله والوقوف ضد من يخضع له ويؤمن بدينه فقال تعالى :

﴿ لَا تَجِدُ قَوماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَو كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ . أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ﴾ **المجادلة (٢٢)** .

وأوضح القرآن الكريم أن من يناصر عدواً على المسلمين ، أو يصافيه الود والحب وهو يعلم أنه يتآمر على الإسلام والمسلمين فإنه يعتبر من جنس أعداء الإسلام فقال تعالى في سورة المائدة (٥١) :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أَولِيَاءَ . بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ

بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وبين الله تعالى أن أعداءه تعالى هم أعداء للمؤمنين به فلا يصح ولا يجوز لهؤلاء المؤمنين موالاة هؤلاء الأعداء بالنصرة أو الصداقة أو الحب أو كشف السر أو غير ذلك فقال تعالى في أول سورة الممتحنة :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

وبين الله للمؤمنين أن ولاءهم إنما يجب أن يكون فقط لله ولرسوله وللمؤمنين فقال تعالى في سورة المائدة (٥٥) :

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴾ .

ولكي تكون القضية واضحة بيَّن الله سبحانه أن المؤمنين الذين يتخذون الكافرين أولياء بدون ضرورة يجب أن يتحملوا مصير فعلهم الشنيع ويعلموا أن الله تعالى خاذلهم ومعاقبهم على ما يفعلون فقال تعالى في سورة آل عمران (٢٨) :

﴿ لَا يَتَّخِذِ المؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ ﴾ .

ومن ذلك ندرك الخطأ الشنيع والخطر الماحق ، والنفاق الذي استحكم في نفوس الأكثرية من المتمسلمين ، حيث تجد حبهم ونصرتهم وولاءهم

لأعداء الله المحاربين لدينه ، والمتربصين للمؤمنين به ، والمنفذين لجميع أوامر العدو وقوانينه وتوجيهاته في أكثر نواحي الحياة .

وكثيراً ما صفق الجهلاء والحمقى للذين يعلنون القضاء على الإسلام واستيراد البديل عنه من شرق أو من غرب ، ولم يعلموا أن ذلك صريح الكفر وقمة الفسوق والعصيان .

وإذا كان فرضاً على المسلم أن يكون ولاؤه لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأنه لا يجوز له أن يوالي أعداء الله فإن هذا الحكم ينطبق على جميع الأعداء سواء كانوا محاربين أم غير محاربين ، وإذا كان المسلم مأموراً بالعدل بين غير المحاربين وله أن يبرهم ويعاملهم معاملة عادية كما سبق فإن الإمر لا يتعدى أسلوب المعاملة الى الشعور والتصور والوجدان ، والسبب هو ما سبق من وجود التضاد بين الفريقين ، فليكن ذلك واضحاً ومفهوماً فإنه أصل القضية وفيصلها .

وولاء المسلم إذا كان لغير المسلم وهو ضار بالمسلمين فهو جريمة محرمة ومعصية يستحق عليها العقاب في الدنيا والآخرة إن كان المسلم لا يحب دين الكافر ، ولا يؤمن بمذاهب الكفر ولا يحب شيئاً منها وإلا فهو كافر يستتاب ، فإن تاب وإلا عوقب عقاب المرتدين في حكم الإسلام حين يكون حكم به .

وقد بين الله للمسلمين طبيعة أعدائهم وما تحتويه صدورهم ـ وهو تعالى أعلم بهم ـ فقال سبحانه في سورة البقرة (١٢٠) :

﴿ وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُم ﴾ .

وقال تعالى في سورة آل عمران :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً

وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَاأَنْتُمْ أُولَاءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ ، وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١١٩) .

بطانة : معناها ناسا تخصونهم بالولاء والأسرار والأخبار ، وبطانة الإنسان خاصته .

من دونكم : من غير ملتكم .

لا يألونكم خبالا : لا يهدأ لهم بال حتى يفسدوا أمركم .

ودّوا ما عنتمْ : يحبون أن تقعوا في العنت والمشقة والضيق .

والآيتان نزلتا في شأن المؤمنين مع المنافقين . فالمؤمنون يظنون بالمنافقين خيراً فيحبونهم ، والمنافقون قلوبهم ملأى بالحقد والبغضاء للمؤمنين ، ويأملون أن تقع عليهم المصائب والكوارث ، ولو أبدى بعضهم بلسانه وُداً فإن عثرات اللسان تنفث كثيراً من السم ، وما تخفيه صدورهم أفظع وأبشع من عثرات ألسنتهم .

وأنت إذا تتبعت آيات الله في كتابه فلن تجد مؤمنا رضى لنفسه أن يحابى أعداء المسلمين على حساب الإسلام ولإيقاع الضرر بالمسلمين . إن ذلك كان من المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، وذلك لأن قلوبهم متعلقة بإخوانهم في الدين الذي يبطنونه ، وليس بإخوانهم في الدين الذي يظهرونه ، وهذا أكبر دليل على أن عدو دينك هو عدوك ، وأن من الغفلة والبلَهْ أن تظن به غير ذلك .

وإذا كنت في زمن ترى فيه أكثرية تدعى الإسلام وهي تستورد من أعداء الإسلام المبادىء والأخلاق والإلحاد والانحراف : وتقف في وجه المؤمنين

وتعذبهم وتطاردهم لصالح أعداء الإسلام في الداخل والخارج، فهؤلاء ليسوا بمسلمين على الإطلاق ، إنما هم كفرة خارجون على الإسلام ويستحقون عند الله ما يستحقه أعداء الإسلام والمسلمين ، وقد حدث بسبب هؤلاء بلبلة فكرية وعقائدية في نفوس جيل بأكمله حتى وصل الأمر الى أن يعلن الشاب والفتاة والصبي تهكمهم بالدين وسخريتهم منه ، وازدراءهم لأهله ، ولا أحد ينكر عليهم ، بل ينكر من ينكر على الشاب المسلم الصادق ، والفتاة المؤمنة المخلصة ، أعاذنا الله جميعاً من سوء المصير ، وهدانا سواء السبيل .

وجميع قضايانا اليوم تسير في هذا الجو المشحون بالاضطراب الفكري ، والانحراف العَقَدي ، والتشتت في المبادىء والأهداف ، والتمزق في العواطف والوجدان . وقليل جداً من المسلمين من هو ثابت على الحق وممسك بميزانه ليزن به جميع الأمور حتى يظل واقفاً عند حدود الله تعالى . فإنا لله وإنا إليه راجعون .



فضل الجهاد في سبيل الله

قال تعالى في سورة التوبة (١١١) :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيقْتلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ .

وقال تعالى في سورة الصف (١١ ـ ١٣) :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً في جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) . وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : سئِل رسولُ الله ﷺ : **أيُّ العملِ أفضلُ ؟ قال : إيمان باللهِ ورسولِه . قيل : ثم ماذا ؟ قال : الجهادُ في سبيل**

الله . قيل : ثم ماذا ؟ قال : حجٌّ مبرورٌ . . . رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : أتى رجل رسولَ الله ﷺ فقال : أيُّ الناس أفضلُ ؟ قال مؤمنٌ يُجَاهد بنفسه وبماله في سبيل الله تعالى ، قال : ثم من ؟ قال : ثم مؤمن في شِعْبٍ من الشِّعَاب يعبُدُ الله ويدعُ الناسَ من شره . .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

وعن عِمْرانَ بن حُصَينْ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : مُقَامُ الرجلِ في الصف في سبيل الله أفضلُ عند الله من عبادة الرجل ستين سنةً . . رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قيلَ : يا رسولَ الله ما يعدلُ الجهادَ في سبيل الله ؟ قال : لا تستطيعونه . فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً كلُّ ذلك يقول : لا تستطيعونه ، ثم قال : مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله ، لا يفتر من صلاة أو صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله . . . رواه البخاري ومسلم واللفظ له .

وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : من رضي بالله ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدٍ ﷺ رسولاً وجَبَت له الجنةُ . فعَجِبَ لها أبو سعيد فقال : أعِدْها علي يا رسول الله ، فأعادها عليه ثم قال : وأخرى يرفع الله بها العبد مائةَ درجةٍ في الجنة ، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض ، قال وما هي يا رسول الله ؟ قال : الجهادُ في سبيلِ الله . . . رواه مسلم وأبو داود والنسائي .

وعن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : سمعت أبي وهو بحضرة العدو يقول : قال رسول الله ﷺ : إن أبواب الجنة تحتَ ظلالِ السيوف فقام رجل رثُّ الهيئةِ فقال : يا أبا موسى أنت سمعت رسولَ الله ﷺ يقول هذا ؟ قال : نعم ، فرجع إلى أصحابه فقال : أقرأُ عليكم السلام ، ثم

كسرَ جَفْنَ سيْفهِ (قرابـه الذي يحفظ فيه) فألقاه ثم مشى بسيفه إلى العدو فضرب به حتى قتل . . رواه مسلم والترمذي وغيرهما .

وعن البراء رضي الله عنه قال : أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ مقَنَّعٌ بالحديد ، فقال يا رسول الله أقاتل أوْ أسْلِم ؟ قال : أسلم ثم قاتل ، فأسلم ثم قاتل فقتل ، فقال رسول الله ﷺ : عَمِلَ قليلاً وأُجِرَ كثِيراً . . رواه البخاري واللفظ له ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : لا يَجتمعُ كافرٌ وقاتلُه في النارِ أبداً . . رواه مسلم وأبو داود .

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : منْ قاتلَ في سبيل اللهِ مِن رجُلٍ مسلمٍ فُوَاقَ ناقةٍ (زمناً يسيراً جداً) وجَبت له الجنة ، ومن جُرح جُرْحاً في سبيل الله أو نُكِبَ نكبةً فإنها تجيء يَومَ القيامةِ كأغزر ما كانت ، لونها لونُ الزعفران ، وريحها ريح المِسك . . رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .



فضل الرباط في سبيل الله

الرباط هو الإقامة بالسلاح في المكان الذي يخشى منه على المسلمين للحراسة والدفاع ، وهو قسمان :

(١) حراسة الحدود لصد العدو الخارجي .

(٢) حراسة داخل البلاد لصد العدو الداخلي .

وقد جاء في فضله أحاديث كثيرة منها :

عن سهل بن سعد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : **رِباطُ يومٍ في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضعُ سَوْطِ أحَدِكم في الجنة خير من الدنيا وما عليها ، والرَّوحَة يروحها العبدُ في سبيل الله أو الغَدْوة خير من الدنيا وما عليها** . . رواه الشيخان .

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **رِباط يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامه** . . رواه مسلم وغيره .

وعن فَضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **كل ميِّتٍ يُخْتَمَ على عمله إلا المرابطَ في سبيل الله فإنه يُنَمَّى له عملهُ إلى يومِ القيامة ويؤَمَّن من فتنة القبر** » رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وعن عثمانَ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **رِباط يومٍ في سبيل الله خير من ألفِ يومٍ فيما سواهُ مِنَ المنازل** » رواه النسائي والترمذي وحسنه ورواه ابن حبان في صحيحه .

فضل الحراسة في سبيل الله

الرباط يكون في مواضع لا قتال فيها أصلاً أما الحراسة فتكون في الأماكن التي فيها القتال ، سواء كانت الحراسة أثناء القتال أم لا ، وفي الحراسة ثواب عظيم عند الله تعالى .

فعنِ ابن عباس رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **عَيْنانِ لا تَمَسُّهما النارُ : عينٌ بَكَتْ مِنْ خشيةِ اللهِ ، وعينٌ باتت تحرُسُ في سَبِيلِ الله** » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « **ألا أُنَبِّئُكُمْ لَيْلَةً أفضلَ من ليلةِ القدر ؟ حارسٌ حرس في أرض خوفٍ لعله ألا يَرْجعَ إلى أهله** » رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط البخاري .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **ثلاثةُ أعينٍ لا تَمسُّها النار : عينٌ فُقِئت في سبيل الله ، وعين حَرَسَت في سبيل الله ، وعين بكت من خشية الله** » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

★★★

فضل الشهادة في سبيل الله

قال تعالى :

﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٠) سورة آل عمران .

جاء في سبب نزول الآيتين السابقتين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : لما قتل عبد الله بن عمرو (والد جابر) قال رسول الله ﷺ : « **يا جابر : ألا أخبرك ما قال الله لأبيك ؟**» **قلت : بلى يا رسول الله . . قال : « ما كلَّمَ الله أحداً إلا مِنْ وراءِ حجاب ، وكلم الله أباك كِفَاحاً (بدون حجاب) فقال : يا عبدَ الله تَمنَّ عليَّ أُعْطِك . . قال : تُحْيِيني فأقتلُ فيك ثانيةً ، قال : « إنه سبق مني أنهم إليها لا يَرْجِعُونَ » قال : يا رب فَأَبْلغِ بذلك مَنْ ورائي (أي في الدنيا) فأنزل الله تعالى قوله « ولا تحسبن الخ الآيتين »** رواه الترمذي وابن ماجة .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « **مَا أَحَدُ يدخلُ الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وإن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيدُ فإنه يتمنى أن**

يرجع إلى الدنيا فيقتلَ عشرَ مرات لما يرى من الكرامة » رواه البخاري ومسلم .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يؤتى بالرجل من أهل الجنة ، فيقول الله له : يا ابن آدمَ كيف وجدتَ منزلك ؟ فيقول : أيْ ربِّ خيرَ منزل ، فيقول : سل وتمَنَّهْ ، فيقول : وما أسألك وأتمنى ؟ أسألك أن تردني إلى الدنيا فأقتلَ في سبيلك عشر مرات ، لما يرى من فضل الشهادة » رواه النسائي والحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « هنيئاً لكَ يا عبدَ الله ، أبوك يطير مع الملائكة في السماء » رواه الطبراني بإسناد حسن .

[قال الحافظ في الفتح] كان جعفر رضي الله عنه قد ذهبت يداه في سبيل الله يوم مؤته فأبدله الله بهما جناحين فمن أجل ذلك سمى جعفر الطيار .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما يجد الشهيدُ من مَسِّ القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصَة » رواه النسائي وابن ماجة والترمذي وقال حديث حسن صحيح .

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن أرواح الشهداءِ في أجوافِ طير خُضرٍ تَعْلُق من ثمر الجنة أو شجرِ الجنة » رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح والمراد أنها تأكل من أعالي شجر الجنة .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « الشهيد يَشْفَعُ في سبعين من أهْلِ بيته » رواه أبو داود وابن حبان في صحيحه .

وعن المقداد بن معد يكربَ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « للشهيد عند الله ستُّ خِصال : يُغْفَر له في أول دُفعة ، ويَرَى مقعده من

الجنة ، ويُجارُ مِنْ عذاب القبر ، ويأمَنُ من الفزع الأكبر ، ويوضَع على رأسِهِ تاجُ الوَقار . الياقوتَةُ مِنه خيرُ مِن الدنيا وما فيها ، ويُزَوَّجُ اثنتين وسبعينَ من الحور العين ، ويَشْفَعُ في سبعينَ مِنْ أقارِبه » رواه ابن ماجة والترمذي وقال : حديث صحيح غريب .

وعن أبي أمامةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ليس شيءٌ أحبَّ إلى الله من قطْرَتينْ وأثَرين : قطرةُ دموع من خشية الله ، وقطرة دم تُهْرَاقُ في سبيل الله ، وأما الأثران : فأثر في سبيل الله ، وأثر في فريضة من فرائض الله » رواه الترمذي وقال : حديث حسن غريب .

وعن أنس رضي الله عنه أن رجلًا أسود أتى النبيَّ ﷺ فقال : يا رسول الله إني رجلُ أسود ، مُنْتَنُ الريح ، قبيحُ الوجه ، لا مال لي ، فإن أنا قاتلت هؤلاء حتى أقتل فأين أنا ؟ قال : « في الجنة » فقاتل حتى قتِل ، فأتاه النبي ﷺ فقال : « قد بيَّض الله وجهَك وطيَّب رِيحِك وأكثر مالك ، وقال لهذا أو لغيره : لقد رأيتُ زوجته من الحور العين نازعته جبةً له من صوف تدخل بينه وبين جبته » رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مر بخباء أعرابي وهو في أصحابه يريدون الغزو ، فرفع الأعرابي ناحية من الخباء (الخيمة الصغيرة) فقال : من القوم ؟ فقيل : رسولُ الله ﷺ وأصحابهُ يريدون الغزو ، فقال : هل من عرَض الدنيا يصيبون ؟ قيل له : نعم يصيبون الغنائم ثم تُقسم بين المسلمين ، فعمد إلى بَكر له (فتى الإبل) فاعتقله وسار معهم ، فجعل يدنو ببكره إلى رسول الله ﷺ ، وجعل أصحابه يذودون (يدفعون) بكره عنه ، فقال رسول الله ﷺ : « دعوا لي النجدي ، فوالذي نفسي بيده إنه لَمِن مُلوك الجنة » قال : فلقوا العدو فاستشهد فأُخبِرَ بذلك النبي ﷺ فأتاه فقعد عند رأسه مستبشراً ، أو قال، مسروراً يضحك ثم أعرض عنه ، فقلنا : يا رسول الله رأيناك مستبشراً تضحك ثم أعرضت عنه ، فقال : « أما ما رأيتم من استبشاري

أو قال سروري فلِمَا رأيت من كرامة روحه على الله عز وجل ، وأما إعراضي عنه فإن زوجته من الحور العين الآن عند رأسه » رواه البيهقي بإسناد حسن .

وعن أنس رضي الله عنه أن أم الرُّبَيع بنتَ البراء رضي الله عنها ـ وهي أمُّ حارثة بنتُ سراقةَ ـ أتت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ألاتحدثني عن حارثة ـ وكان قتل يوم بدر ـ فإن كان في الجنة صبرت ، وإن كان غير ذلك اجتهدتُ عليه بالبكاء ، فقال : « يا أمَّ حارِثةَ : إنها جِنان في الجنة وإن ابْنِك أصابَ الفِردَوْسَ الأعلى » رواه البخاري .

وعن أنس رضي الله عنه قال : جاء أُناس إلى النبي ﷺ أن ابعَثْ مَعَنا رِجالاً يعلمونا القرآن والسنة ، فبعث إليهم سبعين رجلاً من الأنصار يقال لهم : القُرَّاءُ . فيهم خالي حَرَامٌ يقرءُون القرآن ، ويتدارسونه بالليل يتعلمون ، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد (لرسول الله) ويحتطبون (يجمعون الحطب) فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة (قوم حبسوا أنفسهم للعلم والعبادة) وللفقراء فبعثهم النبي ﷺ إليهم ، فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان ، فقالوا : اللهم أبْلِغ عنا نبيَّنا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا ، قال : وأتى رجل حراما خال أنس من خلفه فطعنه برمح حتى أنفَذَه ، فقال حرام : فزتُ ورب الكعبة (أي بالشهادة) فقال رسول الله ﷺ (حين أبلغه جبريل بقتلهم) : « إن إخوانكم قد قتلوا ، وإنهم قالوا : اللهم أبلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا » رواه البخاري ومسلم واللفظ له .



شهداء بغير قتل في المعركة الحربية

الشهيد في عُرف الشرع هو من قتل وهو يجاهد أعداء الله تعالى في المعركة ، وهناك شهداء سوى هذا الشهيد عددهم كثير وفضلهم عند الله تعالى لا يقل عن شهداء المعركة ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وهؤلاء هم :

من قال كلمة الحق في وجه حاكم ظالم فقتله .

ومن قُتل وهو يدفع إنساناً اعتدى على نفسه أو ماله ، أو عرضه وأهله .

ومن مات بسبب الحرق ، أو وجع البطن ، أو الهدم أو الطاعون ، أو مات غريقاً ، ومن مات بسبب انفجار جرح في جنبه ، أو ماتت المرأة وولدها في بطنها . الخ وإليك الأدلة على ذلك .

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قُتِلَ دونَ مالِهِ فهو شهيد** » رواه البخاري والترمذي .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : **جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالي ؟ قال : فلا تُعْطِه مالكَ . قال : أرأيتَ إن قاتلني ؟ قال : قاتله . قال : أرأيتَ إن قتلني ؟ قال : فأنت شهيد . قال : أرأيتَ إن قتلتهُ ؟ قال : هو في النار** . . . رواه مسلم والنسائي .

وعن سعيد بن زيد رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **« من قُتِلَ دونَ مالهِ فهو شهيد ، ومن قتل دون دمِهِ فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دونَ أهله فهو شهيد »** رواه أبو داود والترمذي وغيرهما وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« ما تَعُدُّون الشهداء فيكم ؟ » قالوا : يا رسول الله : من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، قال : « إن شهداء أمتي إذا لقليل ! » قالوا : فمن يا رسول الله ؟ قال : « من قتل في سبيل الله فهو شهيد ، ومن مات في سبيل الله (خرج مع الجيش فمات ولم يقتل) فهو شهيد ، ومن مات في الطاعون فهو شهيد ، ومن مات من البطن (مرضه) فهو شهيد » قال ابن مِقسم : أشهد على أبيك ، (يعني أبا صالح) أنه قال : « والغريق شهيد »** رواه مسلم .

وجاء في رواية للبخاري ومالك والترمذي ومسلم : « الشهداءُ خمْسَة : المطعونُ ، والمبطونُ والغريقُ ، وصاحبُ الهَدْم (من وقع عليه جدار أو سقف أو غيرهما من مواد الهدم) والشهيد في سبيل الله » .

وعن راشد بن حُبَيش رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ دخل على عُبادة ابن الصامت رضي الله عنه يعوده في مرضه ، فقال رسول الله ﷺ : **« أتعلمون من الشهيدُ من أمتي ؟ فأرَمَّ القوم (سكتوا) ، فقال عبادة : سانِدُوني ، فأسندوه ، فقال : يا رسول الله : الصابر المحتسب ، فقال رسول الله ﷺ : إن شهداء أمتي إذاً لقليل : القتل في سبيل الله عزَّ وجل شهادة ، والطاعون شهادة ، والغرق شهادة ، والبطن شهادة ، والنُّفَساء يجرها ولدها بِسَرَرِهِ إلى الجنة . قال : وزاد العوامُّ سادِنُ (خادم) بيت المقدس : والحَرق والسُّلُّ »** رواه أحمد بإسناد حسن .

وجاء في حديث رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في

صحيحه : « الشهادة سبع سوى القتل في سبيل الله : المبطون شهيد ، والغريق شهيد ، وصاحب ذات الجنب (من حدث لجرحه انفجار في جنبه) شهيد ، والمطعون شهيد ، وصاحب الحريق شهيد ، والذي يموت تحت الهدم شهيد ، والمرأة تموت بِجَمع شهيد » أي تموت وولدها في بطنها .

★★★

حرص أسلافنا على الاستشهاد في سبيل الله

الاستشهاد : هو طلب الشهادة وتمنيها بصدق وإخلاص ، ومن طلب الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه .

فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من سألَ اللّهَ الشهادةَ بِصِدقٍ بلَّغه اللهُ منازلَ الشهداء وإن مات على فِراشِه** » رواه مسلم .

وإليك أمثلة من حرص السلف الصالح على الشهادة في سبيل الله .

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : **أمر رسول الله ﷺ الناس أن ينبعثوا غازين معه (في غزو تبوك) فجاءت عصابة (جماعة وكانوا سبعة) من أصحابه فيهم عبد الله بن معقلِ المُزَنى رضي الله عنه . فقال : يا رسول الله احْملنا ، فقال : « والله ما أجد ما أحملكم عليه » فَوَلَّوْا ولهم بكاء ، وعز عليهم أن يحبسوا عن الجهاد ولا يجدوا نفقه ولا محملاً ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ ﴾ .**

الآية : ١ هـ من أسباب النزول للسيوطي .

وعن حفصة رضي الله عنها قالت : سمعت عمَر رضي الله عنه يقول : اللهم قتْلاً في سبيلك ووفاةً ببلد نبيك ﷺ . قالت : فقلت : وأنى (كيف)

يكون هذا ؟ قال : يأتي به الله إذا شاء .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **كم من ضعيف مُتَضَعَّفٍ (يستضعفه الناس ولا يأبهون به) ذي طِمْرَينْ (ثوبين باليين حقيرين) لو أقسم على الله لأبر قسمه . منهم البراءُ بن مالك » فإن البراء لقي زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون في المسلمين ، فقالوا : يا براء إن رسول الله ﷺ قال : إنك لو أقسمت على الله لأبرك ، فأقْسِمْ على ربك ، فقال : أقسمت عليك يا رب لما مَنحتنا أكتافهم ، ثم التقوا على قنطرة السويس (اسم مكان بفارس) فأوجعوا في المسلمين ، فقالوا له : يا براء ، أقسم على ربك ، فقال أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم (أي مكنتنا من قتلهم والغلبة عليهم) وألحقتني بنبيك ﷺ ، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً** » أخرجه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

وعن شداد بن الهادي رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب جاء إلى رسول الله ﷺ فـآمن به واتبعـه ثم قال : أتبعـك على أن أُرْمَى بسهم إلى ها هنـا . وأشار إلى حلقه ، فقال ﷺ « إن تصدق الله يَصْدُقْكَ » فلبثوا قليلاً ثم نهضوا إلى قتال العدو فأتى به إلى النبي ﷺ يُحمَل قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ : أهو هو؟ فقالوا : نعم فقال صدق الله فصدقه ، ثم كفَّنه في جُبَّتِه التي عليه ثم قدمه فصلى عليه ، وكان مما ظهر من صلاته (دعائه) « اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك فقُتِلَ شهيداً ، وأنا شهيد على ذلك » رواه النسائي .

وعن ابن عمر أنَّ عمر رضي الله عنهما قال يوم أُحُدٍ لأخيه (زيد بن الخطاب) خذ درعي يا أخي . قال أريد من الشهادة مثل الذي تريد ، فتركاها جميعاً » قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح ، وقد رواه الطبراني .

ولم لا يتسابق المخلصون إلى الشهادة في سبيل الله وقد قال ﷺ : « يُغْفَرُ للشهيدِ كلُّ شيءٍ إلا الدَّينَ » رواه مسلم .

فضل الإنفاق في سبيل الله

أبواب الخير كثيرة ، والإنفاق فيها جزاؤه عند الله ثواب عظيم وفضل كبير ، وأعظم أبواب الخير ثواباً عند الله هو الإنفاق في سبيل القتال الإسلامي والجهاد الذي شرعه الله تعالى وأمر به ، ولذلك قال تعالى في سورة البقرة (٢٦١) :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ .

قال ابن كثير : هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، وأن الحسنة تضاعف بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف . . .

والمراد بسبيل الله كما يقول مكحول : هو الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك .

وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس : الجهاد والحج يُضعِّف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف : ولهذا قال تعالى :

﴿ كَمَثَلِ حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ﴾ .

وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل كما ينمي الزرع لمن بذره في الأرض الطيبة ، ومصداق ذلك ما روى مسلم عن أبي مسعود قال : جاء رجلٌ بناقة مَخْطومَةٍ فقال يا رسولَ الله : هذه في سبيل الله ، فقال : « **لكَ بِها يومَ القِيامةِ سبْعُمائةِ ناقةٍ كلها مخطومة** . (**مكوية على أحد خديها**) » .

وعن خُريم بن فاتك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من أنفق نَفَقةً في سبيلِ اللّهِ كُتِبَت له بِسبْعِمائَةِ ضِعْفٍ** » رواه النسائي والترمذي وحسنه وابن حبان في صحيحه .

وعن زيد بن خالد الجُهَني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **من جَهَّزَ غازياً في سبيلِ اللّهِ** (**بأن أعطاه السلاح والمال**) **فقَدْ غَزَا ، ومن خَلَفَ غازِياً في أهْلِهِ بِخَيْرٍ فقد غزا** » رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

وقد كان للصحابة رضوان الله عليهم سهم وافر في الإنفاق في سبيل الله تعالى ، وما كان أحد منهم يخرج للقتال في سبيل الله إلا على حسابه الخاص في كل شيء مما يحتاجه المقاتل ، من راحلة وسلاح ومتاع وغيرها ، وفي عصرنا هذا نجد كل ذلك متوافراً للمقاتل ولكن لا نجد المقاتلين في سبيل الله إلا قليلي العدد ، وذلك بسبب ضعف الإيمان في النفوس ، وبسبب الحرص على الدنيا وشهواتها وملذاتها ، وما غرق فيه المسلمون من ترف وبذخ ودعة وجبن وتواكل ، وإن كانوا لا يعترفون بذلك ولا يصرحون به ، بل يبررون جبنهم وخَورهم بمبررات ينسبونها إلى الشرع والشرع منها بريء .

★★★

مواقف المنافقين من قضايا الجهاد في سبيل الله

المنافقون داء كل أمة ، وبلاء كل جماعة أو طائفة ، وسوس كل مبدأ ، وهادمو كل بناء شيدته الأمة لإقامة حضارتها ، والدأب نحو رقيها ونهضتها .

وهم دائماً القائمون بتثبيط العاملين ، وتوهين المجدين ، وتخذيل المجاهدين ، ونشر الشائعات الضارة عن المحاربين المؤمنين ، وزرع الشكوك في نفوس المخلصين .

ظاهرهم مسالم وباطنهم محارب ، ألسنتهم بالفتن ناطقة ، وكلماتهم في الإفساد جامحة ، إذا رأيتهم في تظاهرهم بالدين أعجبتك أجسامهم ، وإن يخطبوا أو يكتبوا تسمع لقولهم .

إن أصابت المؤمنين الصادقين مصيبة فرحوا بها ، وإن نزلت بالمخلصين ضائقة تآمروا على إحكامها وتشديدها ، وإن منحهم الله نعمة ورحمة تهافتوا على طلبها واحتيازها .

يثبطون المجاهدين عن حرب الكافرين المعتدين ، ويلوون أعناق الأدلة ليثبتوا أنهم على الحق المتين ، ويفترون على الدين ما ليس منه لإقناع الجهلاء المحرومين .

يتصلون بأعداد الإسلام والمسلمين ، ويبرمون معهم اتفاقات الغدر

والخيانة والتسليم ، ويشعلون نار الفتنة كلما خبت ، ويلقمونها حطب الكيد والتدمير والإهلاك ، ، ويحرصون على الفتك بكل عالم شجاع ، وفارس مغوار ، وصاحب صوت حر أبي .

يستبيحون في سبيل أغراضهم الدنيئة جميع المحرمات التي توصلهم إليها ، فالغيبة والنميمة والكذب والدس والوقيعة والتشهير أخلاق رديئة مرنوا عليها .

فضحهم الله في كتابه وكشف أدوارهم ، وحذر المسلمين من الوقوع في حبائلهم وفتنهم ، وبين أنهم يحلفون بالله كذباً كي يبرروا جرائمهم وفضائحهم ، ويقسمون أغلظ الأيمان كي يرضوا النبي ﷺ والمسلمين ، ولا يهمهم غضب الله وسخطَه عليهم .

ولاؤ هم للشيطان وجميع أعداء الله ، ومؤامراتهم ضد المسلمين لا تنتهي ولو كان أحدهم في آخر لحظة من الحياة .

لذلك جعل الله تعالى عذابهم أشد من عذاب الكافرين ، لأن ضررهم أشد ، ووقيعتهم أنكى وأفدح ، ومصيبتهم أكبر وآلم :

﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ .

وهؤلاء المنافقون تجدهم في كل زمان ومكان ، وفي كل مشكلة ومعضلة ، ومع زعيم الدولة وزعيم القبيلة .

فهم الذين حاولوا تخذيل المسلمين عن القتال في غزوة أُحُد ، ولما لم يستجب لهم أحد انخذلوا عن الجيش ـ وكانوا ثلثه ـ وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبعناكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ، يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِم وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ (١٦٧) آل عمران .

ولما وقعت المعركة واستشهد من المسلمين سبعون ارتفعت رؤ وسهم ،

وانتفخت أوداجهم وعلت أصواتهم وهم يقولوَن :

﴿ لَوْ أطاعُونَا مَا قُتِلُوا ، قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أنْفُسِكُمُ المَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (١٦٨) آل عمران .

ويقولون من باب اللوم وإظهار الشماتة :

﴿ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَا هُنَا ، قُلْ لَوْ كُنْتُمْ في بُيُوتِكُمْ لَبرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إلى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (١٥٤) آل عمران .

وفي غزوة الخندق حين انضم يهود بني قريظة إلى كفار الأحزاب ضد المسلمين وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وثبت المؤمنون الصادقون للهول ، واستعدوا للتضحية بآخر رجل منهم . حينئذ انهار المنافقون وكشفوا عن خفاياهم الخبيثة وأخذوا يتنادون وينادون الآخرين كي يتبعوهم ويفروا من المعركة ويتركوا رسول الله وحده أو هو ومن بقي معه ليستأصلهم الكافرون من قريش واليهود .

وفي ذلك يقول تعالى مصوراً الموقف أبدع تصوير في سورة الأحزاب :

﴿ وإذ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إلَّا غُرُوراً (١٢) وإذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ، وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبيَّ ، يَقُولُونَ إنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وما هي بعورة ، إنْ يُرِيدُونَ إلَّا فِراراً (١٣) ﴾ .

وها هم أولاء يظهرون على حقيقتهم في غزوة تبوك وينزل الله تعالى فيهم آيات كثيرة في سورة التوبة فيفضحهم ويكشف خباياهم ويعريهم من لباس الزيف الذي يتسترون به ويمشون به في الناس .

فهم الذين استأذنوا النبي ﷺ في عدم الخروج إلى القتال معه متعللين

بالعلل الواهية ، وما كانت لهم علة إلا أنهم منافقون جبناء : قال تعالى في سورة التوبة :

﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم ، والله عليم بالمتقين (٤٤) إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ، وَلأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ « أفسدوا بينكم » يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُم ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمينَ (٤٧) ﴾ .

ومنهم من كان ساقط الهمة تافه الحجة في التخلف والاعتذار إلى درجة مضحكة مثل الجد بن قيس الذي قال للنبي ﷺ : يعلم قومي أنه ما فيهم من أحد هو أشد حباً للنساء مني فأخاف إن خرجت معكم ورأيت بني الأصفر (العجم) أن يفتنني نساؤهم فأنزل الله فيه :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالكَافِرِينَ ﴾ التوبة (٤٩) .

وكانوا مع هذا النفاق ، والتخريب من الداخل وحبك المؤامرات ضد المسلمين يحرصون على إظهار غير ما يبطنون ، وإنكار ما يفترون ويأفكون وتبرير ما يجرمون ويفسدون ، ومن أجل ذلك يقسمون بالله ويحلفون ، كما قال تعالى فيهم (في سورة التوبة) :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكِمْ ، وَما هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (يخافون ويجبنون) (٥٦) . يَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إن كانوا مُؤمِنِينَ (٦٢) . يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا

عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) ﴾ .

وأخيراً أنزل الله فيهم :

﴿ وَلاَ تُصَلِّ عَلَى أحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ ، إنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) ﴾ .

وتكفيهم مقالةُ الله فيهم في سورة النساء :

﴿ إنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وَإذَا قَامُوا إلى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالى ، يُراءُونَ النَّاسَ وَلاَ يذكُرُونَ اللَّهَ إلاَّ قَلِيلاً (١٤٢) مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إلى هَؤُلاَءِ وَلاَ إلى هَؤُلاَءِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَه سَبِيلاً (١٤٣) ﴾ .

ولو قرأت عنهم في سور البقرة وآل عمران والمائدة والنساء والتوبة والأحزاب والمنافقين لعرفت عنهم الكثير الذي يشعرك بأنهم سوء أينما وجدوا ، وأن في المؤمنين من يُؤخذ بأقوالهم ، ويخضع لتأثيرهم .



ما يجب على المقاتل في سبيل الله

المسلم الذي يقاتل في سبيل الله ملتزم بما جاء في شرع الله تعالى التزاماً كاملاً حسب استطاعته .

وما من موطن هو أحوج فيه إلى هذا الالتزام منه في موطن الجهاد في سبيل الله ، وما من هدف هو أدعى لواجبات الالتزام من الجهاد في سبيل الله تعالى . ولا يسمى مجاهداً في سبيل الله بحال من الأحوال من كان جهاده للدنيا ، وعمله أثناء الجهاد لإرضاء الشيطان ، وخضوعه وولاؤه لغير الله تعالى ولغير دينه ولغير المؤمنين .

إن المجاهد في سبيل الله ذاهب إلى لقاء ربه وهو يعلم ذلك ويدركه أكثر من غيره .

وهو يجاهد من أجل إعلاء كلمة الله تعالى وإظهارها على الدين كله .

وهو عبد الله تعالى يسير حسب أوامره ونواهيه، وليس له خيار مع الله سبحانه في ذلك .

فكيفَ يكون كذلك إذا كان منحرف العقيدة زائغ التصور عن الله ؟ .

وكيف يسمى مجاهداً وهو يعاقر الخمر ويسهر مع الأفلام العارية ويطلب الغواني والراقصات إلى ميدان القتال ؟ .

وهل يكون مقاتلاً في سبيل الله من لا يعرف سبيل الله ولا يقيم الصلاة ولا يؤتي الزكاة ؟ .

وهل يكون ذلك مقبولاً إذا كان يرفض قانون الله وشرعه ويُحكِّم شرع الكافرين أعداء الله ؟ .

إن المقاتل في سبيل الله هو الذي عرف سبيل الله ، وسار فيه ، وغار على شرع الله ، وعمل به وأحبَّ في الله ، وأبغض في الله ، وكانت حياته كلها منهجية مع شرع الله ودينه ، فهو في نفسه وبيته ، وعشيرته ووطنه ، إنسان شرعي ، ومسلم ملتزم ، ومؤمن يتفاعل مع كل حكم من أحكام الله تعالى ، ومع كل آية من كتابه ، ومع كل سنة من سنن رسوله ﷺ .

وهو يكون في سبيل الله إذا استوفى كمال العقيدة وسلامة العمل الصالح سواء قاتل العدو وحده أو قاتله مع فئة من المؤمنين ، وسواء كان هناك إمام للمسلمين ، أو أمير لثلاثة منهم فقط ما دام قتاله مأذوناً فيه شرعاً ، وما دامت أعماله خاضعة لأحكام الله سبحانه ، وسيأتيك مزيد من البيان في ذلك .

وإليك ما يجب على المسلم المقاتل تفصيلاً بعد هذا الإجمال :

(١) الإخلاص لله :

والإخلاص لله تعالى معناه أن يخلِّص نفسه من أية غاية سوى رضاء الله سبحانه ، وأن تكون نيته في الجهاد خالصة لوجه الله ، ولا يريد به إلا إعلاء كلمة الله سواء كان قتاله هجومياً او دفاعياً ، أعني هجومياً من أجل الدفاع ، فإن أنفس المسلمين وأموالهم وأعراضهم يجب الدفاع عنها وجوباً كفائياً أو عينياً كما سيأتي والدليل على وجوب الإخلاص قوله تعالى :

﴿ وَمَا أُمِرُوا إلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ .

(أي بعيدين عن الباطل) .

وقوله تعالى :

﴿ فَمنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَملاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدَاً ﴾ .

وقوله ﷺ : « **مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ الله هِيَ العُلْيَا فَهُوَ في سَبِيلِ الله** » (رُداً على السائل الذي سأله عن الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه) أي ذلك في سبيل الله ؟ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إن أولَ الناسِ يُقْضى عليه يومَ القيامةِ رجلٌ استُشهِدَ فأتِي به فعرَّفَه نعْمَتَه فعرفها ، قال : فما عَمِلتَ فيها ؟ قال : قاتلتُ فيك حتى استشهدتُ ، قال : كذَبْتَ . ولكن قاتلت لأن يقالَ هو جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسُحِب على وجهه حتى ألقِيَ في النار** . الحديث ، رواه مسلم وغيره .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : **أرأيتَ رجلاً غزا يلتَمِسُ الأجر والذكرَ مَالَهُ ؟** . فقال رسول الله ﷺ : « **لَا شَيءَ لَه ، فَأعادها ثلاثَ مَراتٍ يقول رسول الله** ﷺ : . « **لا شيء له ، ثم قال : إن الله لا يَقْبَل مِنَ العَمَلِ إلا ما كان خالِصاً وَابتُغِي بِهِ وَجْهُهُ**» رواه أبو داود والنسائي .

(٢) الثبات وعدم الفرار أثناء المعركة :

قال تعالى :

﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفَاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إلَّا مُتَحَرِّفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّه وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) **سورة الأنفال** .

هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين ينهاهم فيه عن الهرب

والفرار أثناء المعركة بغير إذن من القائد مع ترك باقي الجند أمام العدو ، فإنَّ ذلك يُسلم جند المؤمنين لعدوهم ، ويمكنه من قتلهم أو أسرهم ، ويعتبر ضعفاً وجبناً أمام العدو ، ويُطمِع هذا العدو في المسلمين . فإن كان الهرب بإذن القائد ، أو كان من أجل خدعة قتالية ، أو من أجل أن يلتقي الفار بمجموعة من الجنود يشد أزرها ويحتمي بقوتها فإن هذا الفار لا يؤاخذه الله ولا يعاقبه ، ومن يهرب بغير إذن من الشرع فهو في جهنم يعذب يوم القيامة على هذا الذنب الكبير الشنيع .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **اجتَنِبُوا السبعَ الموبِقاتِ ، قيل يا رسولَ الله وما هُنَّ ؟ قال** : « **الشركُ بالله ، والسِحرُ ، وقتلُ النفسِ التي حرمَ الله إلا بالحق ، وأكْلُ الربا ، وأكْلُ مالِ اليَتيم ، والتَوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ ، وقذف المُحْصَنَاتِ الغافلاتِ المؤْمِنات** » رواه البخاري ومسلم .

فإن فر إنسان حين اضطراب الصفوف ولجأ إلى مكان القائد وسلم نفسه ، أو سلم نفسه للحاكم العام فلا يعتبر هارباً ، كما يجوز له الفرار إذا كان مقابل المسلم الواحد أكثر من اثنين ، هكذا استقر الأمر في الشرع .

(٣ ، ٤ ، ٥) ذكر الله وترك التنازع والصبرُ :

وهذه الثلاثة واجبة عند المعركة وأثناءها ، لأن الذكر يشغل الإنسان بربه ؛ ويجعله يعتمد عليه تعالى وحده ، ويقربه من رضاء الله وعفوه وخصوصاً الاستغفار والدعاء ، وقد مدح الله السابقين من المؤمنين لثباتهم في الجهاد واستغفارهم ربهم ، وإلحاحهم في الدعاء فقال تعالى :

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا (تخاذلوا) لِمَا أَصَابَهُم في سَبِيلِ اللَّه وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ، وَاللَّه يُحِبُّ الصَّابرين (١٤٦)

وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلا أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإسرَافَنَا فِي أمْرِنَا وَثَبِّتْ أقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨) آل عمران .

ولأن ترك التنازع إذا كان لازماً لوحدة الصف وزيادة القوة في الأوقات العادية فإنه يكون أشد لزوماً وقت المعركة ، أما الصبر فلا قتال إلا بالصبر ، ومن لا صبر له لا يصلح أن يكون مقاتلاً . لذلك كانت هذه الثلاثة واجبة عند القتال كما قال تعالى :

﴿ يأيها الذِينَ آمَنُوا إذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا واذْكُرُوا اللَّه كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وأطِيعوا اللَّه وَرَسُولَهُ وَلَا تَنازَعُو فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إنَّ اللَّه مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) (الأنفال) .

ذكر ابن كثير عن قتادة قال : افترض الله ذكره عند أشغل ما يكون . عند الضرب بالسيوف . وذكر ابن أبي حاتم عن عطاء قال وجب الإنصات وذكر الله عند الزحف ثم تلا هذه الآية . وأكبر دليل على الاهتمام بذكر الله تعالى ووجوبه عند المعركة أن الله تعالى أمر المسلمين أن يصلوا أثناء المعركة صلاة الخوف ، ولم يبح لهم أن يؤخروا الصلاة من أجل القتال .

(٦) طاعة الأمير في غير معصية :

كل مقاتل في جماعة ولو كانوا ثلاثة وجب أن يكون له أمير ، وطاعة الأمير واجبة سواء أكان معيناً من قبل القائد العام أم اختاره من معه ، وفي ذلك يقول ﷺ : « من أطاعني فقد أطاعَ الله ، ومن عصاني فقد عَصَى الله . ومن يُطِعْ الأمير فقدْ أطاعَني ، ومن يَعْصِ الأميرَ فقد عَصَاني » رواه البخاري ومسلم .

وهذا الحديث توضيح لقوله تعالى :

﴿ يَأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطيعُوا اللَّهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ (٥٩) النساء .

(٧) صيانة اسرار الجيش والدولة :

إن ذلك هام جداً وقت المعركة فربما أفشى واحد سراً إلى عدو أو غيره فعرف السر فضاع بسبب ذلك الجيش أو ضاعت الأمة ، لذلك يقول تعالى في الأنفال :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لاَ تَخُونُوا اللَّهَ والرَّسُولَ وَتَخُونُوا أمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) واعْلَمُوا أنَّما أمْوَالُكُمْ وَأوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أجرٌ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ .

وإذا كان إفشاء السر خيانة فإنه حينئذ ذنب عظيم ، ويزداد عظمة بازدياد ضرره وسوء أثره . . قال القرطبي في الآية السابقة : روي أنها نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر حين أشار إلى بني قريظة بالذبح . . . وكانوا طلبوا من الرسول إرساله إليهم أثناء حصار رسول الله لهم فلما وصلهم وطلبوا معرفة ما يمكن أن يفعله بهم رسول الله أشار إلى حلقه بما يفهم منه أن سيذبحهم ذبحاً ، وبعد هذه الإشارة أحس بغلطته الشنيعة فذهب إلى المسجد ، وربط نفسه في عمود به وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي ، وظل كذلك حتى تاب الله عليه وأطلقه الرسول ﷺ .



حكم القتال في سبيل الله

القتال في سبيل الله فرض من فروض الإسلام يأثم المسلمون جميعاً إذا تركوه جميعهم وإذا قام به البعض وكان هذا البعض كافياً لصد الأعداء ، وإعلاء كلمة الله ،وحفظ دين الله وإظهاره على الدين كله،وحفظ أموال المسلمين وأعراضهم وأرواحهم فإن القتال حينئذ يسقط عمن لم يقاتل ولا يعتبر آثماً ، أما إن لم يقاتل أحد ، أو كان العدد الذي يقاتل من المسلمين أعداءَ الله المعتدين على دين الله وعلى المسلمين أقلَّ من المطلوب فإن جميع المسلمين القادرين على القتال والمكلفين به شرعاً يعتبرون آثمين ومذنبين وعصاة ويكون مصيرهم الذل والهوان والضياع واحتلال الأرض الإسلامية ، وقتل المسلمين واستعبادهم ،وسلب أموالهم وأعراضهم ، وهذا يفهم من قوله ﷺ : « **مَا تَرَكَ قوم الجهادَ إلا عَمَّهمُ الله بالعَذَاب** » رواه الطبراني بإسناد حسن .

والدليل على فرضية القتال في سبيل الله قوله تعالى :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ البقرة (٢١٦) .

وعن أنسٌ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **جَاهِدُوا**

المشركِينَ بأموالِكم وأيْدِيكُم وألسِنَتِكم » رواه أحمد وأبو دواد والنسائي وصححه النسائي وقال الشوكاني فيه : رجال إسناده رجال الصحيح . والدليل على أنه فرض كفاية قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (١٢٢) التوبة .

متى يكون القتال فرض عين ؟

عرفنا فيما سبق أن القتال فرض إذا فعله البعض وكان كافياً سقطت الفرضية عن الباقين ، وإذا لم يفعله أحد أثم الجميع ، وهو معنى فرض الكفاية ، أما فرض العين فهو أن يكون فرضاً على كل مكلف ، ولا يسقط عنه إلا إذا فعله بنفسه ، أو وكل عنه فيما يجوز فيه التوكيل . والقتال يكون فرض عين في أحد الأمور الآتية :

١) أن يحضر المكلف صف القتال ،ويوجد في المعركة . لقوله تعالى في سورة الأنفال :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فاثْبُتُوا ﴾ (٤٥) .

ولقوله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفَاً فَلَا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . . . الخ ﴾ (١٥) الأنفال .

وقد سبق ما يفيد أن الفرار من الصف من الكبائر :

٢) إذا نزل العدو ببلد إسلامي . . فإنه حينئذ يجب على كل قادر أن

يحمل السلاح الذي يقدر عليه ويقاتل سواء كان المسلم رجلاً أم امرأة ، حراً أم عبداً ، ولا يحتاج الأمر حينئذ أن يستأذن أحد أحداً ، وذلك لأن الدفاع عن النفس والعرض واجب ، وهذا منه ، ولا يجوز لمسلم أن يسلم نفسه لعدوه وعدو دينه وهو يقدر أن يحاربه ويقاتله ، وفي ذلك يقول تعالى في سورة البقرة :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (١٩٠) .

٣) إذا عين الإمام قوماً للقتال : فإن القتال يتعين عليهم بذلك ويصير فرض عين على كل منهم وذلك لقوله ﷺ « **لَا هِجرَةَ بعدَ الفتحِ ولكنْ جِهادٌ ونيَّةٌ ، وإذَا اسْتُنْفِرْتُم فانفِرُوا** » رواه البخاري .

ولأن الله وبخ المتثاقلين عن القتال بعد دعوة الرسول ﷺ إلى النفير له فقال تعالى :

﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأرضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨) التوبة .

من الذي يجب عليه الجهاد ؟

يجب الجهاد على المسلم البالغ العاقل الذكر الحر السالم من الضرر الواجد للنفقة : فأما الإسلام والبلوغ والعقل فهي شروط لوجوب سائر التكاليف .

وأما الذكورية فتشترط لما روت عائشة قالت : قلت يا رسول الله هل على النساء جهاد ؟ فقال : « **لَكُنَّ جِهَادٌ لَا قِتَالَ فيه : الحَج والعُمْرة** » رواه

أحمد والبخاري ، ولأنها ليست من أهل القتال لضعفها وجبنها ، فإن خرجت للتمريض والخدمات الأخرى فلا يمنع الإسلام من ذلك ما دام خروجها خاضعاً لتعاليم الإسلام ومبادئه ، وإن خرجت للقتال فلا مانع أيضاً بالشرط السابق فقد ثبت خروج بعض النساء مع النبي ﷺ في بعض غزواته .

وأما الحرية فلأن النبي ﷺ كان يبايع الحر على الإسلام والجهاد ، ويبايع العبد على الإسلام فقط ، ولأن العبد مشغول بحقوق سيده .

وأما السلامة من الضرر فمعناها السلامة من العمى والعرج والمرض لقوله تعالى في سورة الفتح :

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الأعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (١٧) .

وقال تعالى في سورة التوبة :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٩١) .

والمراد بذلك أن يكون العذر كالمرض والعرج بحيث يمنع الرجل من القتال ، أما إذا كان أحدهما خفيفاً لا يمنع فإنه لا يسقط فرض القتال عن صاحبه .

والنفقة إن كانت على حساب الدولة أو جهة معينة فبها ، وإن كانت على حساب المقاتل فإن وجد ما يكفيه ويكفي متطلبات المعركة وجب عليه القتال وإلا فلا . سواء كانت المعركة جماعية أم فردية كحالة العمل الفدائي في بعض مواقفه ، كما يشترط لوجوب القتال عليه أن يكون المقاتل واجداً لنفقة عائلية في مدة غيبته .



حكم استئذان الأبوين المسلمين

عن عبد الله بن عمرو قال : **جاء رجلٌ إلى النبي ﷺ فاستأذَنَه في الجهاد فقال : « أحيٌّ والداك ؟ قال : نعم ، قال : فَفِيهِما فَجَاهِد »** رواه البخاري والنسائي وأبو داود والترمذي وصححه .

وفي رواية : **أتى رجل فقال : « يا رسول الله إني جئتُ أريد الجهادَ معك ،ولقد أتَيتُ وإن وَالِدَيَّ يَبكيانِ ، قال فارجع إليهما فأضْحِكْهما كما أبكيْتَهما »** رواه أحمد وأبو داود وابن ماجة .

في الحديثين دليل على أن استئذان الأبوين واجب إذا كانا موجودين ، وإن كان أحدهما موجوداً وجب استئذانه ، فإن أذنا خرج وإلا لم يخرج ، وبذلك قال الجمهور ، وجزموا بتحريم الجهاد إذا منع منه الأبوان أو أحدهما ؛ لأن برهماً فرض عين والجهاد فرض كفاية ، فإذا صار الجهاد فرض عين لسبب من الأسباب الثلاثة السابقة فإنه حينئذ لا يحتاج إلى إذنهما ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وهذا الحكم على أساس أن الأبوين مسلمان ، فإن كانا كافرين فليس عليه استئذانهما ، والجد والجدة يلحقان بالأبوين عند الشافعية .

واستُدل بذلك على تحريم السفر بغير إذنهما إلا إن كان السفر لتعلم فرض عين كتعلم العقيدة أو الصلاة وغيرهما ، وبعض العلماء يرى أن السفر ليس له حكم الجهاد فلا يحتاج إلى إذنهما إذا كان لا خطر فيه مثل خطر الجهاد ، وهو القول الأقوى والأنسب .

حكم المقاتل المديون

عن أبي قتادة عن رسول الله ﷺ« **أنه قامَ فِيهِم فَذَكَرَ لهم أن الجِهادَ في سبيل الله والإيمانِ بالله أفضلُ الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسولَ الله ، أرأيت أن قُتِلتُ في سبيل الله تكفَّرُ عني خَطَايَاي ؟ فقال له رسول الله ﷺ : نَعَمْ إن قُتِلتَ في سبيل الله وأنتَ صابر مُحْتَسِبٌ مقبلٌ غَيْرُ مدبر ، ثم قال رسول الله ﷺ : « كيف قلتَ ؟ قال : أرأيتَ إن قتلتُ في سبيل الله تكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم وأنتَ صابِرٌ مُحتَسِبٌ مقبلٌ غيرُ مدبر إلا الدَّين فإن جبريلَ عليه السلام قال لي ذلكَ** » رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي وصححه .

وعن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « **يَغْفِرِ الله للشهيد كلَّ ذَنْبٍ إلا الدَّين فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك** » رواه أحمد ومسلم .

في الحديثين دليل على أن الشهادة التي يغفر الله بها جميع الذنوب هي الشهادة التي اتصف صاحبها بالصفات الآتية :

(١) أن يطلب رضاء الله بجهاده (٢) أن يصبر على متطلبات المعركة (٣) ألا يفر فراراً محرماً (٤) ألا يكون مديوناً لأحد من الناس .

وقد عرفت فيما سبق أن الثلاثة الأولى واجبة على المقاتل الذي يريد ثواب الله في قتاله واستشهاده ، أما الدين فقد أوضح الحديثان أن من مات

مديوناً لأحد من الناس فإن الله تعالى يغفر له كل شيء إلا الدين ، فإن أراد أن يغفر الله له كل شيء فعليه أن يسدد دينه قبل القتال أو يتحلل منه بأي نوع من أنواع التحلل كأن يسامحه صاحب الدين ، أو يأذن له في الخروج للقتال ، أو يتحمله عنه إنسان آخر ، أو تقوم الدولة به . وهذا كله إذا لم يكن عنده مال يفي بسداد دينه .

ومثل الدين جميع الحقوق المستحقة للناس عليه قياساً على الدين ، فيجب عليه أن يتخلص منها قبل الخروج للقتال . ا هـ من الشوكاني جزء ٧ ص **٢٣٥** ملخصاً .

وبناء على ما سبق قال الفقهاء : لا يجوز للمدين أن يخرج للقتال بغير إذن الدائن أخذاً من الحديثين السابقين إلا إذا كان عنده مال يفي بسداد ما عليه من الدين سواء كان هذا المال حاضراً كثمار الشجر قبل اكتمال نضجه ، أو غائباً كمال تجارة في غير بلده الذي يقيم فيه ولكن يمكن الوفاء منه ، فمهما كان عنده مال يفي بسداد دينه فإنه يأخذ أجره من الله تعالى وافياً ويجوز له الخروج بغير إذن الدائن لأن خروجه وقتله لن يكون له أثر على سداد الديون ما دامت الديون مكتوبة أو ثابتة بشهود .



حكم القتال مع قائد فاسق

أجمع العلماء على أن الجهاد سواء كان فرض عين أو فرض كفاية لا يتأثر بقائد الجيش ولا بأمير الدولة ولا بالإمام العام للمسلمين من جهة التقوى والفجور ، بل هو فرض مثل سائر الفروض يجب القيام به مع البر والفاجر ، ومع التقى والفاسق ما دام قائماً بما يجب تجاه متطلبات المعركة وصالحاً للقيادة الحربية لصالح المسلمين ضد أعدائهم ، ولا يحل لمسلم وجب القتال عليه أن يتأخر متعللاً بفسق القائد ، أو جور الحاكم .

ولو أن المسلمين جاز لهم ذلك لمكنوا أعداءهم من أنفسهم وأعراضهم وأموالهم وصاروا أذل أمة على وجه الأرض .

قال ابن تيمية وهو يتكلم عن اختيار القائد : يقدَّم في إمارة الحرب الرجل القوي الشجاع وإن كان فيه فجور على الرجل الضعيف العاجز وإن كان أميناً (أي تقيا) .

كما سئل الإمام أحمد عن الرجلين يكونان أميرين في الغزو ، أحدهما قوي فاجر ، والآخر صالح ضعيف ، مع أيهما يُغْزَى ؟ فقال : أما الفاجر القوي فقوته للمسلمين ، وفجوره على نفسه ، وأما الصالح الضعيف فصلاحه لنفسه وضعفه على المسلمين ، فيغزى مع القوي الفاجر .

وقال النبي ﷺ :

« ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » .

رواه البخاري .

وقال الشوكاني : «الجهاد فرض مع البر والفاجر» وعلق عليه الشارح بقوله : لأن الأدلة الدالة على وجوب الجهاد من الكتاب والسنة ، وعلى فضيلته والترغيب فيه وردت غير مقيدة بكون السلطان أو أمير الجيش عادلاً ، بل هذه فريضة من فرائض الدين أوجبها الله على عباده المسلمين من غير تقييد بزمن أو مكان أو شخص أو وصف من عدل أو جور ، فتخصيص وجوب الجهاد بكون السلطان عادلاً ليس عليه أثارة من علم . ا هـ من الروضة الندية ج ٢ ص ٣٣٣ وقال ابن حزم في المحلى ج ٧ ص ٢٩٩ : ويغزى أهل الكفر (ويحاربون) مع كل فاسق من الأمراء وغير فاسق ؛ ومع المتغلب (الذي أخذ الحكم بالقوة) والمحارب (الذي يحارب السلطان خروجاً عليه) كما يغزى مع الإمام ، وكما يغزوهم المرء وحده إن قدر أيضاً .

قال تعالى :

﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعاوَنُوا عَلَى الإِثْم وَالْعُدْوَانِ ﴾

وقد ذكرنا عن النبي ﷺ في أول باب من كتاب الجهاد هنا (حديث) «السمع والطاعة حق (واجب) ما لم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا طاعة» رواه البخاري . . .

وقد علم الله تعالى أنه ستكون أمراء فساق فلم يخصهم من غيرهم . . إلى أن قال : ولا إثم بعد الكفر أعظم من إثم من نهى عن جهاد الكفار وأمر بإسلام حريم المسلمين إليهم من أجل فسق رجل مسلم لا يحاسب غيرُه بفسقه ا هـ منه .



حكم قتال النساء وخروجهن للغزو

عن الرُّبَيِّع بنت معوذ قالت : «كنا نَغْزو مع رسولِ الله ﷺ نَسْقي القومَ ونخدُمُهم ونردُّ القتلى والجَرْحى إلى المدينة» رواه أحمد والبخاري .

وعن أم عطية الأنصارية قالت **غزوتُ مع رسول الله ﷺ سبعَ غَزَوَات أخْلُفُهم في رِحالهم وأصنع لهمَ الطعام وأُدَاوي الجَرْحى وأقومُ على الزَّمْنى»** رواه أحمد ومسلم وابن ماجة .

وعن أنس قال : «**كان رسول الله ﷺ يَغْزُو بأمِّ سُلَيم ونسوةٍ معها من الأنصار يسقين الماءَ ، ويداوينَ الجرحى**» رواه مسلم والترمذي وصححه .

وعن أنس أن أم سُلَيم (وهي أم أنس) اتخذَتْ يَوْمَ حُنَينٍ خِنجراً فكانَ معها فرآها أبو طلحة (زوجها) فقال يا رسول الله : هذه أم سُلَيم معها خنجر ، فقال لها رسول الله ﷺ : «**ما هذا الخنجر ؟ قالت : اتخذْتُه إن دنا مني أحدُ من المشركين بقَرْتُ بِهِ بَطْنَه ، فجعَلَ رسول الله ﷺ يَضحَك**» . . .» رواه مسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : **يا رسول الله نَرى الجِهادَ أَفْضَلَ العَمَل أفَلاَ نُجَاهِدُ ؟ قال : لكنَّ أَفْضَلُ الجِهَادِ حَجٌ مَبْرورٌ**» رواه مسلم وأحمد والبخاري .

هذه الأحاديث وغيرها دليل على جواز خروج النساء لمداواة الجرحى وسقي الماء والقيام بالخدمات العامة للجيش ، ويدافعن عن أنفسهن إن أراد العدو الاعتداء عليهن ، وعليهن أن يلتزمن بالواجب الشرعي في كل حالة ، فتخرج المرأة مسافرة مع زوجها أو ذي محرم منها ، ولا تمس أجنبياً لعلاجه إلا لضرورة ، ولا تفحش في الاختلاط بالرجال ، بل لا تختلط إلا للضرورة ما دام الرجال أجانب وليسوا محارم لها .

قال ابن بطال : دل حديث عائشة على أن الجهاد غير واجب على النساء ، ولكن ليس فيه ما يدل على أنهن ليس لهن أن يتطوعن به ، وإنما لم يكن واجباً لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر ومجانبة الرجال ، فلذلك كان الحج أفضل لهن من الجهاد . ا هـ ملخصاً من الشوكاني ج ٧ ص ٢٥٣ .

وفي الأحاديث دليل على أنه يجوز للمرأة الأجنبية مداواة الرجل الأجنبي للضرورة كما أن الرجل كذلك مع الأجنبيات ١٠ هـ منه .

وهذا ما لم يهجم العدو على بلد من بلاد المسلمين ، فإن فعل وجب على الرجال والنساء من أهل ذلك البلد مقاتلته ودفعه ؛ لأن دفعه حينئذ فرض عين على كل قادر عليه .

ولا بد من مراعاة الأحكام الشرعية في هذا الموضوع ، لأن النساء فتنة أينما وجدن وحيثما حللن ، وما تُركت امرأة لهواها إلا كانت مفسدة ومهلكة لمن حولها .

ومما سبق ندرك أنه يجوز أن تقوم المرأة المسلمة بالعمليات الحربية الفدائية والاستخبارات وغيرها مما تصلح له .



ما يجب على الأمة من أجل المعركة

إن الجهاد في الإسلام فريضة كما عرفت ، وهو ضرورة لازمة لحماية الأمة الإسلامية من أعدائها ، ومن أجل أن تحيا آمنة مستقرة تستطيع أن تنشر بين الناس دينها ، وأن تؤدي رسالتها ، وتقوم بالدور الموكول إليها ، وما تركت الأمة الجهاد إلا ذلت وركبها عدوها وأذلها أسوأ إذلال .

إذا كان الجهاد فرضاً فإن كل أمر يتوقف عليه الجهاد يعتبر فرضاً ، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

فالتدريب على السلاح وعلى المعركة فريضة ، ودراسة جميع النواحي العسكرية والحربية الحديثة فريضة على طائفة من القادة ، وتصنيع البلاد حتى يحصل لها اكتفاء ذاتي فريضة بقدر الإمكان ، واستصلاح الأراضي البور وزرعها حتى تستغني الأمة عن أعدائها فريضة ، وتوفير الحياة الكريمة والنفقات الأساسية للمعركة وللمحاربين وأهليهم فريضة ، وتنظيف الأمة من المنكرات والفواحش فريضة ؛ لأنها تجلب الهزيمة وغضب الله ، وتعليمها أحكام الله ودينه لتدرك موقفها وواجبها فريضة ، ومن أهم الفرائض إعداد أقوى سلاح عصري تستطيع الأمة إعداده .

وهذا كله داخل في القوة التي أمر الله تعالى بتوفيرها من أجل المعركة في قوله :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ الأنفال (٦٠) .

وكل ما ذكر من واجبات على الأمة هو من الأمور المتفق عليها ، فلا نحتاج إلى الإطالة في ذكرها .

والقتال الهجومي له أسلحته ورجاله وتدريباته ومتطلباته التي يعلمها المتخصصون ، وكذلك القتال الدفاعي له أسلحته ورجاله وتدريباته ومتطلباته .

فعلى الأمة أن تقوم بواجبها نحو إعداد كل ذلك وإلا كانت آثمة ما دامت قادرة ومتمكنة ، فإن بغتها عدوها وهجم عليها فجأة فإن واجبها القيام بما تستطيعه حينئذ «ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها» .



الفرق بين القتال الدفاعي والقتال الهجومي

القتال إما أن يكون هجومياً أساساً ، أو دفاعياً في أساسه والفرق بين الإثنين ما يأتي :

إولاً : الحرب الهجومية في الإسلام لا تكون إلا لإعلاء كلمة الله تعالى وإظهار دين الله على الدين كله ، وتأمين الطريق للدعوة الإسلامية حتى تصل الى كل إنسان يمكن توصيلها إليه ، أما الحرب الدفاعية فالأصل فيها أنها دفاع عن النفس وعن العرض والأهل ، وعن المال ، وعن المقدسات الإسلامية ، وعمن وجب على المسلمين حمايتهم من أهل الذمة والأمان ما داموا بيننا ، وما داموا أوفياء بالعهد ، والدفاع عن ذلك كله مطلوب ومن قتل في سبيله فهو شهيد ، وهو نوع من إعلاء كلمة الله كما سبق .

ثانياً : القتال الهجومي لا يكون إلا بإذن الحاكم الإسلامي ، وإن كان بعض الفقهاء ومنهم ابن حزم يرى أن الأمر به ثابت من قبل الله تعالى من غير أن يشترط إذن الإمام، أما القتال الدفاعي فهو واجب سواء أذن الإمام أم لم يأذن إلا أن يأمر الإمام بعدم القتال لأنه يعد العدة لعمل حربي قوي وفني وناجح وتكون الظروف مناسبة لمثل هذا العمل .

وفي القتال الدفاعي يخرج كل قادر على القتال رجلاً كان أو

امرأة، حراً كان أو عبداً، ولا تستأذن المرأة زوجها، ولا العبد سيده، ولا الخادم مخدومه ، والعلة في ذلك أن هذا القتال الدفاعي بالنسبة للبلد الذي حصل الهجوم عليه صار فرض عين مثل الصلاة والزكاة والصيام ، والفروض العينية لا تحتاج إلى إذن من أحد بل تجب سواء أذن من له الإذن أم لم يأذن، ومن هنا قال العلماء إنها واجبة بدون إذن وأمر الحاكم الإسلامي ، وذلك مثل الحرب بين المسلمين واليهود في فلسطين ، ومثل الحرب في الفلبين ، وفي أثيوبيا وأريتريا وغيرها بين الشيوعيين وبين المسلمين .وقصة أبي بصير وأبي جندل أكبر دليل على ذلك فإنهما لم يكونا تحت عهد النبي ﷺ ولا خاضعين لحكمه ظاهراً ، فقاما ومن معهما بمحاربة الكافرين من قريش حرب عصابات فترة طويلة أرهقت قريشاً وأتعبتها ، وسيأتي مزيد بيان لذلك ، وتستطيع أية مجموعة مسلمة أن تختار من بينها أميراً ، ثم تقوم بواجبها نحو قتال أعداء الله وأعداء المسلمين المعتدين عليهم فإذا لم تستطع ذلك فليقاتل كل قادر بدون أمير أو حاكم حتى يلتئم الشمل ويمكن عمل تنظيم قتالي له أمير أو قائد .

ثالثاً : القتال الهجومي لا يجوز الاستعانة فيه بكافر إلا أن تدعو ضرورة إلى ذلك ، أو يكون وجود الكافر لا خطر منه ولا ضرر ، لهوان أمره وضآلة شأنه ، أما القتال الدفاعي فيجوز أن يكون فيه من ليس مسلماً من اليهود والنصارى والمجوس ما داموا قائمين للدفاع عن بلدهم وأموالهم وأعراضهم ، إلا أن تظهر منهم خيانة وتواطؤ مع العدو فيمنعون ويؤدبون .

رابعاً : لا يجوز الخروج للحرب الهجومية بدون الاستعداد الممكن ، وبدون الأسلحة المطلوبة ، والتدريب الكافي ، أما القتال الدفاعي فلا يشترط فيه شيء من ذلك ، بل يقوم كل بما يقدر عليه ويحارب بما يستطيعه ،

ولو كان فأساً أو سكيناً ، أو حجارة ما دام في ذلك جدوى وفائدة .

خامساً : الحرب الهجومية فرض كفاية على جميع المسلمين ، فإن قام به البعض سقط عن الباقين ، أما الحرب الدفاعية فإنها فرض عين على أهل البلد الذي هوجم إن كان في أهل البلد كفاية فإذا لم يكن فيهم كفاية وجب على من يليهم وجوباً عينياً ، فإذا لم يكفوا وجب على الأقرب فالأقرب حتى يوجد العدد الكافي لصد الهجوم ولو شمل الأمة كلها .

سادساً : الحرب الدفاعية مفروضة على الأمة كلها ما دام في أي بلد من بلاد الإسلام عدو للمسلمين مستعمر لهم وحاكم فيهم وله على المسلمين سبيل من القوة والأمر والنهي والحكم بغير ما أنزل الله تعالى ، أما الحرب الهجومية فتخضع لأحد أمور ثلاثة يختار العدو واحداً منها ، وهي الإسلام ، أو الجزية والخضوع لحكم الإسلام ، أو القتال حتى يحسم الأمر مصيرُ المعركة .

سابعاً : في الحرب الهجومية أمور محذورة وممنوعة ولكنها ليست ممنوعة في الحرب الدفاعية مثل قتل النساء والعُبّاد والعمال والفلاحين وغيرهم فهؤلاء ما داموا قد دخلوا بلادنا بالقوة فإنهم صاروا قوة للأعداء فلنا قتلهم أو أسرهم .

ثامناً : لا يهاجم المسلمون أعداءهم إلا بعد بلوغ دعوة الإسلام إليهم وليس ذلك مطلوباً في الحرب الدفاعية .

★★★

الحرب النفسية والخداع في الحرب

يجوز في أثناء الحرب الواقعة فعلاً ، وفي أثناء حالة الحرب خداع العدو ، والكذب عليه لتضليله ، وتوهين نفسه ، وإرباكه ما دام ذلك ليس فيه نقض عهد أو إخلال بأمان أو بشروط مبرمة بين الفريقين .

ففي الحديث الذي رواه البخاري عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «**الحربُ خُدْعَةٌ**» .

وأخرج مسلم من حديث أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها قالت : «لم أسمع النبي ﷺ يُرَخِّصُ في شيء من الكذب مما يقول الناسُ إلا في الحرب ، والإصلاحِ بين الناس ، وحدِيثِ الرجلِ امرأته وحديث المرأةِ زَوْجَها» .

ويتبع ذلك استعمال الحرب النفسية ضد الأعداء ، فإن لها تأثيراً لا يقل عن تأثير السلاح الفتاك والفرسان المغاوير ، والقادة المشهود لهم بالشجاعة والغلبة، وقد استعملت في غزوات كثيرة من غزوات الرسول ﷺ ، حتى قامت الملائكة بدور كبير في ذلك ، كما حدث في بدر وحنين والخندق وبني قريظة وغيرها .

وهذه الحرب في عصرنا هذا عامل أساسي تعتمد عليه الدول لأرهاب أعدائها ، وتحطيم أنفسهم ، والتأثير على أعصابهم .

وله أصول وقواعد تقوم عليها ، وفنون وحيل ومحاذير وقيود يدرسها المتخصصون ، واستعمالها نوع من القوة التي أمرنا الله . . .

ما يجب على القائد نحو جنوده

يجب على القائد والأمير وكل مسؤول نحو من معه أمور منها :

(١) مشاورة من معه فيما يحتاج إلى مشورة : فقد ثبت عن الرسول ﷺ في أحاديث صحيحة أنه قد شارو في أمر القتال في غزوة بدر بعد فرار القافلة التي كان يقودها أبو سفيان ، كما استشارهم في غزوة الخندق ، وفي أُحُد وغيرهما .

وقال الله له : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ في الأمر** ﴾ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « **ما رأيتُ أحداً قطُّ كان أكثرَ مشورةً لأصْحابه من رسول الله ﷺ** » رواه أحمد والشافعي .

(٢) أن يَرْفُق بهم ، ويُشفق عليهم ويعاملهم باللين والرحمة ليلتفوا حوله ، ويحبوا أمره ونهيه ، ولا يضمروا له بغضاء ولا حقداً ، ولا يحملوا في أنفسهم نحوه غيظاً ولا حسداً ، فقد قال تعالى في وصف نبيه محمد ﷺ فيما يتصل بقيادته في غزوة أحد :

﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، ولوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْر** ﴾ آل عمران (١٥٩) .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **اللهمَّ من وَلَيَ من أمر أمتي شيئاً فشق عليهم فاشقُق عَليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً فرفَق بهم فأرْفُقْ بِه** » رواه أحمد ومسلم .

وعن جابر رضي الله عنه قال : « **كان رسول الله ﷺ يتخلف في المسير (يتأخر عن الجيش) فيُزْجي الضعيف (يدفعه إلى السير ويساعده) ويُرْدِف (يركب خلفه أو خلف غيره من ليس له ما يحمله) ويدعو لهم** » رواه أبو داود ، ورجاله رجال الصحيح .

والقائد الناجح هو الذي يسوس جنوده ومن معه بالرحمة واللين والمشاركة في مطاعمهم ومشاربهم وأعمالهم ، فقد شارك ﷺ أصحابه في بناء المسجد وفي حفر الخندق وفي غير ذلك ، وكان ﷺ في غزوة الخندق قد شد على بطنه حجراً من شدة الجوع كما جاء في السيرة ، وحين كان يأتيه أحد من أصحابه بطعام من تمر أو غيره كان يدعو جميع من في موقع الخندق أن يأتي ليأكل معه ، وما كان يستأثر بشيء لنفسه في مثل هذه الأحوال .

أما القائد الذي لا يعرف إلا القسوة على جنده ، ولا يأكل إلا وحده ، ويستأثر بأطيب الطعام ، ولا يعطي جنوده إلا أردأه ، ويستصفي لنفسه ولمن معه وحوله من الضباط من اللحم والفاكهة والحلوى وغيرها ما لو وزع على كتيبة لكفاها . فإن مثل هذا القائد يبغضه أتباعه ، وينفرون منه ، ولا يخلصون له ، ويكرهون النصر على يديه ، ويعملون على التخلص منه بأي سبيل .

وكم من ضابط قتله جندي أثناء المعركة بسبب طيشه وكبزه واحتقاره لجنده !!!

وكم من قائد هزم في المعركة بسبب سوء معاملته لمن يقودهم ويحارب بهم !!!

وبعض الجنود يأتي من أسر نظيفة كريمة عريقة في الأدب والدين والنسب ، فإذا التحقوا بالكتيبة الخاصة بهم سمعوا من رؤسائهم شتائم وسباباً ولعنات قذرة دَنسة لا تصلح أن توجه للبهائم والحشرات ، فتنتكس نفوسهم ، وتغلي دماؤهم، ويفكرون بجد في الانتقام ممن يؤذيهم ويتكبر عليهم ، ويستأثر بأطيب الطعام ، ويتركهم بغير كفاية من الخبز والإدام والفاكهة ، مع أنهم يقومون بتدريبات عنيفة وأعمال شاقة وقتاً طويلاً ، ولا تجد هذا النوع من القادة والضباط إلا في البلاد المتخلفة دينياً وفكرياً وخلقياً .

(٣) النصح لمن هم تحت قيادته وإمرته والرعاية لهم ، والاهتمام بجميع شؤونهم الخاصة والعامة ، الدينية والدنيوية ، لأنه مسؤول عنهم مسؤولية كاملة أمام الله تعالى بنص حديث : « **كُلكُم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عَنْ رعِيَّته ، فالإمامُ الذي على الناس راعٍ وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأةُ راعِيةً في بيت زوجها ، وهي مسؤولة عن رعيتها ، والولَدُ راعٍ في مال أبيه ، وهو مسؤول عن رعيته ، والعبد راعٍ في مال سيده ، وهو مسؤول عن رعيته** « ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » أخرجه البخاري ومسلم .

وعن معقل بن يسار قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **مَا مِنْ عَبْدٍ يسترعيه الله رعية يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌ لرعيته إلا حرَّمَ الله عليه الجنةَ** » متفق عليه .

والنصح للمسلم يشمل الأمور الدينية والدنيوية ، والأمور الدينية أهم ، لأن نصر الله للمسلمين وتأييده لهم مشروط بنصرهم لدينه تعالى ، وإعلائهم لكلمته ، ومراقبتهم له في كل شؤونهم كما قال تعالى في سورة محمد (٧) .

﴿ يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّت أقْدَامَكُمْ ﴾ .

فمن لم يهتم بأمر الصلاة والصيام وغيرهما من العبادات ، ولم يهتم بمنع المنكرات والفواحش ، ولم يهتم بكلمة الله أن تعلو ، ولا بدين الله أن يظهر ويسود فليس بمسلم ، ولا يحل لجندي أن يقاتل تحت رايته في الحرب الهجومية ، وكذلك الأمر في الحرب الدفاعية إلا أن لا يوجد غيره ، أولاً يوجد من هو خير منه ، لأن الأصل في الحرب الدفاعية هو الدفاع ، ودفع الأعداء ، فيجب ذلك مع المسلم الصالح ، ومع الفاسق ، والكافر إذا لم يوجد سوى الفاسق والكافر وهذا أمر مفروغ منه ، فإن كل واحد من المسلمين مطالب بدفع المهاجمين سواء ساعده ونظمه ودربه قائد مسلم أو قائد كافر ، أو كان بدون قيادة لأن الدفاع حينئذ فرض عين لا يتوقف إلا على القدرة .

والقائد الذي لا ينصح جنده يعتبر غاشاً لهم ومضيعاً لدينه ودينهم وقد قال ﷺ في الحديث الصحيح « **الدين النصيحة** » .

ومن النصح لنفسه ولهم والوقوف عند حدود الله والحرص على دينه ، أن يصحب معه العلماء بدين الله لكي يعلموا الناس ويفقهوهم ويرشدوهم إلى ما يجب عمله وما يجب تركه ، كذلك يصطحب معه القاضي الذي يحكم بين الناس بما أنزل الله ويقيم المؤذن للصلوات ، والإمام الذي يصلي بالجند ، والمحتسب الذي له حق الأمر والنهي والتأديب على فعل المنكرات وترك الموجبات، فإذا لم يفعل ولم يهتم بذلك فإنه لا فرق بين جيشه وبين أي جيش من اليهود والنصارى والمجوس . ومثل هذا الجيش لا ينصره الله بل يخذله ، وكثيراً ما هزمت الجيوش المتمسلمة لأنها لم ترع لله حقاً ، ولم ترفع بذكره اسماً ، ولم تراقبه في أمر من الأمور ، بل كثرت فيها المنكرات والفواحش وحارب بعضهم كل من صلى أو قرأ كتاب الله ، فنزلت عليهم لعنة الله كما نزلت على من قبلهم .

وتوجد اليوم جيوش عربية انتشرت فيها الشيوعية والإباحية والإلحاد ،

وطرد منها المصلون الصائمون الذي يخافون الله تعالى . فهل تنتظر من هؤلاء خيراً ؟ هذا مستحيل . . . وذلك ما حصل ولا يزال يحصل .

(٤) أن يضع كل إنسان في العمل الذي يناسبه ، لا يبالي في ذلك بغني أو فقير ، ولا بكبير أو صغير ، ولا بقريب أو بعيد ، بل يحكِّم المبادىء أولاً ، فإن لم يفعل فقد خان الأمانة التي قال الله فيها :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ النساء (٥٨) .

وقال فيها رسول الله ﷺ : « **إذا ضُيِّعَتِ الأمَانَةُ فانْتَظِر الساعَةَ** » **قيل : يا رسول الله وما إضاعَتُها ؟ قال :** « **إذا وُسِّدَ الأمْرُ إلى غَيْرِ أهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ** » رواه البخاري .

فالواجب على القائد وكل مسؤول أن يعين لكل أمر الإنسان الكفء فيه ، فإذا لم يفعل فقد خان الله ورسوله والمؤمنين كما جاء في حديث عن النبي ﷺ .

فلا يولي الجبان قيادة الكتيبة أو ما هو أكبر منها ، ولا يولي الخائن مخازن التموين ، ولا يولى الشره النهم أمر المطبخ ، وهكذا في كل الأمور .

أسلم خالد بن الوليد فولاه رسول الله ﷺ قيادة الجيش بعد إسلامه مباشرة ، ونهى أبا ذر عن تولي أي أمر من أمور المسلمين ولو كان وصاية على يتيم لما يعلم من ضعفه عن تحمل أمانة من هذا النوع .

(٥) أن يكون قدوة طيبة في قوله وفعله واستقامته ، فإن أعين الأتباع معقودة بفعل المتبوع ولا يؤثر في الجيش مثل سلوك القادة الطيب ، وعملهم الصالح ، وخلقهم الفاضل ، فإذا انضم ذلك إلى الشجاعة ، وقوة العزيمة ، وحب التضحية في سبيل الله كان لذلك كله أثر السحر في الجنود . . وقادة المسلمين الأول أعظم مُثُل لذلك كله .

(٦) ويجب على القائد التعرف على أحوال عدوه ، وعدد جنوده ، ونوع

أسلحته ، وموقعه وغير ذلك مما يعتبر علماً قائماً بذاته يقوم به جهاز الاستخبارات المتخصص في هذا النوع ، وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ أرسل الزبير بن العوام في غزوة الأحزاب ليأتيه بخبر الأعداء .

وأرسل رسول الله ﷺ بُسْبُساً عيناً (يتعرف الأخبار) ينظر ما صنعت عِيرُ أبي سفيان في غزوة بدر ، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ في كل غزوة .

وهذا يجعل القائد يعد جنوده ، وينظم جيشه ، ويرتب صفوفه على الصورة المناسبة والمطلوبة حسب الدراسات ونتائج الاستخبارات .

(٧) يستحب إذا أراد الهجوم أن يبدأه في باكورة النهار وأوله، فإن تأخر أجَّله حتى تزول الشمس ويصلى بالناس الظهر فقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا بعث جيشاً بعثه أول النهار ، وكان يحب أن يخرج يوم الخميس ، وكان يقاتل أول النهار ، فإن لم يقاتل أوله أخر القتال حتى تزول الشمس ، وكان يقول : « **اللهم بَارِكْ لأمتي في بُكُورِهَا** » كما أن من السُّنة أن يكون للجيش أو للفرقة أو الكتيبة كلمة سر وشعار يعرف به بعضهم بعضاً ، وكذلك كان يفعل النبي ﷺ وأصحابه فكان شعارهم أحياناً «حـم لا ينصرون » وأحياناً « أمِتْ أمِتْ » وأحياناً « عبد الله » و « عبد الرحمن » .



وقف القتال

إن القتال في الإسلام ليس غاية لذاته ، وليس هدفاً يسعى إليه المسلمون ، بل السلام القائم على تنفيذ حدود الله هو الهدف والغاية . فإذا تحققت الغاية المطلوبة بدون قتال فإن القتال يصير حراماً من كبائر الذنوب ، وإذا لم تتحقق بدونه وجب القتال لتحقيقها ، ومتى تحققت وجب وقف القتال وإنهاء المعارك .

فإذا قاتل المسلمون لإعلاء كلمة الله تعالى وتحكيم دينه وشريعته في أهل الأرض فإن القتال يجب إنهاؤه من قبل المسلمين إذا خضع أعداء الله لدين الله سواء بالدخول في الإسلام ، أو بدفع الجزية والالتزام بالشروط الإسلامية إن كانوا غير عابدين للأوثان فإن كانوا عابدين لها فلا يقبل منهم إلا الإسلام والأولون مثل اليهود والنصارى والمجوس ، والآخرون مثل كفار قريش والعرب وأمثالهم من عبدة الأصنام ، أو الأشخاص ، أو الأشياء ، أو ممن لا يعبد إلهاً ولا يعترف بوجوده .

وإذا قاتل المسلمون من أجل إجلاء عدوهم عن أرضهم ، أو رد اعتداء عليهم بأي شكل كان ذلك الاعتداء فإن القتال يوقف بعد بلوغ الغاية منه .

وإذا قاتل المسلمون من أجل تأمين الطريق ضد قطاعه ، أو من أجل

إجبار بعض المسلمين على إقامة فريضة من فرائض الله كالزكاة ، أو إقامة حدود الله في الناس ، أو رد الحقوق إلى أصحابها فإن القتال يجب إيقافه إذا خضع المقاتَلون لدين الله واستسلموا لأحكامه .

كما يجوز وقف القتال لغير ذلك إذا اقتضت المصلحة ورأى المسؤولون من المسلمين أن الأمر يتطلب إيقافه .

والأدلة على ذلك كله متوافرة ، ومشهورة فلا نطيل بذكرها هنا .



أصول يجب أن تراعى في القتال

الأصل في الإسلام أنه دين العدالة ، ودين الرحمة ، ودين الخير للناس أجمعين وهذا كله يظهر في جميع التشريعات الإسلامية صغيرها وكبيرها ، ومنها تشريعات الحرب .

وقد حرم التشريع الإسلامي قتل كل إنسان لا يقاتل : بسبب ضعفه أو بسبب إنشغاله بأمور غير أمور الحرب بحيث لا يهتم بالحرب ولا يفكر فيها وليس من شأنه المشاركة في القتال .

وهؤلاء هم : الولدان ، والنساء ، والرجال المرضى ، والمقعدون ، والعميان ، والرهبان في معابدهم ، والزراع ، والأجراء ، والشيوخ الفانون الذين لا يديرون رأياً ولا يمسكون بسيف ، فإن قاتل أحد من هؤلاء قتل ، وكذلك من يدبر أمر القتال منهم ، ومن يساعد المقاتلين ويعاونهم بأي شكل من أشكال المعاونة ، لأنه حينئذ له خطره وضرره على المسلمين .

فإن قتل أحد من هؤلاء عن غير قصد ولم يكن بد من ذلك فإن قتلهم لا إثم فيه كما إذا ألقيت قنبلة على معسكر فيه أطفال ونساء . وقد قُصدَ الجنودُ المقاتلون ، وكما إذا ألقيت القذائف والقنابل على الأماكن الاستراتيجية التي يؤثر قذفها في إضعاف قوة الأعداء ، كما إذا ألقيت على المصانع الحربية أو على الكبارى والقناطر والملاهي الخاصة بالجنود وفيها

أكثرية منهم ، فإن قتل النساء والأطفال وغيرهم في مثل هذه الحالات ليس مقصوداً ، وإنما جاء تبعاً لقتل المقاتلين ويرى بعض العلماء أن قتل من عدا النساء والولدان جائز وليس حراماً .

وفي هذا جاءت أدلة الكتاب والسنة :

فقال تعالى :

﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ البقرة (١٩٠) .

فالآية أمرت بقتال المقاتلين ونهت عن قتال من لم يقاتل واعتبرته اعتداء لا يحبه الله .

وعن ابن عمر قال : « وُجِدَت امرأةٌ مقتولةٌ في بعض مغازي النبي ﷺ فنهى رسول الله ﷺ عن قتلِ النساءِ والصبيان » رواه الجماعة إلا النسائي .

وعن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا تَقْتُلوا الذُّرِّيَةَ في الحرب** » **فقالوا : يا رسولَ الله أَوَلَيْسَ هُمْ أولادَ المشركين ؟ قال :** « **أَوَلَيْسَ خِيارُكُمْ أولادَ المشركين ؟** » رواه أحمد وقال الهيثمي فيه : رجال أحمد رجال الصحيح .

وعن الصعب بن جَثَّامَةَ أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أهل الدار من المشركين يُبَيِّتون فَيُصابُ من نسائِهِم وذراريهم ؟ فقال : « **هُمْ مِنْهُم** » رواه الجماعة إلا النسائي .

وجاء في رواية أن الصعب بن جثامة قال سألت رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين أَنَقْتُلُهُمْ مَعَهُم ؟ قال : « نعم » رواه ابن حبان في صحيحه .

فالحديث يدل على أمرين أساسيين :

(١) جواز قتل أولاد المشركين ونسائهم إذا لم يمكن فصلهم ، وجاء قتلهم تبعاً .

(٢) جواز الإغارة ليلاً على الأعداء وقتلهم .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ **إذا بَعَثَ جُيوشَه قال : « اخْرُجوا باسْمِ اللّهِ تعالى ، تقاتِلون في سبيل الله مَنْ كفر بالله ، لا تغدُرُوا ، ولا تَغُلُّوا ، ولا تُمثِّلوا ، ولا تقتلوا الولدان وأصحاب الصوامع »** رواه أحمد وفي إسناده إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حبيبة وثقه أحمد وضعفه غيره .

وعن صفوانَ بن عسَّال قال : بعثنا رسول الله ﷺ فقال : **وذكر حديثاً كحديث ابن عباس .**

فقد نهى الحديثان عن الغدر والخيانة ، وعن الغُلول ـ وهو السرقة من الغنيمة قبل قسمها ـ وعن المثلة بالأعداء كأن تقطع أيديهم أو أرجلهم ، أو تبقر بطونهم ، أو تقطع آذانهم الخ .

كما حرم الإسلام قتل الولدان والعباد ، وقد سبق الحديث في ذلك .

قال ابن رشد في بداية المجتهد جـ ١ ص ٣٥٤ : وقد صح النهي عن المُثلة ، واتفق المسلمون على جواز قتلهم بالسلاح واختلفوا في تحريقهم بالنار ، فكره قوم تحريقهم بالنار ورميهم بها ، وهو قول عمر ، ويروي عن مالك ، وأجاز ذلك الثوري ، وقال بعضهم : إن ابتدأ العدو بذلك جاز وإلا فلا ، والسبب في اختلافهم معارضة العموم للخصوص ، أما العموم فقوله تعالى :

﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴾

ولم يستثن قتلاً من قتل ، وأما الخصوص فما ثبت أن رسول الله ﷺ قال في رجل (وهو هبار بن الأسود) إن قدَرْتُم عليه فاقتلوه ولا تُحرقُوه بالنارِ فإنَّه لا يُعَذِّبُ بالنّارِ إلا رَبُّ النار » .

وقال الشوكاني في النيل ج ٧ ص ٢٦٤ ، وقد اختلف السلف في

التحريق ، فكره ذلك عمر وابن عباس وغيرهما ، قال المهلب : ليس هذا النهي على التحريم بل على سبيل التواضع ، ويدل على جواز التحريق فعل الصحابة ، وقد سمل النبي ﷺ أعين العُرَنيين كما فعلوا بالمسلمين ، وأحرق أبو بكر بالنار بحضرة أصحابه ، وحرق خالد بن الوليد ناساً من أهل الردة وكذلك حرق علي ١ هـ . والأصل الظاهر في ذلك أن يقال :

إن التحريق جائز إذا كان السلاح المستعمل في الحرب هو سلاح الحرق ولا يوجد بديل له ، أو كان هو السلاح المماثل لسلاح الأعداء ، أو كان ذلك أنكى في الأعداء وأشد إيلاماً وإضعافاً كي يستسلموا ويخضعوا ، أو كان ذلك العدو قد فعل بالمسلمين المكايد وأنزل بهم العذاب والتنكيل والتخريب ، وقد رأينا في حروب عصرنا أن التحريق عمل أساسي في الحرب وسلاح لا يستغنى عنه في أحيان كثيرة .

وأما تخريب المباني وقطع الشجر وإتلاف الثمر وقتل المواشي وغير ذلك فإنه جائز إذ كان معاملة بالمثل ، أو كان هو السبيل لإضعاف العدو أو التمكين منه ، وقد ثبت أن قطع ﷺ نخل بني النضير ، ونزل القرآن الكريم مؤ يداً له ﷺ . فإن كان لغير ذلك فإنه لا يجوز ، وبهذا يجمع بين الأدلة .

ورمى حصن فيه أسرى مسلمون أو أطفال مسلمون جائز عند بعضهم وغير جائز عند البعض الآخر إلا إذا ترتب على تركه إضرار بالمسلمين المقيمين داخله ، أو بمن كان قريباً منه ، كأن كان في الحصن قوة من الكافرين تهاجم من حولها من المسلمين ، أو تقذفهم بنيران القنابل والمدافع وغيرها ١ هـ من بداية المجتهد ج ١ ص ٣٥٥ . وعلى من يرمي الحصن أن يقصد برميه قتل الكافرين أو إضعافهم ، ولا يقصد رمي المسلمين .

وبناء على ذلك لو جعل الكفار المحاربون نساءهم وذرياتهم في مقدمة الجيش أو في مكان به جيش محارب من أجل التضليل وخداع المسلمين فإن للمسلمين حينئذ قتل نساء الكفار وذرياتهم من باب أولى .

أما لو جعل الكفار أسرى المسلمين ، أو نساءهم أو صبيانهم في المقدمة والمعركة قائمة ورأى المسلمون أن عدم ضرب الكفار ينزل بالمسلمين هزيمة ، أو يمكن الأعداء من احتلال الديار ، أو يعطيهم فرصة للتَّقَوّي على القتال ، فإنهم حينئذ عليهم أن يرموا أعداءهم ولو أصاب ذلك المسلمين ، لأن ترك الرمي والقتال يكون له الأثر السيىء على عامة المسلمين وكافتهم ، وفي غير ذلك لا يجوز ، بل هو إثم كبير .



الأعمال الفدائية

يقال فَدَاه يَفْديه فداء وفِدىً يعني أعطى شيئاً فأنقذه ، ، ومثله : فاداه وافتدى به ، والفِداء والفدية والفِدى : هو ذلك الشيء المعطى ، وفدَّاه تفدية : قال له جُعلت فداك ، وأفداه الأسيرَ : قبل منه فديته . ١ هـ من القاموس ملخصاً .

فعلى هذا يكون معنى العمل الفدائي : هو أن يقوم إنسان بعمل يفدي بهذا العمل إنساناً أو شيئاً ، فالفدائي يعطي شيئاً لإنقاذ شيء ، وبما أن الفدائي في عرف عصرنا هو الإنسان الذي يغامر بحياته من أجل مبادئه ، أو من أجل وطنه ، أو من أجل إنقاذ إنسان معين ، أو أشياء معينة ، فهو في اللغة كذلك أيضاً لأنه أعطى نفسه وروحه فداء لما أراد انقاذه سواء كان هذا الإنقاذ عاجلاً كإنقاذ رئيسه أو أخيه من يد الأعداء ، أو آجلاً كإنقاذ دينه ووطنه وعرضه وماله ومال إخوانه من يد المحتلين المغتصبين ، وينطبق عليه اسم « فدائي » وينسب إلى « الفدائية » سواء كان ما يعطيه ويقدمه يستفيد منه عدوه ، أو يستفيد منه قومه وإخوانه ، فالأول كأن يقدم لعدوه مالاً أو خدمات ، والثاني كأن يضحي بنفسه فيموت في سبيل عمل من الأعمال الحربية الضارة بالعدو .

والعمل الفدائي داخل في الأعمال الحربية وجزء منها إذا كان المقصود

منه إنزال الضرر بالأعداء كما هو حاصل في عصرنا ، غير أنه صار متميزاً عن معارك الجيوش الحربية بأمور منها :

(١) أنه يخضع لتدريبات خاصة ، وله أسلحة خاصة به .
(٢) ولا بد فيه من السرية والتخفي حتى يكون ناجحاً وبالغاً غايته ، والسرية تكون في كل مراحله أو بعضها .
(٣) يقوم به أشخاص صالحون له حسب مواصفات معينة .
(٤) الغالب فيه هلاك القائم به وخصوصاً في الأماكن الخطرة ، وذلك موضوع في الحسبان دائماً .
(٥) يؤدي الفرد الواحد فيه ما تؤديه فصيلة من الجيش أو أكثر من فصيلة غالباً .
(٦) تقليل خسارة الفدائيين وتكثير خسارة الأعداء .
(٧) قد يكون الفدائي ممن يعيشون بين الأعداء ويؤاكلونهم ويشاركونهم الحياة العامة أو الخاصة .
(٨) يلقي الرعب في قلوب الأعداء ويجعلهم يعيشون في قلق وحيرة .
(٩) يستطيع أن يدمر اقتصاد الأعداء بأقل خسارة .

(١٠) يمكن مع شدة التخفي والتمويه إبعاد المسؤولية عن دولة معينة ، أو جبهة محددة فلا يستطيع العدو أن يجد المبرر للاعتداء على تلك الدولة أو الجبهة .

وقد يقوم بالأعمال الفدائية أفراد من الجيوش النظامية أثناء معارك هذه الجيوش ، وقد يقوم بها أفراد لا صلة لهم بالجيوش النظامية ولا تربطهم بها رابطة ، وقد تحميهم الدولة التي ينطلقون منها أو يأوون إليها ، وقد يكون حكام هذه الدولة حجر عثرة في سبيل الأعمال الفدائية ، وما من بلد في العالم الحديث أو القديم إلا ووجد فيه هذا العمل الفدائي حين اعتدى عليه معتدٍ أجنبي .

وجميع البلاد التي استعمرت في العصر الحديث لم تتخلص من الاستعمار والاستعباد الأجنبي إلا على يد هؤلاء الفدائيين .

والعمل الفدائي يخضع في جميع أحكامه للأحكام الإسلامية الخاصة بحرب الأعداء وكيدهم والنكاية فيهم ، وقد مر أكثرها .



حكم المغامرة القاتلة

الأعمال الفدائية في روحها وجوهرها خطرة للغاية ، والأصل في من يقوم بها ألا يفكر في النجاة منها أساساً ، بل الأساس هو القتل ، فإن حدثت نجاة فهي أمر نادر وغير محسوب إلا في حالات معينة ، فما هو التكييف الشرعي لهذا العمل الفدائي الخطر ؟ .

والجواب هو أن الغرض من قتال الأعداء إنزال الضرر بهم حتى يخضعوا للإسلام ، وينزلوا على حكم المسلمين ، فأي عمل عمله المسلمون ، وكان يؤدي إلى هذه الغاية ، وداخلاً تحت المأذون فيه شرعاً فإن فعله جائز ، وقد يكون واجباً ، وذلك مثل إلقاء النار عليهم ، وتحريق منازلهم ، وقتل شيوخهم ، وإتلاف زرعهم ومواشيهم عند الضرورة كما سبق .

ومن ذلك قيام الفدائي بعمل فيه خطورة عليه ، أو على غيره من إخوانه مما هو محتمل ولو كان الفدائي يعلم أنه مقتول لا محالة حين يقوم بعمله ، وهذا غير من يقتل نفسه ، فإن الذي يقتل نفسه قتلاً محرماً هو الذي يقتل نفسه بيده كأن يشرب سماً ، أو يطلق الرصاص على نفسه ، أو يقطع شرياناً من شرايينه ، أو يعلق نفسه في حبل يخنقه أو نحو ذلك ، أما المغامر المقاتل فإن قاتله هو عدوه ، كما أنه غامر ليكيد هذا العدو وينزل به الضرر ، فالفرق واضح .

وقد عقد القرطبي فصلاً في هذا الموضوع أنقل إليك أهم ما فيه ، وذلك تعليقاً على قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة (١٩٥) .

قال : اختلف العلماء في اقتحام الرجل الحرب ، وحمله على العدو وحده ، فقال القاسم بن مخيمرة والقاسم بن محمد وعبد الملك من علمائنا : لا بأس أن يحمل الرجل وحده على الجيش العظيم إذا كان فيه قوة ، وكان لله بنية خالصة ؛ فإن لم تكن فيه قوة فذلك من التهلكة . وقيل : إذا طلب الشهادة وخلصت النية فليحمل لأن مقصوده واحد منهم (أي من الكفار) وذلك بيِّن في قوله تعالى :

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ ﴾ .

وقال ابن خويزمنداد : فأما أن يحمل على مائة أو على جملة العسكر أو جماعة اللصوص والمحاربين والخوارج فلذلك حالتان : إن علم وغلب على ظنه أن سيقتل من حمل عليه وينجو فحسن ، وكذلك لو علم وغلب على ظنه أن يُقتَل ولكن سينكي نكاية أو سيُبْلى أو يؤثر أثراً ينتفع به المسلمون فجائز أيضاً . وقد بلغني أن عسكر المسلمين لما لقي الفرس نفرت خيل المسلمين من الفيلة فعمد رجل فصنع فيلاً من طين وأنَّس به فرسه حتى ألفه ، فلما أصبح لم ينفر فرسه من الفيل فحمل على الفيل الذي كان يَقْدَمها ، فقيل له : إنه قاتلك . فقال : لا ضير أن أقتل ويفتح للمسلمين . وكذلك يوم اليمامة لما تحصنت بنو حنيفة بالحديقة ، قال رجل (وهو البراء بن مالك) ضعوني في الحجفة (ترس من الجلود) وألقوني إليهم ، ففعلوا وقاتلهم وحده وفتح الباب .

قلت ومن هذا ما روى أن رجلاً قال للنبي ﷺ أرأيت إن قُتلت في سبيل

الله صابراً محتسباً؟ قال: « فلك الجنة » فانغمس في العدو حتى قتل، وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أُفْرِدَ يوم أُحُد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما رَهِقوه قال : « من يردهم عنا وله الجنة ؟ » أو « هو رفيقي في الجنة » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم رهِقُوه أيضاً (لحقوه واجتمعوا عليه) فقال : « من يَرُدُّهم عنا وله الجنة » أو « هو رفيقي في الجنة » فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتِل ، فلم يزل كذلك حتى قتِل السبعة ، فقال النبي ﷺ : « ما أنصفْنا أصحابَنا » هكذا الرواية « أنصفنا » بسكون الفاء و« أصحابَنا » بفتح الباء ، أي لم ندلهم (أي نرشدهم ونسددهم) للقتال حتى قتلوا ، وروي بفتح الفاء ورفع الباء ، ووجهها أنها ترجع لمن فر عنه من أصحابه والله أعلم . وقال محمد بن الحسن : لو حمل رجل واحد على ألف رجل من المشركين وهو وحده لم يكن بذلك بأس إذا كان يطمع في نجاة أو نكاية في العدو ، فإن لم يكن كذلك فهو مكروه ، لأنه عرض نفسه للتلف في غير مصلحة المسلمين ، فإن كان قصده تجرئة المسلمين عليهم حتى يصنعوا مثل صنيعه فلا يبعد جوازه ، ولأن فيه منفعة للمسلمين على بعض الوجوه ، وإن كان قصده إرهاب العدو وليَعلَم صلابة المسلمين في الدين فلا يبعد جوازه ، وإذا كان فيه نفع للمسلمين فتلفت نفسه لإعزاز دين الله وتوهين الكفر فهو المقام الشريف الذي مدح الله به المؤمنين في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ﴾ .

إلى غيرها من آيات المدح التي مدح الله بها من بذل نفسه . وعلى ذلك يكون حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه متى رجا نفعاً في الدين فبذل نفسه فيه حتى قتل كان في أعلى درجات الشهداء ١ هـ ج ٢ ص ٣٦٣ .

وهذا القدر فيه الكفاية للرد على الجاهلين بأحكام الإسلام ، والمثبطين

للمسلمين ، ودعاة الهزيمة والخذلان ، ومع ذلك أزيدك من الأدلة ومقالات العلماء .

قال في الدر المختار شرح تنوير الأبصار للأحناف ج ٣ ص ٢٢٢ : إذا علم أنه يُقتَل يجوز له أن يقاتل بشرط أن يُنكي في العدو وإلا فلا .

وقال الشوكاني تعليقاً على حادثة العشرة الذين كان عاصم بن ثابت رئيساً عليهم ، وكانوا ذاهبين بأمر رسول الله ﷺ لدعوة قوم إلى الله وتعليمهم الإسلام ، فأحاط بهم مائة رجل ليقتلوهم فرموهم بالنبل فقتلوا سبعة منهم وبقي ثلاثة هم خبيب بن عدي ، وزيد بن الدَّثِنَة ورجل آخر ، فأسرهم القوم فلما أحس الرجل الآخر بغدرهم وأنهم لن يتركوه حراً قال : والله لا أصحبكم إن لي في هؤلاء (يعني القتلى) لأسوة فجرَّرُوه وعالجوه على أن يصحبهم فأبى فقتلوه ، الخ » دل الحديث على أنه يجوز لمن لا طاقة له بالعدو أن يقاتل حتى يقتل ، كما يجوز له أن يستأسر (أي يرضى بالأسر) ج ٧ ص ٢٦٩ .

وهؤلاء حين قاتلوا كانوا مدركين أنهم لا طاقة لهم بهؤلاء الأعداء ، كما أن الصحابي الذي امتنع عن الذهاب معهم بعد الأسر كان يعلم أنه مقتول لا محالة بدليل قوله السابق ، فالأدلة متظاهرة على ذلك والحمد لله .

والحديث الذي ذكرت خلاصته رواه أحمد والبخاري وأبو داود .

وقضية القتال في كثير من أحوالها هي قضية استعداد للقتل وتعرض له عن كره أو عن رضا ، فمن ألقى بنفسه في الهلاك لصالح دينه أو لصالح المسلمين فقد فدى دينه وإخوانه بنفسه وذلك غاية التضحية وأعلاها ، وكم للمسلمين الأوائل من مواقف مشهودة كلها تضحية وفداء ، وبذلك تستطيع أن تجيز ما يعمله الفدائي المسلم في عصرنا هذا من أعمال يذهب هو ضحيتها بعد أن يكون قد نكل بالعدو وقتل ودمر ، وذلك مثل :

إغراق شفينة بمن فيها من الأعداء وهو معهم .

احتلال فندق لقتل من فيه من المقاتلين ، وهو يعلم أنه يقتل معهم .

وضع المتفجرات في معسكر ، أو في مصنع حربي ، أو في إدارة عسكرية للقضاء على من فيها وهو يعلم أنه لا نجاة له ، إلى آخر مثل هذه الأمور .

ولكن لا يجوز أن يلتف بحزام ناسف لينسف نفسه ومن بجواره ، والفرق أن الأصل في الحالة الأولى أنه يقتل عدوه ، وجاء قتله تبعاً لذلك ، ولذلك لو استطاع الهروب من القتل والنجاة بعد التفجير وجب عليه ذلك .

أما الحالة الثانية فالأصل فيها قتل نفسه أولاً ليقتل غيره ، وقد لا يقتل هدا الغير لسبب من الأسباب ، وإقدامه على قتل نفسه إبتداء لا يحل في مثل هذه الظروف .



هل يقتل المسلم نفسه ليغيظ عدوه ؟

الاصل في قتلِ النفس أنه حرام من الكبائر لقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كانَ بِكُمْ رَحِيماً ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَاناً وَظُلْماً فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَاراً وَكانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ﴾ النساء (٢٩ ، ٣٠) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ** » قيل : **وما هن يا رسول الله ؟ قال :** « **الشركُ بالله ، وقتلُ النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والسحرُ ، وأكلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتَولِّي يومَ الزَّحْف ، وقذف المحصَنَاتِ ، الغافلات المؤمنات** » رواه البخاري ومسلم . وقتل النفس المذكور في الحديث يعم من قتل غيره ومن قتل نفسه .

وفي الصحيحين من حديث الحسن عن جُندب بن عبد الله البَجَلِيِّ قال : قال رسول الله ﷺ : « **كان رجلٌ ممن كان قبلَكُمْ ، وكان به جُرْحٌ ، فأخذَ سكيناً نَحَرَ بها يَدَه ، فَمَا رَقَأَ الدَّمُ حتى مات ، قال الله عز وجل : عبدي بادَرَني بِنَفْسِهِ (أي سبقني بقتل نفسه قبل أن يعرف قضاء الله فيه) حرَّمْتُ عليه الجنة** » .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **من قَتَلَ نَفْسَهُ بحدِيدَةٍ فحدِيدَتُهُ في يَدِهِ يَجَأُ (يشق) بِهَا بَطنَه يومَ القِيَامَةِ في نارِ جَهَنَّم خالِداً**

مخلداً فيها أبداً ، ومن قتل نَفْسَهُ بِسُمٍ فَسمُّهُ فِي يَدِهِ يتحساهُ في نارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فيها أبداً » رواه الشيخان .

وجاء في حديث رواه الجماعة « **من قتل نفسه بشيءٍ عُذِّبَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ** » .

فالآية والأحاديث أدلة صريحة قوية على أن قاتل نفسه يعذب يوم القيامة عذاباً شديداً طويلاً وهذا القتل يعتبر تعدياً لحدود الله ، وظلماً عظيماً للنفس التي حرم الله قتلها إلا لأسباب شرعها الله ،ويعتبر فاعله ساخطاً على قضاء الله وقدره غير راض بحكم الله فيه ، لذلك أسرع فتخلص من ألمه بقتل نفسه ، وهذا النوع هو المسمى بالانتحار في عصرنا هذا ، وحرمته لا شك فيها ولكن هناك حالات يقع فيها المقاتل والفدائي تحت أيدي عدوه فيقوم عدوه بتعذيبه أشد أنواع التعذيب ، سواء بالإحراق بالنار ، أو بتقطيع أجزاء من جسمه ، أو بنفخه ، أو بتعليقه في خطاطيف مدلاة من السقف من رجليه بحيث يكون رأسه إلى أسفل ، أو بتسليط الكهرباء عليه من وقت لآخر . . . إلى آخر هذه الأنواع التي صارت سمة كلاب العصر الحديث والتي اخترعها النازيون والشيوعيون ، ونفذها جميع كلاب البشر الذين لا إنسانية عندهم ، ولا رحمة في قلوبهم .

فما الحكم لو وقع إنسان تحت طائلة هذا العذاب ، هل يحق له أن ينتحر أم لا ؟ .

الجواب : الذي أراه في هذا الموضوع الخطير أخذاً من النصوص ومن أقوال العلماء هو :

(١) أن الانتحار إن كان له مبرر أصيل وقوي ، ويتصل بأمر يخص المسلمين وينفعهم ، وبدونه يحصل الضرر للمسلمين فإنه حينئذ يكون جائزاً .

وذلك كأن يعذب إنسان من أجل الإفضاء بأسرار تتعلق بمواقع الفدائيين ، أو بأسمائهم ، أو بكشف خطط الجيش الإسلامي أو بمواقع الذخيرة ، أو

السلاح ، إلى آخر ما يعتبر علم العدو به خطراً على الجيش الإسلامي ، أو على أفراد من المسلمين ، أو على حريمهم ، أو ذراريهم ، ويرى أنه لا صبر له على التعذيب وأنه مضطر أنه يفضي بهذه الأسرار ، أو يعلم أن الأعداء يحقنونه بمادة مؤثرة على الأعصاب بحيث يبوح بما عنده من أسرار تلقائياً ، وبدون تفكير ، أو شعور بخطورة ما يقول .

ويشهد لذلك أقوال العلماء فيمن ألقى بنفسه على الأعداء وهو يعلم أنه مقتول لا محالة ، ولكنه يرى أن في ذلك خيراً للإسلام ، أو للمسلمين ، وحالتنا هذه أهم وأخطر .

(٢) أما إذا كان الانتحار بسبب أنه تأكد من أنهم يقتلونه ، ولكنهم يعذبونه قبل ذلك تنكيلاً به ، وإغاظة للمسلمين ، فإنه إن انتحر في هذه الحالة فإن انتحاره يكون حراماً ولكنه لا يكون كبيرة من الكبائر ، ولا يبعد جوازه فقد ذكر في المغنى لابن قدامة جـ ١ ص ٣٨٩ أن المحاربين لو ألقي في مركبهم نار فاشتعلت فيه وأيقنوا بالهلاك فإن لهم أن يبقوا في المركب حتى يموتوا ، ولهم أن يلقوا بأنفسهم في الماء ليموتوا غرقاً ، وفي هذا قال أحمد بن حنبل رحمه الله « كيف شاء صنع » وقال الأوزاعي : هما موتتان فاختر أيسرهما ، وعنه رأي آخر أنه يلزمهم البقاء في المركب لأنهم إذا رموا أنفسهم كان موتهم بفعلهم وإذا أقاموا في المركب كان موتهم بفعل غيرهم ا هـ ملخصاً .

وفي قصة الصحابي الذي كان مع عاصم بن ثابت ورفضه الأسر وهو يعلم أنهم قاتلوه بسبب هذا الرفض ما يشهد لذلك ، وإن كان لم يقتل نفسه بنفسه وإنما قتلها بيد عدوه ، والواقع أن مثل هذه الحالات لا يعتبر المسلم فيها ، قاتل نفسه ، وإنما قاتله هو عدوه ، لأن عدوه هو الذي تمكن منه ، وهو الذي يعذبه ، وهو الذي لا يتركه حتى يقتله ؛ وهذا رأيي في الموضوع ، لأنه لا نص فيه ، ولم أر فيه فتوى لأحد من العلماء ، وربما كان هناك فتوى لم أرها .

نماذج لفدائيين في الصدر الأول
قتل زعيم من زعماء اليهود (أبي رافع)

كان ذلك على الراجح في شهر رمضان من السنة السادسة للهجرة الشريفة ، وهو يوافق ديسمبر سنة ٦٢٧ م وكانت العملية موجهة ضد أبي رافع ، وهو عبد الله ، أو سلام بن أبي الحقيق اليهودي ، وكان هذا الرجل زعيماً مرموقاً في قومه اليهود المقيمين بخيبر بعد إجلاء بني النضير ، وكانت له يد كبرى مجرمة في تحـزيب الأحزاب وتجميع الكفار من أجل القضاء على المسلمين وعلى دولتهم الناشئة ، وعلى رسولهم المختار من عند الله ، ولما انهزم الأحزاب ، وقتل يهود بني قريظة ، ازدادت ضراوته وشراسته ضد المسلمين ، وعاد لتأليب الكفار عليهم فأخذ يحرض عليهم بني فزارة والقبائل الأخرى ، فأراد الرسول ﷺ أن يريح المسلمين منه بدون إعلان تعبئة عامة ، وبدون عمل معركة حربية تستوجب أموراً كثيرة ، فاختار عبدَ الله بن عَتِيك . وعبدَ الله بن أُنَيْس ، وأبا قتادة ، والأسود بن خزاعي ، ومسعود بن سنان الأسلمي ، وأمرهم بالخروج لقتل ابن أبي الحُقَيْق ، وجعل أميرهـم عبد الله ابن عتيك ، وكلهم من الخزرج ، ويقال إنهم هم الذين اجتمعوا وقرروا قتل هذا اليهودي بعد استئذان النبي ﷺ ، فأذن لهم في ذلك ونهاهم أن يقتلوا وليداً أو امرأة ، فذهبوا إلى خيبر فكمنوا هناك ، واستخفوا عن الأعين ، ودرسوا الموقع والحصن الذي فيه طلبهم دراسة كافية ، ثم رتبوا الهجوم بطريقة هي غاية في البراعة والجرأة والذكاء ، ذلك أن الأبنية في خيبر كانت

كل مجموعة منها محاطة بسور عظيم ، وفيها حصون يتحصنون فيها وقت الحرب والهجوم عَليهم ، وكانت أبواب الأسوار تغلق ليلاً بعد أن يدخل الجميع ، ولكل باب حارس وبواب ، فلما ذهب المسلمون الخمسة كمنوا حتى هدأت الرِّجل وخفت الحركة ، ثم تحركوا حيث لا يراهم أحد نحو منزل أبي رافع ، وكان في حصن منيع مرتفع ، فلما دنوا منه بعد غروب الشمس وعودة الناس بمواشيهم قال عبد الله بن عتيك أمير المجموعة لإخوانه مكانكم ، فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلي أدخلَ الحِصن ، وعند الظلام صعد إليه ، وكان عبد الله بن عتيك يعرف اليهودية ، والظاهر من روايات كثيرة أن إخوانه كانوا معه داخل الحصن ، فلما صعد دق الباب فرأته امرأة أبي رافع فقالت ، من أنت ؟ قال : جئت أبا رافع بهدية ، ففتحت له وقالت: ذاكَ صاحبك . فلما رأت السلاح أرادت أن تصيح ، فأشار إليها بالسيف فسكتت . قال : قلت : يا أبا رافع لأعرف موضعه ، فقال : من هذا ؟ فأهويت نحو الصوت ، فضربته ضربة وأنا دهش فما أغنت شيئاً ولم أقتله ، وصاح أبو رافع فخرجت منَ البيت ، وكمنت غير بعيد ، فقالت امرأته : يا أبا رافع هذا صوت عبد الله بن عتيك قال : ثَكَلَتْك أمك ، وأين عبد الله ابن عَتِيك ؟ قال : ثم دخلت عليه كأني أعينهُ وغيرت صوتي فقلت : ما هذا الصوت يا أبا رافع ؟ قال : لأُمِّكَ الويلُ !!! إن رجلاً في البيت ضربني قبلُ بالسيف ، فضربته ضربة أثخنته ولم أقتله ، فصاح وقام أهله وصاحت امرأته ، ثم وضعت ظُبَةَ السيف (طرفه) في بطنه حتى دخل في ظهره وسمعت صوت العظم فعرفت أنه قتل .

وفي الطبري « ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها السيف ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده » .

وهذا يدل على أنهم دخلوا كلهم ، وأنهم جميعهم اشتركوا مع ابن عتيك .

قال ابن عتيك فجعلت أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض ، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي ، فعصبتها بعمامة ـ وكان عبد الله بن عتيك سيء البصر ـ ولما علم ابن عتيك أنه قتل أبا رافع أخبر رسول الله ﷺ .

ووقع في بعض الروايات أن الذي قتل أبا رافع عبد الله بن أنيس ، والصواب ما في البخاري أن الذي قتله هو عبد الله بن عتيك ، وكذلك جاء في أسد الغابة .



عبد الله بن أُنَيْس يقتل أحد زعماء الكفار

كان سفيان بن خالد الهُذَلِي اللَحياني قد أخذته حمية الجاهلية ، وكره أن ينصر الله رسوله ، وأن يظهر الإسلام على الدين كله ، وكان له في العرب كلمة ، وفي قبيلته زعامة ، فأراد أن يستغل ذلك في القيام بحرب يشنها على الرسول وعلى المؤمنين معه ، فنزل عُرَنَة وما حولها ومعه ناس من أتباعه ، وأخذ يجمع الناس لحرب المسلمين ، وانضم إليه بشر كثير من أفناء العرب ونزاع القبائل ممن لا تجمع بينهم رابطة سوى العداء لمحمد وصحبه بسبب الإسلام وكان ذلك في السنة السادسة للهجرة ، وكان لسفيان هذا وجاهة في العرب وهيبة ، كما كانت شجاعته وفروسيته وشدة بأسه ترهب الناس وتخيفهم ولولا شخصيته هذه ما تجمع أحد في هذه الجهة لحرب المسلمين بعد أن منيت قريش بخيبة أمل كبيرة بعد غزوة الأحزاب .

لذلك أراد الرسول ﷺ أن يتخلص من هذا الزعيم المغرور المتعجرف بدون تعبئة عامة ، وبدون انتظار لقدومه هو ومن معه ، وهو يعلم أن قتل سفيان ينهي الأمر كله .

لذلك اختار له فدائياً يقوم بقتله ويريح الناس من شره ، ووقع اختيار الرسول ﷺ على صحابي جليل من الأنصار هو : عبد الله بن أنيس الجُهَني ، وقال له حين أرسله لقتله : انتسب إلى خزاعة ، وذلك ليطمئن إليه سفيان ،

فقال عبد الله بن أنيس : انْعَتْه لي (صفه لي) حتى أعرفه ، قال إذا رأيته هِبْتَه وفرِقْتَ منه وذكرت الشيطان : وأيةُ (علامة) ما بينك وبينه أن تجد له قُشَعْريرَةً إذا رأيته ، وأذن له أن يقول ما بدا له (أي يكذب للحيلة) وكان أنيس شجاعاً جريئاً لا يهاب الرجال ، فأخذ سيفه وخرج حتى إذا كان ببطن عرنة لقي سفيان يمشي ، ووراءه الأحابيش ، فهابه وعرفه بالنعت الذي نَعَتَ له رسول الله ﷺ ، وقد دخل وقت العصر ، فصلى وهو يمشي يومىء إيماء برأسه ، فلما دنا منه قال : من الرجل ؟ قال : رجل من خزاعة ؛ سمعت تجمعك لمحمد فجئت لأكون معك . ومشى معه يحادثه وينشده ، وقال : عجباً لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث ، فارق الآباء وسفه أحلامهم ، فقال له سفيان : لم يلق محمد أحداً يشبهني ، وسارا حتى انتهيا إلى خبائه وتفرق عن سفيان أصحابُه . فقال : هلم يا أخا خزاعة ، فدنا منه أنيس وجلس عنده حتى نام الناس ، فقتله وأخذ رأسه ، واختفى في غار ، والخيل تطلبه في كل وجه ، ثم سار الليلَ وتوارى في النهار إلى أن قدم المدينة ورسول الله ﷺ في المسجد ، فقال : أفلحَ الوجهُ ! قال : أفلح وجهك يا رسول الله ! ووضح الرأس بين يديه ، وأخبره الخبر ، فدفع إليه الرسول ﷺ عصا وقال له : « تَخَصَّرْ بهذه في الجنة فإن المتخصرين في الجنة قليل » وكانت عنده حتى أدرجت في أكفانه بعد موته . .

والمراد بالتخصر بالعصا هنا : أن يحملها ويشير بها كما يفعل الملوك ١ هـ ملخصاً من إمتاع الأسماع للمقريزي ص ٢٥٤ .



أبو بصير أمير الفدائيين

في العام السادس للهجرة خرج رسول الله ﷺ ومعه ألف وخمسمائة من أصحابه في شهر ذي القعدة قاصدين البيت الحرام للعمرة ، فلما وصلوا إلى الحديبية ، (وهي قريبة من مكة ، بعضها في الحل وبعضها في الحرم) صدته قريش عن البيت الحرام وعملت معه صلحاً بمقتضاه تكون بين الفريقين هدنة مدتها عشر سنوات ، ومن أسلم من قريش لا يلحق برسول الله ، ومن كفر من المسلمين له أن يلحق بالمشركين ، وللمسلمين أن يأتوا إلى البيت الحرام معتمرين العام القابل إلخ . . وأثناء الاتفاق على الشروط وقبل توقيع العقد أقبل أبو جندل مسلماً هارباً من كفار قريش ومن سجن أبيه وعذابه ، وأراد الانضمام إلى المسلمين، وكان أبوه هو الذي يتولى رياسة الوفد المفاوض ، (وهو سهيل بن عمور) فأبى أن يوقع العقد حتى يرد ابنه إلى الكفار ويتسلموه ، وفعلاً رده رسول الله ﷺ وقال له : « **يا أبا جَنْدَلٍ . اصْبِر واحتَسِبْ . فإن الله جاعلٌ لك ولمن معك فرجاً ومخْرجَاً ، إنا قد عَقدْنا بيْنَنَا وبينَ القومِ صُلْحاً ، وأعطيناهم على ذلك عهداً ، وإنا لا نَغْدِر** » .

ولما قدم رسول الله ﷺ المدينة عائداً من صلح الحديبية جاءه رجل آخر فاراً بدينه من كفار قريش هو أبو بَصِير ـ عتبة بن أسيد ـ وكان قد سار سبعاً على قدميه حتى وصل إلى المدينة ، لكن الأخنس بن شرَيق أرسل وراء أبي بصير

كتاباً إلى رسول الله ﷺ يدعوه فيه إلى رد أبي بصير وفاء بالعهد والعقد ، وحمل الكتاب رجل من بني عامر اسمه « خُنَيْسُ بن جابر » وأرسل مع خنيس مولىً يقال له « كوثر » فقدما بعد أبي بصير بثلاثة أيام ، فقرأ أبي بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ ، وفيه المطالبة برد أبي بصير حسب الشرط ، فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهما ودفعه إليهما ، فقال : يا رسول الله . تردني إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟!! فقال : يا أبا بصير . إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصلحُ لنا في ديننا الغدر ، وإن الله جاعلٍ لك ولمن معك من المسلمين فرَجاً ومخرَجاً » . فقال : يا رسول الله . أَتردُّني إلى المشركين ؟!! قال : انطلق يا أبا بصير ، فإن الله سيجعل لك مخرجاً . ودفعه إلى العامري وصاحبه . فخرج معهما ، وجعل المسلمون يسرُّون إليه : يا أبا بصير . أبْشِرْ فإن الله جاعل لك مخرجاً ، والرجل يكون خيراً من أَلفِ رَجُل ، فافعل وافعل ، يأمرونه باللذين معه ، فخرج مع الكافرَين حتى انتهيا به إلى ذي الحليفة فصلى أبو بصير في مسجدها صلاة الظهر ركعتين لأنه مسافر ، وكان معه زاد له من تمر يحمله من المدينة ، زوده به المسلمون ، فأكل منه ، ودعا العامري وصاحبه ليأكلا معه ، فقدما سُفْرة فيها كسرَ وأكلوا جميعاً ، وقد علق العامري سيفه في الجدار ، وتحادثوا . فقال أبو بصير : يا أخا بني عامر : ما اسمك ؟ قال : خنيس . قال : ابن من ؟ قال : ابن جابر قال : يا أبا جابر أصارمٌ سيفُك هذا ؟ قال : نعم قال : ناولنيه أنظر إليه إن شئت ، فناوله ، فأخذ أبو بصير بقائم السيف ، والعامري ممسك بالجفن ، فعلاه به حتى قتله وخرج كوثر هارباً يعدو نحو المدينة وأبو بصير في أثره ، فأعجزه حتى سبقه إلى رسول الله ﷺ ، وبينما رسول الله جالس في أصحابه بعد العصر إذ طلع عليه كوثر يعدو ، فقال : هذا رجل قد رأى ذعراً !! فأقبل كوثر حتى وقف فقال له رسول الله ﷺ : وَيْحَك مالك ؟ قال : قَتل صاحبُكم صاحبي ، وأفلتُّ منه ولم أكد ! وأقبل أبو بصير فأناخ بعير العامري بباب المسجد ودخل متوشحاً سيفه ، فقال : يا رسول الله : وفت ذمتك وأدى الله عنك وقد أسلمتني بيد

العدو، وقد امتنعت بديني من أن أُفْتَنَ أو يُعبَث بي أو أكذِّب بالحق ، **فقال** ﷺ : « **وَيل أمِّه مَحِشُّ حَرْبٍ (أي مشعل نَار الحرب ومحركها) لو كان معه رجال** » **ثم قال لكوثر : ترجع به إلى أصحابك ؟ فقال : يا محمد : مالي به قوة ولا يدان ، فقال** ﷺ **لأبي بصير : « إذهب حيث شئت »** .

فخرج وسار راجعاً حتى أتى مكاناً يسمى « العيصَ » فنزل ناحية منه على ساحل البحر على طريق قوافل قريش إلى الشام ، ولم يكن معه إلا كف تمر ، فأكل منه ثلاثة أيام . وأصاب حيتانا قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها ، فلما أقام بِهذا المكان علم بشأنه المسلمون الذين حبسهم الكفار بمكة ، وذلك لأن عمر بن الخطاب أرسل إليهم : بقول النبي ﷺ « لو كان معه رجال » فخرجوا إلى أبي بصير سراً حتى انضم إليه قريب من سبعين مسلماً ، منهم أبو جندل ابن سهيل بن عمرو ، وكونوا بالعيص معسكراً للفدائيين ، وهو أول معسكر من هذا النوع في الإسلام ـ وضيقوا على قريش غاية التضييق ، فكانت لا تمر قافلة للكفار إلا قتلوا منها ، وأخذوا من أموالها ، حتى مر بهم ركب يريدون الشام ، معهم ثمانون بعيراً ، فأخذوها وما عليها ، وكان أبو بصير أميراً عليهم ، وهم الذين أمَّروه واختاروه لذلك ، فكان يصلي بهم ويقرئهم القرآن ، ويُجَّمَعَهم ـ يصلي بهم الجمعة ـ وهم له سامعون مطيعون ، فغاظ قريشاً صنيع أبي بصير وشق عليهم ، فكتبوا إلى رسول الله يسألونه بأرحامهم أن يستقدم أبا بصير ومن معه إلى المدينة ، ليكفوا عن إيذاء قريش والتعرض لها ، فكتب ﷺ إلى أبي بصير أن يقدم بأصحابه معه ، فجاءه الكتاب وهو يموت ، فجعل يقرأه ويبكي ، ومات وهو في يده فدفنوه مكانه ، دفنه أبو جندل ، ثم قدم أصحابه إلى المدينة ، وكان ذلك نصراً كبيراً للمؤمنين بسبب هؤلاء الفدائيين المجاهدين .



فدائي يجمع أسرار الكافرين

عن عبد العزيز أخي حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال : ذكر حذيفة رضي الله عنه مشاهدهم مع رسول الله ﷺ فقال جلساؤه : أما والله ! لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا ، فقال حذيفة : لا تتمنوا ذلك . لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافّون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا ، وقريظة واليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشدُّ ظلمة ولا أشد ريحاً منها . في أصوات ريحها أمثال الصواعق ، وهي ظلمة ما يرى أحدنا أصبعه ، فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ ويقولون : إن بيوتنا عورة(سهلة لمن يريدها) وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له ، ويأذن لهم ويتسللون (يذهبون بالتدريج خفية) ونحن ثلثمائة ونحو ذلك ، إذ استقبلنا رسول الله ﷺ رجلاً رجلاً حتى أتى إليَّ وما علَّي جنة (وقاية) من العدو ولا من البرد إلا مِرط (كساء من صوف أو خز) لامرأتي ما يجاوز ركبتي . قال : فأتاني وأنا جاثٍ (جالس) على ركبتي ، فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة ، فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت للأرض فقلت : بلى يا رسول الله ـ كراهية أن أقوم ـ فقمت فقال : إنه كائن في القوم خبر فأتني بخبر القوم . قال : وأنا من أشد الناس فزعاً وأشدهم قُرًا (برداً) قال : فخرجت فقال رسول الله ﷺ **« اللهم احفظْهُ مِنْ بَينْ يدَيْه ومن خلفه وعن يَمينِه وعن شِمالِه ومن فوقِه ومن تَحتِه ، قال : فوالله ! ما خلق الله فزعاً ولا قُرّاً في جو فيَّ إلا خرج من جوفي**

فما أجد فيه شيئاً . قال : فلما وليت قال : « يا حذيفة : لا تحدِثنَّ في القوم شيئاً حتى تأتيني » . قال : فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم (أسمر) ضخم يقول بيديه على النار ، ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيل الرحيل . . . ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك فانتزعت سهماً من كنانتي (جعبة السهام) أبيض الريش فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار . فذكرت قول النبي ﷺ : « لا تحدثَنَّ فيهم شيئاً حتى تأتيني » فأمسكت ورددت سهمي إلى كنانتي ، ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت في العسكر ، فإذا أدنى (أقرب) الناس مني بنو عامر يقولون : يا آل عامر : الرحيل ، الرحيل ، لا مقام لكم . وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبراً ، فوالله ! إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم والريح بها تضرب ، ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ . فلما انتصف بي الطريق أو نحو ذلك إذا أنا بنحو من عشرين فارساً ـ أو نحو ذلك ـ مُعتَمِّين (لافّين رؤوسهم بالعمائم) فقالوا : أخبر صاحبك أن الله قد كفاه . فرجعت إلى رسول الله ﷺ ، وهو مشتمل في شملة يصلي ، فوالله ! ما عدا أن رجعت راجعني القُر وجعلت أقرْقِف (أرجف) فأوما إليَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي : فدنوت منه ، فأسبل عليَّ شملته ـ وكان رسول الله ﷺ إذا حز به أمر (اشتد به) صلى ـ فأخبرته خبر القوم ، أخبرته أني تركتهم يرحلون . قال : وأنزل الله تعالى :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا ﴾ .

إلى آخر الآيات . أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو داود كما أخرجه مسلم بطريق آخر ١ هـ من حياة الصحابة جـ ١ ص ٤٨٧ .



أحكام تأمين العدو

عن أم هانىء قالت : ذهبت إلى رسول الله ﷺ عامَ الفتح ، فوجدته يغتسل وفاطمةُ ابنته تستره بثوب ، فسلمت عليه . فقال : من هذه ؟ فقلت أنا أمُّ هانىء بنتُ أبي طالب ، فقال : مرحبا يا أمّ هانىء ، فلما فرغ من غُسْله قام يصلي ثمانِيَ ركعات ملتحفاً في ثوْبٍ واحد ، فلما انصرف قلتُ : يا رسول الله زعم ابنُ أمي عليٌّ بنُ أبي طالب أنه قاتل رجلاً قد أجَرْتُه ، فقال رسول الله ﷺ : « أجَرْنا مَنْ أَجَرْتِ يا أمَّ هانىء » قالت : وذلك ضُحىً ، رواه البخاري ومسلم .

وعن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «**ذِمةُ المسلمين واحدةٌ يَسْعَى بها أدْنَاهُمْ**» رواه أحمد وأبو داود والنسائي ،

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال : «**إن المرأةَ لتأخُذُ لِلْقَومِ يعني تُجِير على المسلمين**» رواه الترمذي وقال : حسن غريب .

وعن أنس عن النبي ﷺ قال : «**لِكُل غادرٍ لواءٌ يومُ القيامةِ يُعْرَفُ بِه**» متفق عليه .

دلت الأحاديث السابقة على ما يأتي :

١ ـ لكل حاكم عام من حكام المسلمين أن يؤمن عدو المسلمين سواء كان هذا العدو فرداً أو جماعة أو دولة وأمة ، وكذلك كل من يقوم مقام الحاكم العام له هذا الحق .

٢ ـ يتشرط أن يكون الأمان لصالح المسلمين ، وإلا فهو حرام ، لأنه ناشىء من أصل هو حرب الأعداء .

٢ ـ يجوز لأحد المسلمين أن يجير عدو المسلمين ويعطيه الأمان ، وعلى المسلمين أن يحترموا هذا الأمان وينفذوه ، لأن ذمة المسلمين واحدة ويسعى بها أدناهم . (أقلهم) . ويشترط فيمن يعطي الأمان أن يكون بالغاً عاقلاً مسلماً ، فلا يعطيه صبي ولا مجنون ولا كافر والخلاف في شأن أمان المرأة لا يعتبر فقد قال إبن المنذر : أجمع أهل العلم على جواز أمان المرأة إلا شيئاً ذكره عبد الملك بن الماجشون صاحب مالك ، لا أحفظ ذلك عن غيره . وأما العبد فأجاز الجمهور أمانه سواء قاتل مع المسلمين أم لم يقاتل ، واشترط أبو حنيفة في تنفيذ أمانه أن يكون ضمن الجيش المقاتل .

٤ ـ من أمَّن كافراً ثم غدر به هو ، أو غدر به أحد من المسلمين ، وهو يعلم الأمان فإنه يعتبر مذنباً وعاصياً وخائناً وغادراً ينصب له لواء غدر يوم القيامة يعرف به ويفتضح على رؤوس الأشهاد ، لأن فعله هذا يسيء الى الإسلام ، وإلى الأخلاق الإسلامية العالية .

٥ ـ إن كان العدو رسولاً جاء ليبلغ رسالة لم يجز لنا قتله سواء أمنه أحد أم لا ، لأن رسالته تأمين له ، وهذه قاعدة مقررة في الأمم من قديم وأقرها الإسلام . فعن ابن مسعود قال : جاء ابن النوَّاحة وابن أُثال رسولا مسيلمة الى النبي ﷺ فقال لهما : أتشهدان أنيّ رسولُ الله ؟ قالا : نشْهَدُ أن مُسَيْلِمَة رسولُ الله . فقال رسول الله ﷺ : «**آمَنْتُ بالله ورسوله ، لو كُنْتُ قاتِلًا رسولاً لقتلتكما** ، قال عبدَ الله : فمضت السنَّة أن الرسلَ لا تُقْتل» رواه أحمد والحاكم وأخرجه أبو داود والنسائي مختصراً .

٦ ـ من أعطيناه الأمان بسبب أنه رسول أو تاجر ، أو طالب صلح أو هدنة أو

حامل جزية أو غير ذلك من الأسباب فإن له الأمان حتى يرجع الى داره ، فإن آذاه أحد من المسلمين جوزي على ذلك اما إن قتله أحد فإن الواجب على المسلمين دفع ديته ، ومثلهم من طلب الأمان ليسمع كلام الله ويتعرف على الإسلام ، فإن الواجب تأمينه حتى يعود إلى داره وذلك لقوله تعالى :

﴿ وإنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَعْلَمُوْنَ ﴾ التوبة (٦) .

٧ ـ قال صاحب المغنى : ويصح أمان الأسير إذا عقده غيرَ مُكْرَه لدخوله في عموم الخبر ولأنه مسلم مكلف مختار فأشبه غير الأسير وكذلك أمان الأجير والتاجر في دار الحرب ، وهذا رأي الحنابلة والشافعي ١هـ جـ ١٠ ص ٤٣٣ .

٨ ـ وقال : ويصح أمان الإمام لجميع الكفار وآحادهم لأن ولايته عامة على المسلمين ، ويصح أمان كل أمير أو حاكم إقليمي لمن كان بإزائه من المشركين ، فأما في حق غيرهم فهو كآحاد المسلمين ، ويصح أمان آحاد المسلمين للواحد والعشرة والقافلة الصغيرة والحصن الصغير ، ولا يصح أمانه لأهل بلد وجمع كثير ، لأن ذلك يفضي إلى تعطيل الجهاد والافتيات على الإمام ، وذلك يلغي هيبة الإمام ويشيع الفوضى ، ويطمع الكفار في المسلمين .

٩ ـ ولا يجوز لأحد أن يعطي الأمان للأسير إلا اذا كان إماماً ، أو أذن له الإمام في ذلك ، والمراد بالإمام الحاكم العام للمسلمين ١ هـ منه ص ٤٣٤ .

١٠ ـ ويجوز أن يكون الأمان للرسول ولمن طلب الأمان مدة معينة أو غير معينة بخلاف الهدنة فإنها لا تجوز إلا مدة معينة ومحددة لأن في جوازها بصورة غير معينة إبطالاً للجهاد ١ هـ منه ص ٤٣٦ مع تصرف . ويكون الأمان بالعبارة والإشارة وكل ما يفهم منه الأمان .

١١ ـ ومن دخل منا دار العدو بأمان من العدو لا يجوز له أن يخونهم في مال أو غيره لأن الأعداء إنما أعطوه الأمان بشرط ألا يخونهم وألا يغدر بهم حتى ولو لم يذكر ذلك لأنه معلوم معنى وإلا ما سمح له العدو بالدخول . وقد قال ﷺ : «**المُسْلِمُون عِنْدَ شُرُوطِهم**» وقال : «**وَلاَ يَصْلُحُ في دِينِنا الغَدْر**» وقد سبق ١ هـ منه ص ٥١٦ .



أحكام الهدنة

الهدنة هي أن يعقد الإمام أو نائبه لأهل الحرب عقدا يوقف بمقتضاه القتال مدة معينة .

١ ـ وقد أجازها أكثر الفقهاء إذا رأى الإمام أن في الهدنة مصلحة للمسلمين ، وآخرون لم يجيزوها إلا عند الضرورة الداعية لأهل الإسلام من فتنة أو غير ذلك ، وقد ثبت أن النبي ﷺ صالح قريشاً عند الحديبية عام ست من الهجرة ، وقال تعالى :

﴿ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ الأنفال (٦١) .

٢ ـ ولا تجوز المهادنة المطلقة ، لأن ذلك معناه إبطال الجهاد ، وترك المجال للكفار ليقووا ويستعدوا ويخونوا كما هو دأبهم الملازم لهم ، فلا بد من أن يكون عقد الهدنة محدداً بزمن معين ، سواء كان هذا الزمن عشر سنين أو أقل أو أكثر ، وبذلك قال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل ، وبعضهم يرى ألا تزيد المدة عن عشر سنوات وهو رأي أبي بكر والشافعي .

٣ ـ ويجوز أن تكون الهدنة بغير مال يأخذه المسلمون من الكافرين كما حدث في صلح الحديبية ، كما يجوز أن تكون بمال ، ولا يجوز أن يشترط في عقد

الهدنة أن يدفع المسلمون مالاً إلا في حالة ضرورة شديدة يخشى فيها استئصال المسلمين ، أو أسرهم أو أسر ذرياتهم ، أو نسائهم ، لأننا نبذل المال لفكاك الأسير فبذله لمنع الأسر أولى .

٤ ـ ولا يجوز أن يعقد عقد الهدنة إلا الحاكم الإسلامي العام أو نائبه، لأنه عقد مع دولة فلا يبرمه إلا حاكم يمثل دولة وهو الإمام ، ولأنه يتعلق بنظر الإمام في مصلحة المسلمين ، ولأنه عقد خطير يمس الدولة كلها فلا يبرمه إلا المسؤ ول العام عن الدولة ، فإن هادنهم غير الحاكم العام لم تصح مهادنته إلا اذا وافق عليها الإمام . ولو دخل أحد من الكفار دارنا نتيجة هذه الهدنة التي عقدها أحد الولاة بدون موافقة الإمام فإننا لا يجوز أن نتعرض له ، لأنه يظن أننا موافقون على الهدنة ، إنما علينا أن نرده الى داره ولا نبقيه في دار الإسلام . واذا عقد الإمام هدنة ثم مات فعلى من بعده الوفاء بها .

٥ ـ ويلزم من عَقْدِ الهدنة أن يحمي الإمام من هادنهم من أذى المسلمين وأهل الذمة الخاضعين للمسلمين ، لأن الإمام آمنهم ممن هم في قبضته وتحت يده كما أمَّن من يحكمهم من هؤلاء الكافرين الذين عقد معهم هدنة ، ومن أتلف من المسلمين أو من أهل الذمة شيئاً خاصاً بالكافرين المعاهدين فعليه ضمانة .

٦ ـ وإذا خاف الإمام نقض العهد منهم جاز له أن يعلمهم بأنه نقض عهدهم لقوله تعالى :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّه لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ **الأنفال** (٥٨) .

وهو إنما يخاف نقضهم بالأمارات والأدلة المتعارف عليها عند الناس .

٧ ـ عقد الهدنة غير عقد الذمة الذي سيأتي ، لأن عقد الهدنة مؤقت وعقد الذمة مؤبد . وعقد الهدنة بعوض أو بغيره ، وعقد الذمة بعوض هو الجزية .

وأهل الهدنة لهم ولايتهم على بلادهم ، أما عقد الذمة فأهله تحت ولاية المسلمين غالباً . وعقدُ الهدنة يكون مع جميع الكافرين ، وعقد الذمة لا يكون مع الوثنيين من العرب في رأى أكثر العلماء .

٨ ـ ولا يجوز أن يشترط الكفار في عقد الصلح رد المرأة إليهم إذا خرجت من عندهم مسلمة ثم لحقت بدار الإسلام ، وذلك لأن المرأة ضعيفة وتخشى فتنتها في دينها ، كما يخشى عليها أن تعيش مع كافر ، كما أنها لا تستطيع الهرب كالرجل ، وقد نهى القرآن عن رد النساء المسلمات إلى الكفار إذا خرجن الى دار الإسلام .



أحكام عقد الذمة

سبق الكلام على الأمان وعلى الهدنة وكلاهما مؤقت غير أن الأمان يكون من أي فرد مسلم حر أو عبد أو ذكر أو أنثى ، أما الهدنة فلا تكون إلا من الإمام أو نائبه ، ولكل منهما أحكامه كما سبق ، أما عقد الذمة فإنه يختلف في سببه كما يختلف في آثاره وإن كان لا يختلف عن عقد الهدنة في أن كلاً منهما لا يعقده إلا الحاكم العام أو من ينوب عنه بإذنه .

سبب عقد الذمة :

سبق أن عرفنا أن الحرب في الإسلام يراد منها إعلاء كلمة الله تعالى سواء كانت حرباً دفاعية أو هجومية . والحاكم أو نائبه حين يحارب أعداء الله حرباً هجومية فإنه يدعوهم إلى الشهادتين والدخول في الإسلام عقيدة وعبادة وأخلاقاً ومعاملة ، فإن هم أجابوا إلى ذلك وأسلموا فهم إخوان لكل المسلمين ولهم وعليهم ما على المسلم لأخيه المسلم من الحقوق، وعليهم ما على كل مسلم من واجبات وسنن وآداب لإخوانه المسلمين .

وإن رفضوا الإسلام طولبوا بدفع الجزية والخضوع للأحكام الإسلامية العامة ، ثم يتركون على دينهم لا يتعرض لهم أحد ، فإن هم أجابوا إلى ذلك وخضعوا له عقد معهم عقد الذمة ، ويسمون بعد العقد ذميين ، ولهم حقوق

أهل الذمة وعليهم واجباتهم كما سيأتي ، فإن رفضوا الاثنين حوربوا وقوتلوا حتى تحسم المعركة الموقف كله .

فقد ظهر لك أن عقد الذمة جاء نتيجة رضاء الكافرين أن يخضعوا لحكم الإسلام وشروطه نحوهم .

كما أنه عقد يلتزم الكفار فيه بدفع مبلغ من المال سنوياً يسمى الجزية .

ودار أهل الذمة تسمى دار إسلام لأنها محكومة باسمه وحاكمها مسلم ، وهو ينفذ الأحكام الإسلامية العامة على أهل الذمة كما سيأتي بخلاف دار الصلح فإنها دار حرب كما كانت مكة بعد صلح الحديبية ولذلك لا صلة لها بالإسلام ؛ بل هي في الغالب مضادة له ومحاربة لولا عقد الصلح والهدنة .

وإليك الأحكام الشرعية المتصلة بهذا العقد ملخصة من كتاب «المغنى» و«بداية المجتهد» و«حاشية إبن عابدين» و«فقه السنة» .

حكم عقد الذمة :

هو عقد مشروع بالكتاب والسنة وإجماع الأمة .

أما الكتاب فقوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُه ، وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

التوبة (٢٩) .

وأما السنة فقد روى المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه قال لجند كسرى يوم نَهَاوَنْد : أَمَرَنَا نبيُّنا ورسول ربنا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله وحده أو تُؤَدُّوا الجزية» رواه البخاري .

وعن بُرَيْدَة رضي الله عنه قال : كان رسول الله ﷺ إذا بَعَثَ أميراً على سَرِيَّةٍ أَوْ جَيْشٍ أوصاه بِتَقْوى الله في خاصة نَفْسِه وبِمَنْ مَعَه مِنَ المُسلمين خَيْراً ، وقال له : «**إذا لقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ المُشْرِكينَ فادْعُهم إلى إحْدى خِصالٍ ثلاثٍ : ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم ، فإن أبوا فادْعُهم إلى إعطاء الجِزيةِ فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتِلْهم**» رواه مسلم في أخبار كثيرة . وأجمع المسلمون على ذلك .

ولا يعقد عقد الذمة إلا الحاكم العام أو من ينوب عنه بإذنه ، لأنه عقد له صفة الدوام وله خطورته وآثاره على الأمة فلا يجوز أن يبرمه غيره .

أهل هذا العقد من الكفار :

الذين يجوز إبرام هذا العقد معهم من الكفار هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى بنص القرآن . وأما المجوس كأهل فارس عند الفتح الإسلامي الأول فإنهم عوملوا معاملة أهل الكتاب لحديث : **سُنُّوا بِهِمْ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَاب**» يعني في الجزية فقط . والحديث مقطوع وإن كان رواته ثقات كما قال الشوكاني في نيل الأوطار ، وبعضهم يقول إن أخذ الجزية جائز من الجميع ولو كانوا من كفار قريش استدلالاً بعموم الأحاديث السابقة وهذا رأي مالك والأوزاعي وفقهاء الشام ، ويرجحه ابن القيم حيث يقول : إن المجوس أهل شرك لا كتاب لهم فأخذ الجزية منهم دليل على أخذها من جميع المشركين ، وإنما لم يأخذها ﷺ من عبدة الأوثان من العرب ، لأنهم أسلموا كلهم قبل نزول آية الجزية ، فإنها إنما نزلت بعد غزوة تبوك ، وكان رسول الله ﷺ قد فرغ من قتال العرب ، واستوثقت كلها بالإسلام .

ولهذا لم يأخذها من اليهود الذين حاربوه لأنها لم تكن نزلت بعد ، فلما نزلت أخذها من نصارى العرب ، ومن المجوس ، ولو بقي حينئذ أحد من عبدة الأوثان بذلها لقبلها منه كما قبلها من عبدة الصلبان والنيران ١ هـ من فقه

السنة مجلد ٣ ص ١٦٥ .

وقال الشافعي : تقبل الجزية من أهل الكتاب ومن المجوس ، ولا تقبل من عبدة الأوثان . وقال أبو حنيفة : لا يقبل من العرب إلا الإسلام أو السيف ، وللإمام أحمد رأيان في الموضوع . والحق أنه لا دليل للقائلين بالتفريق بين عربي وغير عربي ، ولا للقائلين بالتفريق بين اليهود والنصارى والمجوس وبين باقي الكافرين ، فقد ثبت أن النبي ﷺ صالح أُكَيْدِر دَوْمة الجَنْدل على الجزية أيام غزوة تبوك وهو ملك عربي ، وأخذ ﷺ الجزية من نصارى نجران وهم عرب ، ولما أرسل معاذاً إلى اليمن أمره أن يأخذ الجزية منهم إذا رضوا بها ولم يفرق بين عربي وغير عربي ، ولا بين يهودي وغيره . فالحق أن الجزية تؤخذ من كل كافر لم يدخل في الإسلام ورضى بها بدل القتال والقتل ، وهو رأي للإمام أحمد فينضم به إلى مالك والأوزاعي وفقهاء الشام ، وهو قول سعيد بن عبد العزيز وعبد الرحمن بن زيد بن جابر . والقائلون بأن عبدة الأوثان من العرب لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف لهم دليل قوي وهو قول النبي ﷺ : « **أُمِرْتُ أنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حتى يقولوا لَا إِلَه إلا الله فإذا قالوها عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّهَا** » .

رواه البخاري ومسلم وغيرهما ، فهم يقولون إن هذا الحديث عام خص منه اليهود والنصارى بالآية ، وخص المجوس بالحديث وبقي عبدة الأصنام على الأصل العام ، وهؤلاء يقولون : إن المجوس أشبه باليهود والنصارى في أنهم كانوا أهل كتاب فرفع ، ولكن ظهر ضعف هذا الرأي ، وأما الرد على الحديث فإنه يقال : إن هذا كان في أول الأمر بالقتال وقبل نزول سورة براءة وغزوة تبوك ، أما بعد ذلك فقد تغير الحكم كما سبق .

هذا : وعقد الذمة يشترط فيه أمران .

(١) الالتزام بإعطاء الجزية في كل حول .

(٢) الالتزام بأحكام الإسلام بمعنى أن يقبلوا ما يحكم به عليهم من أداء حق أو ترك محرم فإذا قبلوا هذين الشرطين صح العقد .

شروط وجوب الجزية :

تجب الجزية على الكافر الذكر البالغ العاقل القادر . فلا تجب على غير الكافر ، ولا تجب على العبد ، ولا على المرأة ، ولا على من لم يبلغ الحلم ولا على فقير يعجز عن دفعها ، ويعجز عن الكسب كالزمن والأعمى والمقعد ومن في معناهم ، والأدلة متوافرة على ذلك .

ومن لا جزية عليه لو أراد إعطاءها فإن الواجب إخباره أنه لا جزية عليه لاحتمال أن يكون غير عالم بذلك فيكون أخذها منه حراماً ، فإن دفعها بعد العلم قبلت منه ، وإن دفعها سنة أو أكثر ثم رجع ولم يدفعها لا يطالب بها ، لأنه متبرع ، ومن بلغ من الصبيان أُخذت منه الجزية ، وكذلك من أفاق من المجانين ١ هـ من المغنى .

مقادر الجزية :

روى أصحاب السنن عن معاذ رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما وجهه إلى اليمن أمره أن يأخذ من كل حالم ديناراً أو عِدلَه من المعَافِرَة (ثياب يمنية) ثم زاد فيها عمر رضي الله عنه فجعلها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعين درهماً على أهل الوِرق (الفضة) .

والزيادة من عمر لم تكن على أهل اليمن إنما كانت على أهل الشام لأنهم كانوا أغنى من أهل اليمن . فقد روى البخاري أنه قيل لمجاهد «ما شأن أهل الشام عليهم أربعة دنانير وأهل اليمن عليهم دينار ؟ فقال : جُعلَ ذلك من قبل اليسار .

وبهذا قال أبو حنيفة ، وهي رواية عن أحمد فقال : إن على الموسر ثمانية وأربعين درهماً وعلى المتوسط أربعة وعشرين ، وعلى الفقير القادر على الدفع اثني عشر .

وقال مالك ، وهي رواية عن أحمد : إنه لا حد لأقل الجزية ولا لأكثرها ، والأمر فيها موكول إلى الحاكم الإسلامي وإجتهاده ليقدر على كل شخص ما يناسبه . ويرجحه ابن القيم .

وقال الشافعي : إن الجزية مقدرة الأقل فقط وهو دينار ، وأما الأكثر فموكول إلى اجتهاد الوالي ، ويلاحظُ أن المراد بالغنى هو الغني حسب عرف الناس في زمنهم وبلادهم .

ويجوز أن يشترط الحاكم على أهل الجزية أشياء زائدة على الجزية في حدود طاقتهم كأن يشترط عليهم ضيافة من يمر بهم من المسلمين ، وإيواءه ، وأن يمهدوا الطرق ويبنوا القناطر ، ويؤسسوا المدارس والمستشفيات ، وغير ذلك .

فقد شرط عمر على أهل الذمة ضيافة يوم وليلة ، وأن يصلحوا القناطر ، وإن قتِل رجل من المسلمين بأرضهم فعليهم ديته ، رواه أحمد .

وروى أسلم أن أهل الجزية من أهل الشام أتوا عمر رضي الله عنه فقالوا : « إن المسلمين إذا مروا بنا كلفونا ذبح الغنم والدجاج في ضيافتهم » فقال رضي الله عنه : « أطعموهم مما تأكلون ولا تزيدوهم على ذلك » .

وتسقط الجزية عمن أسلم منهم لحديث ابن عباس مرفوعاً « لَيْسَ على المُسْلِمِ جِزْيَةٌ » رواه أحمد وأبو داود .

ويستوي في إسقاطها إسلامه قبل نهاية الحول أو بعده ، وبذلك قال الحنابلة والأحناف ومالك والثوري وأبو عبيدة ، وقال الشافعي وأبو ثور وابن المنذر لا تسقط إن أسلم بعد الحول ، لأنها صارت ديناً عليه ، وعلم من هذا أن الجزية لا تجب إلا في نهاية الحول كما هو رأي الأكثر .

★★★

جملة من أحكام أهل الذمة

إذا عقد الإمام عقد الذمة مع الكافرين فإن على المسلمين حماية أنفس الكافرين وأموالهم وأعراضهم ، وتأمينهم تأميناً تاماً والدفاع عنهم ضد عدوهم لأنهم صاروا خاضعين للحكم الإسلامي في حقوق الآدميين في العقود والمعاملات ، وقيم المُتْلفات ، وعقوبة الجنايات ، حتى لو عقد العقد على غير هذه الشروط لا يكون صحيحاً .

ويجب إقامة الحدود عليهم فيما يعتقدون تحريمه في دينهم كالقتل والزنا والسرقة والقذف سواء كان هذا الحد واجباً في دينهم أو غير واجب ، المهم أن يكون ما فعلوه حراماً عندهم ، فقد روى أنس أن يهودياً قتل جارية فقتله رسول الله ﷺ . متفق عليه . . . ورجم النبي ﷺ يهوديين قد زنيا وهما محصنان . . وكل ذلك مشروط بتحاكمهم إلينا لنحكم بينهم ، وحتى إذا تحاكموا إلينا فإننا لا يلزمنا أن نحكم بينهم بل ذلك راجع إلى اختيارنا ، وعليهم أن يتحاكموا إلى رؤ سائهم .

فأما ما يعتقدون حله كشرب الخمر وأكل لحم الخنزير عند أهل الكتاب ، ونكاح ذوات المحارم عند المجوس فإنهم يُقَرون عليه ولا حد عليهم فيه ، لأنه حلال عندهم حسب عقيدتهم ، ولأنهم يتركون على كفرهم وهو أعظم إثماً من ذلك ، إلا أنهم يمنعون من إظهاره بين المسلمين لأنهم يتأذون

بذلك ، ولا يجوز لهم الوقوع في شيء فيه غضاضة على المسلمين وإيذاء لشعورهم مثل ذكر ربهم أو رسولهم أو قرآنهم بسوء .

كما لا يجوز أن يفعلوا أي شيء فيه ضرر على المسلمين ، ولا يجوز أن يتصدروا المجالس ، ولا أن نبدأهم بالسلام ؛ فإن سلموا قلنا في الرد « عليكم » . ولا تباع لهم المصاحف ولا كتب الحديث والفقه ، لأنهم يبتذلون ذلك كله ويضعونه موضع الإهانة .

وأجاز بعضهم تهنئتهم وتعزيتهم وعيادة مريضهم .

ويمنعون من إحداث الكنائس والبيع ودور عباداتهم ، ولا يمنعون من ترميمها ولهم أن يبنوا ما تهدم منها ، وأجاز بعض العلماء كل ذلك لهم إذا نص عليه في العقد لأننا مأمورون أن نتركهم وما يدينون .

ويمنعون من إظهار المنكر وضرب الناقوس ورفع أصواتهم بكتابهم وإظهار أعيادهم وصلبهم إذا كانوا يعيشون في بلد إسلامي ، أما إن كانوا في بلادهم فإنهم لا يمنعون من شيء من ذلك .



سمو التشريعات الإسلامية

لعلك أيها القارىء الكريم أدركت من معاملة الإسلام لغير المسلمين سواء كانوا محاربين أو مصالحين أو أهل ذمة أن الإسلام هو الذي وضع أصول العدل السياسي الدولي قبل أربعة عشر قرناً .

كما يتضح لك أن الرحمة بالإنسان هي الدافع الأساسي إلى كل عمل من الأعمال التي شرعها الله تعالى وأنزلها في قرآنه الكريم ، أو شرعها رسوله العظيم محمد ﷺ بإذن الله تعالى ووحيه .

وليس المهم هو فقط وضع التشريعات ، إنما المهم مع ذلك هو إيجاد الإنسان الذي يحمل هذه التشريعات بصدق وأمانة ووفاء ، ثم يطبقها كما أمر الله تعالى وكما طبقها رسوله ﷺ . وذلك ما يمتاز به الإسلام بشكل واضح وملموس أيام أن كان مطبقاً ومعمولاً به .

فلم يكن الفتح الإسلامي فتح بطش واستغلال واستعباد للبشر ، إنما كان فتحاً قائماً على إزاحة كابوس الظلم عن الإنسان . ورفع الضيق والحرج والأغلال عنه بأمر الله تعالى وحسب شريعته ، لأن من يحاربه المسلمون إن دخل في الإسلام فهو أخ لكل مسلم يجب حبه وحب الخير له ، ويجب عليه وله كل ما يجب على كل مسلم وله ، وإن لم يسلم وصالح المسلمين على هدنة ، أو عقد معهم عقد ذمة ، فإن أقصى ما يأخذه المسلمون هو مبلغ من

المال يدفع المسلم أكثر منه أضعافاً ، ومع ذلك ينال غير المسلم كفاء هذا المبلغ حماية المسلمين والدفاع عنه ورفع الظلم والاستبداد به ، وإزالة كل أثر من آثار الاضطهاد والاستعباد له .

ويترتب على ذلك أن تفتح البلاد غير الإسلامية للمسلمين ، كما تفتح البلاد الإسلامية لغير المسلمين بحيث يحدث الاختلاط والاتصال المباشر والأخذ والعطاء بين الفريقين مما يترتب عليه الدراسة والنظر والبحث المتأني فيما جاء به الإسلام ، وفيما عليه الأخلاق الإسلامية من السماحة واليسر والكرم والعدالة والرحمة ، مما من شأنه أن يؤثر على غير المسلمين تأثيراً إيجابياً لصالح أنفسهم وصالح بلادهم فيدخلون في الإسلام أفراداً وجماعات بدون ضغط ، أو إكراه ، أو شعور بالحرج . وإنك لو رجعت إلى تاريخ الفتح الإسلامي لوجدت أن البلاد التي عقد مع أهلها عقد الذمة لم يمضِ وقت طويل حتى دخل جميع أهلها أو جلهم في الإسلام وصاروا من خيرة المسلمين .

فالمسلمون لم يعزلوا أنفسهم عن أهل البلاد كما فعل المستعمرون والخواجات الذين استعلوا على الشعوب التي استعمروها وأوهموها أن المستعمر من شعوب سامية رفيعة .

والمسلمون لم يجعلوا من البلاد المفتوحة بعقد الذمة أو الصلح عبيداً لهم يسخرونهم في الأعمال الشاقة ، ويستنزفون عرقهم ودماءهم لقاء كسرات من الخبز لا تقيم أوداً ولا تبقى على حياة كريمة كما فعل المستعمرون .

والمسلمون لم يجعلوا من هذه البلاد بقرة حلوباً تدر الخير والرزق الوفير لهم مع ترك أهل البلاد يحلبون البؤس ويرضعون الشقاء والفقر والهوان .

والمسلمون لم يفرضوا ستاراً حديدياً على هذه البلاد ، ولم يمنعوا أهلها من الاتصال بغيرهم ، والأخذ عنهم كما يفعل الشيوعيون وأمثالهم .

الإسلام نسيج فريد ، ودين وحيد في عطفه ورحمته وعدله واحتوائه لكل ما في الحياة والأحياء من خير ، وهو لو لم يكن دِيناً لكان في الأخلاق شيئاً عظيماً . وقد عاش اليهود والنصارى وغيرهم بين المسلمين إلى اليوم ولم يشعروا يوماً باضطهاد المسلمين لهم ولا بظلمهم أو التنقيص من حقوقهم ، وقد تولوا في الدولة الإسلامية مناصب عليا ، وكنزوا الأموال ، وعاشوا في ترف غامر عز مثله عند أكثر المسلمين .

وإن وُجدت في الزمان فترة ظلم فيها يهودي أو نصراني يعيش تحت الحكم الإسلامي ، أو وُجد أفراد أو جماعات من هؤلاء وأولئك أصابهم حيف وظلم ، فإنك واجد ذلك وأكثر منه في المسلمين ، وليس ذلك سببه الإسلام ، إنما سببه أن الحاكم لما لم يكن مسلماً ظلم الجميع واعتدى عليهم ، ومع ذلك فهي فترات لا تحسب في ميزان الزمن الطويل وأحيلك إلى كتاب « التعصب والتسامح بين المسلمين والمسيحيين » للشيخ محمد الغزالي فهو بحث رائع شامل يعطيك الصورة الصحيحة لموقف الإسلام والمسلمين من المسيحيين وغيرهم .



أحكام الأسرى

الأسرى جمع أسير ، والأسير هو من أخذه المسلمون من أهل الحرب أثناء المعركة سواء كان رجلًا أو امرأة أو صبياً . وهذه هي الأحكام الخاصة بهم :

(١) من أسر أسيراً لم يجز له أن يقتله حتى يأتي به إلى الحاكم فيرى فيه رأيه حسب الأصول والمبادىء الإسلامية ، كما لا يجوز له أن يقتل أسير غيره من باب أولى ، فإن امتنع الأسير أن يسير معه فله إكراهه بالضرب وغيره ، فإن لم يمكنه إكراهه على السير جاز قتله ، كما يجوز قتله إن هرب منه أو قاتله ، فإن قتل أسيره ، أو أسير غيره قبل الوصول إلى القائد أو الحاكم أثم ولم يلزمه ضمانه ، وإن قتله بعد وصوله إلى الإمام قيل يضمنه وقيل لا يضمنه .

(٢) أسرى الحرب ثلاثة أنواع :

(أ) النساء والصبيان ، وهؤلاء لا يجوز قتلهم . ويصيرون رقيقاً للمسلمين بنفس السبي لأن النبي ﷺ نهى عن قتل النساء والولدان كما سبق ، وبذلك يكون مآلهم الإسلام .

(ب) الرجال الذين يقرون على الجزية من أهل الكتاب والمجوس باتفاق العلماء ، يخير الحاكم فيهم في واحد من أمور أربعة : القتل ، أو

إطلاقهم بغير مال ولا فداء ، أو إطلاقهم بعد أخذ مبلغ معين من المال عن كل واحد ، ويعدل ذلك مبادلة الأسرى ، أو يسترقهم ، والحكم بأي واحد من الأربعة راجع إلى مصلحة المسلمين وإلى الظروف المحيطة بهم ، وله أن يقتل البعض ويمن على البعض ، ويسترق البعض ويأخذ الفدية من البعض . . كل ذلك مرده إلى المصلحة لا إلى الهوى والشهوة ، وعلى هذا جمهور العلماء كما قال الشوكاني . وزاد قوله : والحاصل أن القرآن والسنة قاضيان بما ذهب إليه الجمهور فإنه قد وقع منه ﷺ المن وأخذ الفداء كما وقع منه القتل .

وقال الترمذي : والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أن للإمام أن يمن على من شاء من الأُسارى ويقتل من شاء منهم ويفدي من شاء . . . وأما قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ . فقيل إنها منسوخة .

وقال الشوكاني : وقد ذهب إلى جواز فك الأسير من الكفار بالأسير من المسلمين جمهور أهل العلم .

وقال : ومذهب الجمهور أن الأمر في الأسارى الكفرة من الرجال إلى الإمام يفعل ما هو الأحظ للإسلام والمسلمين ١ هـ ملخصاً جـ ٧ ص ٣٢٤ .

وأقام صاحب المغني الأدلة على كل واحد مما سبق بقوله إن النبي ﷺ مَنَّ على ثُمامَة بنِ أُثَال وأبي عَزَّة الشاعر وأبي العاص بن الربيع .

وفادى ﷺ أسارى بدر وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً ، وفادى يوم بدر رجلاً برجلين .

وقتل النبي ﷺ رجال بني قريظة وكانوا بين الستمائة والسبعمائة ، وقتل يوم بدر النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط صبراً ، وقتل أبا عزة يوم أحد .

(ج) عبدة الأوثان سواء كانوا عرباً أو غير عرب : وهؤلاء مختلف في أمرهم . فهل يجوز فيهم واحد من الأربعة السابقة وهي الاسترقاق والقتل

والمن والفداء أم يجوز استرقاقهم ويجوز استعمال الثلاثة الأخرى معهم ؟ هو خلاف بين العلماء مبني في الغالب على الخلاف في الجزية ، وقد علمت القول الراجح في أمر الجزية وهو أن الجزية تجوز على الجميع ، وهذا هو الراجح في الأسرى : أن الإمام مخير فيهم بين الأربعة المذكورة التي منها استرقاقهم وقد بَوبَّ لذلك الشوكاني في نيل الأوطار فقال : « باب جواز استرقاق العرب » وساق الأدلة التي رواها صاحب المنتقى ، وهي أدلة صحيحة رواها مسلم أو البخاري ومسلم وأحمد وأبو داود ومن هذه الأدلة ثبت أن عائشة رضي الله عنها كان عندها سَبِيَّة مملوكة لها من بني تميم وهم من خيار العرب وكانت عائشة نذرت تحرير رقبة من ولد إسماعيل فأعتقت هذه الجارية ، لأن بني تميم من ولد إسماعيل ويلتقون بنسب النبي ﷺ في إلياس بن مضر .

ولما حارب النبي ﷺ بني المصطلق واستولى على أموالهم وعلى أهل مائة بيت منهم كانوا ملكاً للجيش المحارب حتى تزوج النبي ﷺ جويرية بنت الحارث سيدهم فقال المسلمون : إنهم صاروا « أصهار رسول الله ﷺ . . » فأعتقوهم ، فكانت جويرية بركة عليهم .

ولما حارب رسول الله ﷺ هوازن يوم حنين وانتصر عليهم أخذ أموالهم وسبى نساءهم وأولادهم فجاؤوا في ذلك يطلبون المال والنساء والذرية فخيرهم بين المال وبين النساء والذرية ، فاختاروا النساء والذرية فخطب رسول الله ﷺ في المسلمين بعد تقسيم السبي وطيب خاطرهم ودعاهم إلى تحرير من معهم وتعهد لمن لا يحرر من معه إلا بفدية أن يدفع هو له الفدية من أول فيءٍ يجيء للمسلمين .

ولذلك قال الإمام أحمد : لا أذهب إلى قول عمر ليس على عربي مِلْك . قد سبى النبي ﷺ العرب في غير حديث وأبو بكر وعلي حين سبى بني ناجِيَة .

وقال الشوكاني بعد ذكر الأدلة : وقد استدل المصنف (صاحب المنتقى) رحمه الله تعالى بأحاديث الباب على جواز استرقاق العرب ، وإليه ذهب الجمهور كما حكاه الحافظ في كتاب العتق من فتح الباري وحكى في البحر عن العترة وأبي حنيفة أنه لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام أو السيف .

وقال في المنار مستدلاً على ما ذهب إليه الجمهور من جواز استرقاق العرب : وقد استفتحت الصحابة أرض الشام وهم عرب ، وكذلك في أطراف بلاد العرب المتصلة بالعجم ولم يفتشوا العربي من العجمي والكتابي من الأمي ؛ بل سووا بينهم ولم يرو عن أحد خلاف ذلك .

والحاصل أنه قد ثبت في جنس أسارى الكفار جواز القتل والمن والفداء والاسترقاق فمن ادعى أن بعض هذه الأمور يخص بعض الكفار دون بعض لم يقبل منه ذلك إلا بدليل ناهض يخصص العموميات . . وقد استرق على بني ناجية ذكورهم وإناثهم وباعهم كما هو مشهور ، وبنو ناجية من قريش فكيف ساغت لهم مخالفته ؟ ا هـ من نيل الأوطار ج ٨ ص ٧، ٨ .

وعلى هذا يكون الحكم في جميع الأسرى سواء كانوا عرباً أو عجماً ، أهل كتاب أو عبدة أوثان هو الاسترقاق أو القتل أو المن أو الفداء ، ويخير الإمام فيما يفعله بهم بشرط أن يكون ذلك على أساس المصلحة للمسلمين والفائدة للإسلام .

(٣) وإن أسلم الأسير صار رقيقاً في الحال وزال التخيير وصار حكمه حكم النساء والصبيان عند الحنابلة والشافعية في رأي ، وفي رأي آخر (وأراه أقوى) أنه بالإسلام لا يحل قتله ويجوز معه واحدة من الخصال الثلاث الباقية .

(٤) ومع حكم عليه بالرق يضم إلى الغنيمة ويحتسب معها . وكذلك ما أخذ

عن الأسير من الفدية ، لأنه صار مالاً جاء نتيجة المعركة فهو من جملة الغنائم .

(٥) كل من يحرم قتله سوى النساء والصبيان يحرم سبيه وأسره ، لأنه لا نفع من ورائه وذلك كالأعمى والمقعد والراهب وغيرهم من العجزة فقط .

(٦) ومن أُسِر فادعى أنه كان مسلماً لم يقبل قوله إلا ببيِّنة ، لأن الظاهر خلاف ما يدعي فإن شهد له واحد حُلِّف معه وخلي سبيله ، وقال الشافعي : لا تقبل إلا شهادة عدلين ١ هـ من المغني ملخصاً ج ١٠ ص ٤٠٦ وإن أسلم الأسير بعد أسره لم يزل ملك المسلمين عنه كما سبق في (٣) .

(٧) من سبي من أطفال المشركين منفرداً عن أبويه يحكم بإسلامه ، وإن سبي مع أبويه فهو على دينهما ، وإن سبي مع أحد الأبوين فقيل يكون مسلماً وقيل يكون على دين أبيه أو أمه .

(٨) إذا أسرت المرأة مع زوجها فهما على نكاحهما ، وقيل ينفسخ النكاح ، وإذا سبيت وحدها إنفسخ نكاحها بالإجماع ،وإذا سبي الرجل وحده لم ينفسخ النكاح بينه وبين زوجته ١ هـ منه .



أحكام الغنائم

الغنائم جمع غنيمة وهي في اللغة : ما يناله الإنسان بسعي وجهد، وفي الشرع : المال المأخوذ من أعداء الإسلام بسبب الحرب والقتال . . وتسمى الأنفال أيضاً ، لأنها جاءت زيادة في أموال المسلمين ، وقد أحلها الله لهذه الأمة ولم يحلها لأمة قبلها ، قال تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً ﴾ الأنفال (٦٩) .

وعن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال : « **أُعْطِيتُ خَمْساً لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلي ، نُصرتُ بالرعب مسيرةَ شهر ، وجُعِلتْ لي الأرضُ مسجداً ، وَطُهورًا ، فَأيما رجلٍ من أمَّتي أدْرَكَتْهُ الصلاة فلْيُصل . وأحِلَّت ليَ الغنائمُ وَلم تَحِل لأحدٍ قبلي ، وأُعطِيتُ الشفاعة ، وبُعِثْتُ إلى الناس عامةً** » رواه البخاري ومسلم .

تقسيم الغنائم :

قال تعالى :

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ مَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمسَهُ وللرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى والْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبيلِ ﴾ الأنفال (٤١) .

فالغنيمة يؤخذ خمسها للأصناف المذكورة في الآية والأخماس الأربعة

توزع على الغانمين وعلى هذا اتفق أهل العلم .

وذهب أكثرهم إلى أن ذكر الله تعالى في الآية للتبرك وليس لأن له نصيباً في الغنيمة يصرف في جهة معينة . لأن كل المال له سبحانه ملكاً وحكماً .

وسهم رسول الله ﷺ يجب له سواء حضر المعركة أو لم يحضر ، وكان ﷺ يصرفه في مصالح المسلمين في حياته ، فبعد موته على الإمام أن يصرفه في هذه المصالح ، وقد قال أبو بكر في نصيب رسول الله : « لا أدعُ أمراً رأيتُ رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته » متفق عليه . واتفق هو وعمر والصحابة على إنفاقه في الخيل والسلاح والعدة في سبيل الله .

والسهم الثاني لبني هاشم وبني المطلب حيث كانوا . . غنيهم وفقيرهم سواء فيه ، للذكر مثل حظ الأنثيين ، وقيل يساوي بين الذكر والأنثى .

والسهم الثالث لليتامى : واليتيم هو الذي لا أب له ولم يبلغ الحلم .

والسهم الرابع للمساكين . وهم أهل الحاجة الذين لا يجدون ما يكفيهم ويقوم بضرورات حياتهم .

والسهم الخامس لأبناء السبيل ، يعطى كل واحد منهم ما يوصله إلى بلده .

وقال الإمام مالك في الخمس : يجعل في بيت المال ويصرفه الإمام على مصالح المسلمين . وهو رأي له وجاهته إذا كان الإمام يرعى مصالح اليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

والأحناف يرون أن يقسم الخمس على ثلاثة فقط . هم اليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

وباقي الغنيمة وهو الأربعة الأخماس يقسم على أساس أن الذي يحارب راجلاً غير راكب فرساً له سهم واحد والذي يحارب راكباً فرساً له ثلاثة أسهم . سهم له وسهمان للفرس ، لأن الفرس في زمانهم كان أشبه بالدبابة والمصفحة

وغيرهما في أيامنا ، وكان صاحب الفرس هو الذي يتولى الإنفاق على فرسه من ماله الخاص به ، كما كان كل واحد هو الذي يشتري سلاحه ودرعه وجميع أعتدة الحرب ومتطلباتها ، أما اليوم فالدولة هي التي تتكفل بذلك كله وتنفق من خزانتها ما يُرهقها ويعود عليها بالنقص والعجز والضعف العام ، ولذلك يحتاج الأمر في تقسيم الغنائم اليوم إلى نظر فقهي جديد وأرى توحيد الأنصبة .

وهناك مسائل هامة تلحق بموضوع الغنائم وإليك أهمها :

(١) إذا أخذ الكفار مالاً لمسلم ثم غلب عليهم المسلمون وأخذوا مال المسلم قهراً وعلم بذلك صاحبه فأدركه قبل القسمة ، أو علم الجيش بذلك فإن ماله يجب أن يرد إليه ، وهو أحق به ، أما إن أدركه بعد القسمة فأراد أن يأخذه فإن له الحق في ذلك على أن يدفع ثمنه الذي حسب به عند القسمه . . يدفعه لمن وقع المال في نصيبه ، وهناك رأي قوي بأنه بعد القسمة لا حق له فيه ، وحكم أموال أهل الذمة في ذلك هو حكم أموال المسلمين ، لأنهم إنما بذلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا ، ولأن أموالهم معصومة .

(٢) إذا أخذ الكفار أموال المسلمين قهراً واحتازوها إلى دارهم فإنهم يملكونها بمعنى أنهم إن باعوها أو تصرفوا فيها أي تصرف فإن تصرفهم صحيح وهذا هو رأي الأكثر : وعلى هذا فلو ملكها المسلمون بالحرب بعد ذلك ولم يعلم صاحبها فإنها تصير من جملة الغنائم ، ولو أسلم كافر وهي في يده فهو أحق بها ، وعلى هذا لو استولى كافر حربي على مال مسلم ثم أسلم فإن المال لا يؤخذ منه .

(٣) إن استولى الكفار على حُرٍّ لم يملكوه سواء كان مسلماً أو ذمياً .

(٤) يستحق الغنيمة كل من حضر المعركة من الذكور الأحرار البالغين العقلاء ، وهؤلاء هم الذين تقسم عليهم الأخماس الأربعة ، فإن وجد

نساء وعبيد وصبيان فإنهم يعطون من الغنيمة نصيباً قبل القسمة حسبما يرى الإمام أو من يقوم مقامه ، وذلك ما كان يحدث في عهد النبي ﷺ .

(٥) من استؤجر للقتال أو للخدمة فإن له أجره ولا نصيب له في الغنيمة .

(٦) يجوز للإمام أن يزيد بعض المقاتلين عن نصيبه وأن تكون هذه الزيادة من الغنيمة إذا أظهر من الشجاعة والنكاية في العدو ما يستحق به المكافأة . فقد فعل ذلك النبي ﷺ .

(٧) قضى رسول الله ﷺ بالسلَب للقاتل الذي قتل الكُافر : والسلب هو ما وجد على المقتول من السلاح وعدة الحرب ، وكذلك ما يتزين به للحرب ، أما ما كان معه من أموال وجواهر فهو من الغنيمة وليس من السلَب . . فمن قتل قتيلاً فله سلَبه تشجيعاً له .

(٨) ما يحتاجه المسلمون المحاربون من طعام لأنفسهم أو لدوابهم أثناء وجودهم في دار الحرب قبل قسمة الغنائم يجوز أخذه من الغنائم ، كما كان يحدث في عهده ﷺ .

(٩) من أخذ من الغنيمة شيئاً ولو حقيراً عن طريق السرقة فإنه يعتبر عاصياً ويعذب بسبب ما غَلَّهُ ، ويستحق في الدنيا أن يحرق متاعه وأن يضرب عقاباً له وزجراً للناس . وفي ذلك أحاديث كثيرة ، وقد أخبر النبي ﷺ عن رجل مسلم مات أثناء المعركة أنه في النار بسبب الغُلول . وقد أوجزت فيما ذكرت من أمور الغنائم لأني فقط أردت أن أعطي القارىء فكرة حتى لا يكون بها جاهلاً ، أما الإطالة وذكر الأدلة فلسنا الآن في حاجة إليهما لأن الموضوع كله في زمننا هذا يحتاج نظرة اجتهادية تتفق مع ما استحدث من شؤون الحرب ونظمه .

(١٠) الأرض المغنومة من الكافرين إما أن تقسم على المسلمين ، وإما أن توقف عليهم ويؤخذ الخراج ممن يزرعونها من أهل الذمةَ لينفق في مصالح المسلمين ، ومثلها الأرض التي تركها أهلها المحاربون خوفاً من المسلمين ، أو نتيجة صلح مع المسلمين والله أعلم . .

أحكام متفرقة

إقامة الحدود في أرض الحرب :

قال أحمد والأوزاعي وإسحاق : مَن أتى حداً من الغزاة أو ما يوجب القصاص وهو في أرض الحرب لم يُقَم عليه حتى يرجع فيقام عليه حده .

وقال مالك والشافعي وأبو ثور وابن المنذر : يقام الحد في كل موضع لأن أمر الله تعالى بإقامته مطلق في كل زمان ومكان .

وقال أبو حنيفة : لا حد ولا قصاص عليه في دار الحرب ولا إذا رجع .

دليل الأولين على تأخير الحد ما روى بشر بن أرطاة أنه أتى برجل من الغزاة قد سرق بُخْتِيَّة فقال لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لَا تُقْطَعُ الأَيْدِي في الغَزَاة** » لقطعتك . أخرجه أبو داود وغيره ، ولأنه إجماع الصحابة رضي الله عنهم . وذكر صاحب المغني عدة أمثلة على تأثير الحدود في الغزو .

وأما الثغور التي ترابط عليها جيوش المسلمين فإن الحدود تقام فيها بلا خلاف ، لأنها أرض إسلامية .

كفالة أبناء المقاتلين :

يجب على الدولة كفالة ورعاية أولاد وأزواج المقاتلين عند غيابهم ، فإن مات أحدهم أو قتل فعلى الدولة الإنفاق عليهم ورعايتهم حتى تتزوج المرأة ويبلغ الأولاد ويجدوا عملاً ، فإن ذلك من شأنه تطمين القلوب وتطييبها ، فمتى علم المجاهدون أن عيالهم تكفلهم الدولة توفروا على الجهاد ، وإذا علموا خلاف ذلك توفروا على الكسب وآثروه على الجهاد مخافة الضيعة على عيالهم ١ هـ من المغنى جـ ١٠ ص ٥٥٣ .

حكم الهجرة من دار الكفار :

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « **لَا هجرةَ بعدَ الفتْحِ ، ولكنْ جهادٌ ونِيَّة ، وإذا أُسْتُنْفِرْتُمْ فانفِروا** » رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

وعن عائشة رضي الله عنها ، وسئلت عن الهجرة فقالت : لا هجرةَ اليومَ ، كان المؤمن يفر بدينه إلى الله ورسوله مخافة أن يُفْتَن ، فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام ، والمؤمن يعبد ربه حيث شاء . رواه البخاري .

وعن مجاشع بن مسعود أنه جاء بأخيه مجالد بن مسعود إلى النبي ﷺ ، فقال : هذا مجالد جاء يبايعك على الهجرة ، فقال : « لا هجرةَ بعد فتحِ مكةَ ولكن أبايعُه على الإسلام والإيمانِ والجهاد » رواه البخاري ومسلم وأحمد .

وعن عبد الله بن السعدي : أن رسول الله ﷺ قال : « **لا تَنْقَطِعُ الهجرةُ ما قوتِل العدو** » رواه أحمد والنسائي وابن ماجه وغيرهم .

معنى الهجرة في الأصل هو . هجر الوطن ، وأكثر ما تطلق على من رحل من البادية إلى القرية .

ومعنى الأحاديث الثلاثة الأول : أن الهجرة التي هي مفارقة الوطن والتي كانت مطلوبة ومفروضة على كل مسلم ، وهي الهجرة إلى المدينة والانضمام إلى رسول الله والمؤمنين للتكثير والنصرة قد انقطعت ، إلا أن المفارقة بسبب الجهاد باقية وكذلك المفارقة بسبب نية صالحة كالفرار من دار الكفر ، والخروج في طلب العلم ، والفرار بالدين من الفتن مع استحضار النية في كل ذلك .

وأما الحديث الأخير فإنه يفيد أن : الهجرة لا تنقطع ما دام في الدنيا دار كفر يقاتل أهلها المسلمين ، فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أنه يفتن في دينه .

وقال ابن العربي : الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام وكانت فرضاً في عهد النبي ﷺ واستمرت بعده لمن خاف على نفسه .

وقد ذهب جعفر بن مبشر وبعض الهادوية إلى وجوب الهجرة عن دار الفسق قياساً على دار الكفر . قال الشوكاني : وهو قياس مع الفارق ، والحق عدم وجوبها من دار الفسق لأنها دار إسلام ، وإلحاق دار الإسلام بدار الكفر بمجرد وقوع المعاصي فيها على وجه الظهور ليس بمناسب لعلم الرواية ولا لعلم الدراية . ١ هـ من النيل ج ٨ ص ٢٩ . وللإمام الماوردي رأي له وجاهته في الموضوع ، فهو يقول : إذا قدر المسلم على إظهار دينه في بلد من بلاد الكفر فقد صارت البلد به دار إسلام ، فالإقامة فيها أفضل من الرحلة عنها لما يرجى من دخول غيره في الإسلام ١ هـ منه .

وقال الحافظ بن حجر في فتح الباري : لا تجب الهجرة من بلد قد فتحه المسلمون ، أما قبل الفتح فإن من به من المسلمين أحد ثلاثة :

الأول : قادر على الهجرة منها ولا يمكنه إظهار دينه بها ولا أداء واجباته فالهجرة منه واجبة .

الثاني : قادر لكنه يمكنه إظهار دينه وأداء واجباته فالهجرة منه مستحبة لتكثير المسلمين وجهاد الكفار ، والأمن من غدرهم ، والراحة من رؤ ية المنكر بينهم .

الثالث : عاجز بعذر من أسر أو مرض أو غيره ، فتجوز له الإقامة ، فإن حمل على نفسه وتكلف الخروج منها أُجر . ١ هـ ج ٦ ص ١٣٢ .

دار الإسلام ودار الكفر :

تصير الدار دار إسلام إذا أجريت فيها أحكام أهل الإسلام بمعنى أن المسلمين فيها يستطيعون أن يباشروا فيها عباداتهم من صلاة وإقامة جمعة وعيدين وأذان ، وإقامة قاضٍ مسلم يحكم بينهم في قضاياهم ، ويمكنهم أن يباشروا أحكام الإسلام منفردين ومجتمعين بدون التعرض لهم .

وتصير دار الإسلام دار حرب وكفر بأمور ثلاثة هي : (١) إجراء أحكام أهل الشرك والكفر فيها ، (٢) وباتصالها بدار الحرب وأعداء المسلمين ، (٣) وأن لا يبقى فيها مسلم أو ذمي آمناً .

وعلى هذا فلو تحققت تلك الأمور الثلاثة في بلد إسلامي ، ثم حصل بعد ذلك أمانٍ لأهل هذا البلد ونصب فيه قاض مسلم ينفذ أحكام المسلمين عاد البلد إلى دار الإسلام .

ولو أجريت في البلد أحكام الإسلام وأحكام الشرك لا يكون دار حرب .

ومعنى اتصال البلد بدار الحرب : أن لا يوجد بين البلد الذي كان دار إسلام وبين بلد الحربي بلد من بلاد الإسلام .

قال ابن عابدين في حاشيته ج ٣ ص ٢٥٣ وبهذا ظهر أن ما في الشام من جبل تيم الله المسمى جبل الدروز وبعض البلاد التابعة له كلها دار إسلام ،

لأنها وإن كانت لها حكام دروز أو نصارى ، ولهم قضاة على دينهم وبعضهم يعلنون بشتم المسلمين والإسلام . لكنهم تحت حكم ولاة أمورنا ، وبلاد الإسلام محيطة بهم من كل جانب ، وإذا أراد ولي الأمر تنفيذ أحكام الإسلام فيهم نفذها . ١ هـ وسبق رأي الماوردي في الهجرة والله أعلم .

منع أهل الذمة من سكنى الحجاز :

عن ابن عباس قال : « اشتد برسول الله ﷺ وجعه يوم الخميس ، وأوصى عند موته بثلاث : « أخرجوا المشركين من جَزِيرَةِ العَربِ ، وأَجيزوا الوفدَ بِنَحْو مَا كُنْتُ أجيزُهُمْ ، ونسيت الثالثة » رواه البخاري ومسلم وأحمد . والذي نسي الثالثة هو سليمان الأحول أحد رجال السند .

وعن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لأُخْرِجَنَّ اليهودَ والنصارى مِن جزِيرَةِ العَرب حتى لا أدَعَ فيها إلا مُسْلماً » رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه .

وعن ابن عمر أن عمر أجلى اليهود والنصارى من أرض الحجاز ، وذكر يهود خيبر إلى أن قال : أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاءَ . رواه البخاري .

جزيرة العرب هي : ما بين عدن إلى أطراف الشام طولاً ، ومن جدة إلى ريف العراق عرضاً وسميت جزيرة لإحاطة البحار بها ، وقيل حديثاً تسمى شبه جزيرة لأن البحار تحيط بها من ثلاث جهات فقط ، وأضيفت إلى العرب لأنها كانت بأيديهم قبل الإسلام وبها أوطانهم ومنازلهم .

وظاهر حديث ابن عباس أنه يجب إخراج كل مشرك من جزيرة العرب سواء كان يهودياً أو نصرانياً أو مجوسياً ، ويؤيد هذا حديث عن عائشة رضي الله عنها قالت : **آخر ما عهد رسول الله ﷺ أن قال** : « **لا يُتْرَكُ بِجَزِيرَةِ العَرَبِ دينان** » رواه أحمد .

وبهذا يعرف أن ما وقع في بعض ألفاظ الحديث من الاقتصار على الأمر بإخراج اليهود لا ينافي الأمر العام المصرح به في لفظ آخر ؛ لما تقرر في الأصول أن التنصيص على بعض أفراد العام لا يكون مخصصاً للعام .

وقول الراوي : ونسيت الثالثة : قيل هي تجهيز جيش أسامة وقيل : لا تتخذوا قبري وثناً .

وظاهر الحديث أنه يجب إخراج المشركين من كل مكان داخل في جزيرة العرب ، وحكى الحافظ في الفتح في كتاب الجهاد عن الجمهور أن الذي يمنع منه المشركون من جزيرة العرب هو الحجاز خاصة . قال : وهو مكة والمدينة واليمامة وما والاها وليس سوى ذلك مما يطلق عليه اسم جزيرة العرب لاتفاق الجميع على أنهم لا يمنعون من اليمن ، وهي من جزيرة العرب .

وقال : وعن الحنفية يجوز وجودهم مطلقاً إلا في المسجد الحرام .

وعن مالك : يجوز دخولهم الحرم للتجارة .

وقال الشافعي : لا يدخلون الحرم أصلاً إلا بإذن الإمام لمصلحة المسلمين ، فهو قريب من قول مالك ومن قول الحنفية ، فإنه لا يعقل عندهم أن يدخلوا الحرم بغير إذن الإمام ثم يتركوا .

والموضوع فيه كلام كثير وقد ذكرت لك خلاصة لتكون على بينة ومن أراد المزيد فعليه بنيل الأوطار للشوكاني ، أو فتح الباري شرح البخاري .

لا يغسل الشهيد ولا يصلى عليه :

قال في فقه السنة : الشهيد الذي قتل بأيدي الكفرة في المعركة لا يغسل ، ويكفن في ثيابه الصالحة للكفن ، ويكمل ما نقص منها ، وينقص منها ما زاد على كفن السنة ، ويدفن في دمائه ، ولا يغسل شيء منها .

وكفن السنة ثلاث لفائف للرجل ، وخمس للمرأة هي : إزار وخمار وثوبان تلف فيهما يكونان من الرأس إلى القدم ، أما الرجل فيلف في قميص وثوبين سابغين أو في ثلاث لفائف ، وهذا كفن السنة . أما كفن الفرض ، فهو ما يستر جميع جسد الميت ولو كان ثوباً واحداً .

هذا في القتيل الذي قتل أثناء المعركة ، أما من جرح جرحاً شديداً لا حياة معه ، ولكنه لم يمت أثناء المعركة بل تأخر فهذا يسمى شهيداً عند الله حسب نيته ، أما عندنا فإننا لا نعامله معاملة الشهيد ، لذلك نغسله ونكفنه ونصلي عليه .

فقد غسل رسول الله ﷺ سعد بن معاذ وغسل المسلمون بعده عمر وعثمان وعلياً .

أما الصلاة على الشهيد فإن الأدلة الصحيحة تفيد أنه لا يصلى عليه ، والروايات التي ذكر فيها أن الرسول ﷺ صلى على شهداء أُحُدْ كلها ضعيفة ، والروايات الصحيحة هي التي ذكرت أنه أمر بدفن شهداء أُحُدْ في دمائهم ولم يغسلهم ولم يصل عليهم ، وبعض الفقهاء أخذ بالروايات الضعيفة فقال : يصلي عليهم ، وبعضهم جمع بين الروايات فأجاز الصلاة وعدمها مثل ابن حزم .

وتمام الموضوع بحثاً في الأدلة وترجيحاً ورداً تجده في زاد المعاد لابن القيم .



بداية الطريق

بعد تلك المسيرة مع الأحكام الإسلامية الخاصة بالقتال في سبيل الله تعالى وبالأعمال الفدائية وبتطور التشريع الخاص بأمر القتال نستطيع أن نقول : إننا بدأنا ندرك عظمة الإسلام وعمقه وشمول نظرته للأمور وإحاطته بجميع الجوانب المطلوب اتخاذها إزاء أي موقف من المواقف الهامة والخطيرة في حياة الإنسان .

والإسلام في هذه المسيرة يرينا أن حياة المسلم كلها نوع من الكفاح والجهاد والعمل ، وأن من فهم أن الحياة الحقة هي ترف وكسل وخمول وخنوع ومقاعد وثيرة ومكاتب أنيقة يتربع عليها المتزعمون والمتسلطون وأدعياء الإسلام ويدبرون أمور المسلمين في استرخاء وبلادة وغباء فكر وظلام نفوس وتواكل على مدد من الشرق أو من الغرب بدون عزيمة شخصية وإرادة ذاتية ، أو ينتظرون أن يفصل في قضاياهم أعداء دينهم ، وأن يحرر أرضهم من كان سبباً في إذلالهم واحتلالهم ولا يزال متربصاً بهم . . . إذا فهم المتمسلمون ذلك فإنهم يكونون أخيب أمم الأرض وأتعسها وأشقاها وأهونها على الله وعلى الناس .

لأنهم لم يأخذوا عبرة من كتاب الله وسنة رسوله . ولم يأخذوا عبرة من تاريخ الإسلام مع أعدائه . ولم يدرسوا ما قاله فيهم أعداؤهم وما صبوه على

من سبقهم من عذاب وألم وشدة مهانة .

إنك لكي تكون شيئاً يجب أن تكون أهلاً لذلك الشيء ، ولن تكون أهلاً لشيء إلا إذا كنت متصفاً بالصفات المطلوبة لأهلية ذلك الشيء .

فمن أراد أن يكون مسلماً حقاً لا بد وأن يكون له من الصفات ما يؤهله لحمل أمانة الإسلام ورسالته .

ومن أراد أن يكون عزيزاً فإنه لا ينال العزة إلا بمؤهلاتها التي تجعله صالحاً لأن يكون عزيزاً .

وكذلك قل في الحرية والكرامة والإنسانية والحياة الطيبة .

أما الذين يلوكون الكلمات في الجلسات ، والذين لا هم لهم إلا عقد المؤتمرات ، والذين كل بضاعتهم إثارة العواطف وبعدها ينكَبُّون على الشهوات ، والذين يطلبون الزعامة على الشعب المسكين بطرق النفاق والدس واللف والدوران والبحث عن المغانم والثروات ، والذين جاءوا بالنكسة بعد النكسة ولا يزالون ينتظرون النكسات ، ويخدرون الشعب لقبول أسوأ الاحتمالات ، والذين يأكلون على جميع الموائد ولهم ضمائر تجري فيها سيارات المسابقات . . . هؤلاء وأولئك وغيرهم لا يصلحون لشيء مما يرفع رأس المسلم أو يعيد إليه العزة والسيادة والحرية والكرامة .

إن هؤلاء رضوا لأنفسهم حياة الذلة والمهانة والضعة فكيف يصلحون أن يأتوا بغير ذلك لشعوبهم وأتباعهم !!! .

إننا لكي نبدأ الطريق إلى الأهداف السامية لا بد وأن نبدأ بداية فيها سمو يوصل إلى هذه الأهداف ، وذلك حكم الطبيعة المتفق مع العقل تمام الاتفاق ، فإنك إذا أردت أن تبني عمارة من عشرة طوابق لا بد لك من وجود رجال أقوياء أو روافع قوية لحمل مواد البناء إلى مستوى هذه الطوابق ، فإن لم يوجد الرجال الأقوياء ولا الرافعات القوية فإنك لن تبني إلا الوهم وسبح الخيال .

ولكي تقطع طريقاً طوله ألف كيلو متر تحتاج إلى قوة الشباب وزاده ، أو إلى قوة ميكانيكية صالحة لقطع هذه المسافة سواء كانت هذه القوة متمثلة في سيارة أو قطار أو طيارة . . وهكذا .

وإذا أردت بناء دولة بالعمارات والمصانع وسائر مستلزمات العصر المادية فإن ذلك سهل إذا توفرت له الأموال الكافية ، والأيدي العاملة واستفدنا بتكنولوجيا العصر وعلومه المتقدمة ، ولكن السؤال الذي طرح نفسه وأجاب الجميع عليه بالنفي هو : هل استطاعت جميع العلوم المادية والاكتشافات العصرية المذهلة أن تجعل الإنسان سعيد النفس مطمئن القلب متراخي الأعصاب هانئاً بدنياه آمناً على حياته وحريته وأهله وكرامته ؟ .

إن روح المادة ـ إن كان للمادة روح ـ سيطرت على كل شأن من شؤون الناس حتى صار الناس أنفسهم كأنهم مواد جامدة تمشي على الأرض أو تطير في جو السماء .

صار الناس يحيون بالشهوة ، ويتعاملون بالرشوة ، وينطلقون في دنياهم على أشلاء من لحوم البشر ، ويرتفعون على أهرامات من جماجم الإنسان وألوان شقائه .

وبدلاً من أن يصوغ الإنسان المادة لتصبح صالحة لخدمة الروح الإنسانية ومساعِدةً على إثراء الأخلاق والمبادىء الفاضلة التي تجعل الحياة في خدمة الإنسان ، وتشعره بأنه سيد في هذا الكون وعزيز النفس كريم . إنه بدلاً من أن يفعل هذا ترك نفسه في خدمة المادة حتى سخرته هي لنفسها وصار آلة من الآلات يدور في فلك الماديات ويخضع لقوانينها الصماء البلهاء الخرساء ، فيتحرك بغير وعي ، ويندفع إلى الجريمة بدون رابط أو مانع ، ويسقط في القاع بغير شعور أو حميّة أو غيرة ، ويسير مغمض العينين في أي اتجاه يرسم له ، حتى فقد أهم الأصول الإنسانية الأساسية فصار لا يعبأ بأبوة ، ولا يهتم بأبناء ، ولا يحفظ حق جار أو صديق أو قريب ، ولا يعنيه من دنيا

المادة إلا نيل الشهوة ولو على حساب من يطاوعه فيها ويسعفه بها ، لذا تراه يهجر زوجته ويقسو عليها ، ويعذب خادمته ويغدر بها ، ويخون من يعاشره ويصاحبه ولو كانْ أخاه من أمه وأبيه ، ويسرق قوت الضعفاء والفقراء واليتامى من العمال والصناع والفلاحين وكل من يسخرهم لبناء أغراضه وتشييد مجده .

إن المادة حركت فيه وحشية الحيوان وقتلت فيه إنسانية الإنسان وجعلته صورة منها ، وحجراً من أحجارها ، وصخرة من صخورها ، وقطعة معدنية بطوعها الشيطان كما يشاء .

فإذا بدأنا بناء الحضارة الإنسانية بالمادة وحدها فإن الإنسان الذي يبنيها هو الإنسان الذي يهدمها ويهدم كل شيء معها .

يهدم الحياة والأحياء ، والأمل والسيادة ، والعزة وكل مجد للإنسان .

أما إذا بدأنا ببناء الإنسان والاهتمام به ووضعه في موضع السيد الكريم العزيز الحر العظيم ، فإنا نكون قد انفصلنا عن العبودية المسحوقة تحت أقدام المادة ، واستشعرنا في أنفسنا أسباب القوة الحقيقية ، وأسباب السيادة على كل ما يحيط بنا من مظاهر الحياة ، وحينئذ نستعلي على المادة ونسخرها لصالحنا ونطوعها لخير البشر . . . كل البشر .

والبدء ببناء الإنسان ضرورة تقتضيها الفطرة ، وتوجبها مكانة الإنسان في هذا الكون .

كما أنه الطريق السوي للوصول إلى غاية نبيلة وشريفة .

وهو الأمر الذي اهتدى إليه عقلاء البشر وفلاسفة الشرق والغرب على مر الزمن .

وهو الخط الذي رسمه الله تبارك وتعالى ليسير عليه من أراد السعادة وطيب الحياة .

وهو المنهج الذي سار عليه المرسلون وكل الربانيين من أجل الوصول

بالإنسان إلى قمة النشوة بمتعة القلب والروح وراحة النفس .

وكل طريق بدأ بغير الإنسان والعناية به ، ورحمته ، وإعلاء نفسه ، وتزكية وجدانه ، وتهذيب أخلاقه انتهى إلى التيه في صحراء الغواية والشقاء والضياع .

وحين يصاغ الإنسان صياغة ربانية عذبة جميلة رحيمة على أساس من تعاليم الله وعلى يد أنبيائه ورسله ، فانه يبلغ قمة الحضارة والرقي والسعادة والنشوة ، سواء أكان يركب حماراً أم سفينة فضاء ، وسواء كان يسكن كوخاً على ظهر الأرض أو يسكن قصراً على سطح القمر ، وسواء نال أطيب الطعام وأجمل النساء وألين الملابس ، أو عاش على الكفاف في ذلك كله كما يعيش أكثر الناس اليوم .

إن السعادة فيض ينبع أصله من داخل النفس ، ونور يشع في وجدان الإنسان ، وحيوية تملأ كل ذرة من ذرات الجسد . وشعور غامر بجمال الحياة والأحياء وكل شيء من حول الإنسان ، لذلك كان السعداء نفوساً مصدر الرحمة للناس ، ومصدر الخير لهم وأصل كل فضيلة وكل حياة كريمة ، وهم بحور الكمال والجمال والنعيم الفياض على البشر .

وإذا كانت السعادة الحقة هدفاً أساسياً للفرد والمجتمع فإن الوسائل إليها لا بد من أن تكون على مستوى من السمو والرقى والطهر والنقاء يتفق مع سمو الغاية .

وقد اختار الله سبحانه وتعالى لنا الوسيلة السامية الى الغاية السامية .

فأنزل من أجل السعادة كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأرسل من أجل الخير للبشر رسلاً مبشرين ومنذرين وجعلهم رحمة للناس أجمعين وأعد الله تعالى لأهل السعادة الذين ساروا إليها على الطريق الرباني داراً ليس فيها إلا السعادة في كل شي . . . فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت

ولا خطر على قلب بشر .

ومن هنا ندرك أن الهدف السامي لا يوصل إليه إلا وسيلة سامية .

وأن الهدف والوسيلة ليس لهما موضع إلا الإنسان ، فهو مركز الهدف ، وهو أداة الوسيلة ، فمن أراد الحياة الكريمة والسيادة والعزة والكرامة والانتصار على كل ما في الحياة من عداء وغباء ودنس وتوحش فليبدأ من هنا . . من الإنسان . . . وليبدأ بالإنسان . ولتكن البداية كما رسمها الله تعالى ، وحسبما طبقها رسوله ، وطبقاً لما التزم به الرعيل الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان .

كم من قائد أخطأ الطريق السليم فأشقى أتباعه ، وأضاع أمته . ورمى بشعبه في أودية الشقاء والظلم والظلام .

وكم من زعيم ملأ الدنيا بأفكاره الغثة وفلسفته العفنة ، وسياسته المتوحشة ، فأطعم الأغنياء أشلاء الفقراء ، وأثرى الأقرباء والمحاسيب بما جمعه الكادحون من كسر ونفايات ، ومزق الثياب ، وجعل أمته أضحوكة الأمم ، ومسخرة الأرذال والأوغاد .

وكم من مدعي الإصلاح عاش على حساب شعبه ومن عرق جبينه وبقايا دمائه ، وامتدت يده ويد أتباعه إلى الأعراض والأموال والأنفس فأكلوا كل شيء ، واعتدوا على كل إنسان بدون هوادة أو رحمة .

فلو بقيت الشعوب تأكل خطباً ، وتشرب أماني ، وتلبس وعوداً ، وتعيش على الأحلام فإنها لن تكون يوماً ذات حضارة أو سعادة أو سيادة أو عزة أو كرامة ، والماضي بكل أشباحه المخيفة وأهواله المحطمة ، وآثاره المدمرة أكبر شاهد . . . وحاضرنا ليس أفضل من ماضينا ، وزعماؤنا في الأغلب ليسوا أرحم من أعدائنا ، والجزارون قد تكاثروا علينا من كل جهة وفي كل دولة وبقعة ، وأكثرهم من بني جلدتنا وأقربائنا ومواطنينا .

ولو وزع شقاء الإنسان بسبب الإنسان على الجبال والبحار والسهول والوديان وسباع الغاب ووحوش الطير لناءت كلها بما حمل الإنسان المظلوم .

وقضية الجهل الفاضح ، والمرض الكاسح ، والفقر المذل ، واحتلال فلسطين الحبيبة ، وسيناء الغالية ، والجولان العزيزة ، يشعرك بالدور الذي يلعبه أكثر الزعماء والمتسلطون بقوة السلاح والنار على هذه الأمة الإسلامية العربية المنكودة .

أيها الأموات . . . متى تستجيبون لنداء الأحرار المؤمنين ؟ !!
أيها النيام . . . متى تستيقظون وتخجلون مما تفعلون ؟ !!

أيتها الرمم البالية والنفوس المتوحشة المتزعمة . . . متى يريح الله منكم فتذهبون ولا تعودون ؟

أيها اللصوص الجبناء الأذلاء . . . متى تعيشون أحراراً ولا تكونون نعالاً في أرجل أعداء الله وأعداء المسلمين ؟ !!!

أيها الفارغون التافهون الساقطون . . . متى تخرجون من حصونكم المحروسة بالدبابة والمدفع حتى تحاسبكم الشعوب على نذالتكم وقذراتكم ودناءتكم التي لا مثيل لها في تاريخ الإنسان ؟ !!

متى ؟ . متى ؟ . متى ؟ . . حتى يطلع على الأمة نهار وينشق لآمالها فجر جديد ؟ !!

متى نبدأ بداية المتبصر ، ونسلك الطريق بغير تكبر ، ونجعل الله غايتنا ، والرسول زعيمنا ، والقرآن دستورنا ، ونهتف كلنا في نشوة : سبحان الله والله أكبر ؟ !!

إننا لكي نقوم بأعظم عمل يجب أن نبنيه على أعظم تشريع .

ولكي نصل إلى أشرف غاية يجب أن نصل إليها بأشرف وسيلة .

ولكي نقدم للمجتمع أسمى حضارة يجب أن نؤسس هذه الحضارة على أسمى المبادى .

وإذا أردنا أن نصوغ الإنسان أفضل صياغة فلا بد من أن نضعه على أفضل منهج وأقومه .

وما دامت الحرب قدرنا لإثبات وجودنا الحضاري والدفاع عن أنفسنا ومقومات حياتنا فلا بد من إيجاد القيادة الرشيدة الربانية ، وإيجاد الجيش المؤمن الذي يحب الموت كما يحب أعداؤنا الحياة ، وإيجاد الشعب الذي يعيش عيشة الرجولة والعدل والإخاء والإيثار والعمل الصالح .

ولن يجمع هذه الصفات منهج سوى منهج الله تعالى وقرآنه العظيم . فهو أعظم تشريع ، وأشرف وسيلة ، وأسمى مبدأ ، وأفضل منهج وأقومه .

وبفهمه وتطبيقه نضمن إيجاد أقدر قائد ، وأعظم جيش ، وأفضل شعب ، وخير أمة . وذلك كله يحتاج جهداً عظيماً ، وعملاً كبيراً ، ونيّة خالصة ، وإرادة صادقة ، وعزيمة لا تعرف الوهن ، وحكاماً ومحكومين يحكمهم الإيمان والإسلام .

ويحتاج علماً بالكتاب الكريم الذي أنزله الله رحمة للعالمين ، مع سبر غوره ، والتعمق في لجحه ، والوصول إلى مراميه وأهدافه وأحكامه .

وإلى علم بالسنة وكيف بيّنت الكتاب وشرّحت غامضه ، وفصلت مجمله وأوضحت يسره وكماله وجماله وعظمته .

والى دراسة الفقه الإسلامي والوقوف على علوم الفقهاء ، وأساليب العلماء والحكماء وخيار هذه الأمة وأمنائها على دين الله تعالى .

والى نظرة فاحصة لكل ما جد على هذه الأمة ووضعه في الموضع المناسب له من أحكام الله تعالى مع مراعاة دقة الفهم ، وطلبّ اليسر ، ورفع الحرج والمشقة .

فإذا أردنا أن نبدأ بداية صحيحة فإننا يجب أن نبدأ من هنا . . . من الإسلام وأن نسير على ما سار عليه أسلاف الأمة وخيرتها ، وأن نلتزم عملياً بفرائض الله والبعد عن محرماته ، وأن نولي وجوهنا إلى الله وحده نطلب عونه ، وننشد نصره ، وننفذ أمره ، ونخضع كل الخضوع لكتابه وسنة نبيه ﷺ .

إذا لم نفعل ذلك فلن نصل إلى شيء ذي قيمة أبداً .

بل سنطلب السراب ، ونعيش في الضياع ، ونتهالك على الدنايا تهالك الذباب .

سنحيا على آمال الزعماء المحرومين من رضاء الله وعونه ، وسيزداد التقلص والانحسار ، وتخرب كثير من الديار، ويكثر الأيتام والأرامل ، ويجزع الشيوخ ، وينهار الشباب تحت وطأة الشهوات والاستعباد وسحق الإنسان لأخيه الإنسان . . .

لكي نبدأ المسيرة المشرِّفة التي ترفع رأس أمتنا ، وتعيد الينا مجدنا وعزتنا ، وتجعل العالم يحترم كلمتنا ويهاب موقفنا يجب أن نطهر عقولنا من دنس المبادىء الهدامة ، والأفكار الخبيثة ، ونطهِّر وجداننا من مستنقع الشهوات الذي جلبته لنا الإباحية الانحلالية والخنفسة والهِبِّيَزة وغيرها ، ونطهر مجتمعنا من جميع أوكار الشياطين ومباءاتهم ، وجيفهم النتنة ، وسمومهم القاتلة .

يجب أن نحيا حياة السمو بأفكارنا ومبادئنا .

وحياةَ الإشراق الروحي في وجداننا .

وحياة الطهر والنقاء والنظافة في مجتمعنا .

وحياة العدل والإخاء والمساواة الحقة ونشر الأمن والخير والحب في سياسة أمتنا ورعاية شعوبنا .

وحياة القوة العقلية والعلمية والخلقية والعسكرية والتعميرية بين عالمنا .
يجب أن تكون كل ذرة في جسومنا موحدة لله وخاشعة لعظمته وجلال كلمته ، وأن تكون حياتنا كلها مسيرة باسم الله الذي لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه .

وأن يكون هتافنا الذي نشرف ونعتز به دائماً هو : لا إله إلا الله والله أكبر ، وأن نجعل رسول الله ﷺ قائدنا في كل خطوة من خطواتنا ، وأن نخلع جميع أردية الفسق والكفر والضلال وكل ما هو دخيل على أمتنا الإسلامية وغريب عنها . وأن يُضحي كل إنسان في الأمة بأهوائه ورغباته الزائدة من أجل إخوانه في الدين وفي الوطن حتى تتحد الأمة على حب ، وتتعاون على تقوى وإيثار ، ويصير كل عضو فيها عاملاً لخير الجميع ، ومن أجل ذلك نحارب بشدة كل أسباب الفساد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي فنقضي على الرشوة والمحسوبية والاستغلال ومحاربة الأكفاء ، وتنصيب الأدنياء ، واحتقار مطالب العامل والصانع والطالب وكل صاحب حاجة ، ونجتث من المجتمع كل جذور الفتن والشهوات الدنسة .

يجب أن يدرك الجميع أن كل خير في الأمة هو من أجل كل حي فيها سواء كان إنساناً أو حيواناً ، وأن من حق كل إنسان فيها أن يحيا الحياة الكريمة بدون مشقة وإرهاق، فإذا أخذنا ذلك في الاعتبار فإنما مشاكل الفقر المذل، والمرض المرير ، والإرهاق القاتل ، والضياع المحطم ، والاحتلال المهين ، ستنزاح كلها عن كاهل الإنسان المسلم الذي عانى الكثير ، وما يزال يعاني .

يجب أن تحارب فرعونية الذات ، وقارونية المال ، وهامانية الأتباع ، وشيوعية المنكر ، وألوهية المنصب ، وانحراف الإعلام ، واستبدادية الحمقى ، واستعلاء الجهلاء ، وحكم الفتوات .

يجب أن يعايش بعضنا بعضاً على أصول من الرحمة وقانون احترام الإنسان ، وأن نلغي كل طرق العنف وشريعة الغاب والظفر والناب .

والله : إننا أناس من بني الإنسان . . نبحث في الدنيا عن إنسان نتعامل معه بأسلوب إنسان . . . وارحمونا . . . أيتها الوحوش اللابسة ثوب الإنسان !! ارحموا الأعراض فلا تغتصبوها ، والأموال فلا تسرقوها ، والأنفس فلا تمتهنوها ، هل تسمعون . . هل . . هل أنتم مسلمون ؟ !! أشك . وأشك . وأشك .



واجب المسلمين نحو فلسطين

قضية فلسطين هي قضية دينية في أصلها وفروعها وجميع ما يتصل بها ، ومع ذلك أبعدت عن الدين وأبعد الدين عنها بشكل لا مثيل له ، وانتزعت القضية انتزاعاً من أحضان الإسلام لَترمي رمياً في الشارع العربي كاللقيط ، فصار ينفر منها أناس بدعاوى مغرقة في الجبن والحمق ، ويتبناها أناس يريدون أن يبنوا لأنفسهم مجداً على حسابها ، ولا يهمهم من أمرها سوى أنفسهم .

ترنحت القضية بين اليمين واليسار ، وبين الشرق والغرب ، وبين من يلعن جميع أديان الله وكتبه ، ومن فيه بقية من دين ، ولكنه لا يهتم إلا بنفسه وزعامته على حساب هذا الدين .

ووفدت على هذه القضية جميع الشعارات ، وتبنتها في فترة من الفترات كل الزعامات ، وتسربت إليها جميع الميكروبات العالمية، ودارت من أجلها رؤوس الشياطين ، وحمل الصليبي صليبه من أجلها ، وزحف الشيوعي بأفكاره المدمرة لاحتوائها ، وأقبل الملحدون العالميون يريدون صيدها والتلهي بها ، وشمخ المقلدون من العرب بأنوفهم يدعون أنهم أهل لها وأولى بها .

تمزق بسببها شعب عريق في حضارته ، عريق في نسبه وأرومته ، يحمل في نفسه أصول الحضارات الدينية ، ويحمل في تاريخه جميع المعارك التي

دارت في منطقة هي موطن الديانات ، وموئل الرسالات ، وميدان المعارك بين الحق والباطل على مدى ألوف السنين .

تمزق أشلاءً كل شلو في واد من الأودية ، وبلد من بلاد الله ، يعيش كله في غربة ، حتى يفرق بين الولد وأبيه ، وبين البنت وأمها ، وبين الزوج وزوجته بدون رحمة . شعب ليس له هوية ، ولا يجد لنفسه حياة مستقرة كغيره ، ولا يشم مثل الناس رائحة العزة والحرية ، كل آماله وعود ، وجميع متطلباته أماني ، وشعارات المتاجرين باسمه والمستغلين لبؤسه تملأ الفراغ المحيط به ، ولكنها لا تملأ قلبه بالأمل وقرب الاستقرار .

وجهت إليه التهم ، وألقيت على رأسه أطنان من المثالب والمعايب . وأصابه من شظايا الافتراءات أكثر مما أصابه من شظايا القنابل والمدافع ، وتمسح به الوصوليون ليصلوا الى مآربهم ، وتبرأ منه الجبناء بعد أن أغرقوه وأحرقوه وشتتوه بسبب تهورهم وحمقهم وجبنهم .

كل زعيم يريد من هذا الشعب عوناً لنفسه بشرط الخضوع لأمره والإيمان بأفكاره ، وكل حاكم يغريه بالوعود والآمال لقاء أن يكون الفلسطيني أداة طيعة في يده ، وكل صاحب مال يمد يده بالمال القليل التافه مقابل أن يساعده الشباب الفلسطيني النابه الذكي الشريف في إنماء ماله ، وزيادة ثرائه ، وكل صاحب شركة يبحث عن الفلسطيني ليدير شركته ويضاعف ثروته . . . وفي النهاية يظل الفلسطيني هو التائه الذي لا يحمده من يستغله ، ولا يرحمه من يمزقه ، ولا يسكت عنه طالب السلطة والسطوة .

وهذا الشعب الآن يكاد يضحك من الجميع ، وييئس من الجميع ، ويسخر مِن كل مَن سخر به ، .

هذا الشعب حمل بشجاعة وبطولة ورجولة من الآلام والجراح ما لم يحمله شعب في المنطقة ، وحمل من الوعود الكاذبة والآمال الخادعة ،

والشعارات المزيفة ما لم يحمل غيره من الشعوب ، ومع ذلك لم يزده مر الزمن إلا ضياعاً ، ولم تزده الشعارات الدخيلة عليه إلا تمزقاً ، ولم ير منذ يوم التشتيت إلا بؤساً وشقاء ومعارك طاحنة بعضها يديره ضده عربي ، وبعضها يديره صليبي ، وبعضها شيوعي الخ . . . فكأنه الوحيد في العالم الذي جعلته الشراذم الضالة المتهالكة بيئة لتجاربها ومناخاً لإظهار صولتها وسطوتها .

لم يرحموا شبابه البطل في سجون إسرائيل .

ولم يتحركوا لصالحه غيرة على العرض والدين والأرض .

ولم يحاولوا أن يرحموا طفلة فقدت والديها ، وأرملة حرمت زوجها ، وأسرة تشتت جميع أفرادها ، وشيخاً هرماً أحنت ظهره المصائب وأفقدته العائل والمجيب .

وها هي ذي إسرائيل تتذأب وتتوحش أكثر مما كانت ، وتزداد قسوتها وضراوتها وضرباتها المميتة لكل من يرفع صوتاً ، أو يعلن احتجاجاً على ظلمها وتعسفها ، وجاء حزب ليكود بحيلة موقوتة ومتفق عليها بين جميع الأطراف ابتداء من أميركا الى حزب العمال الذي كان حاكماً الى الأنظمة الشيوعية ذات المصلحة في وجود إسرائيل لإذلال العرب وقهر المسلمين والقضاء عليهم ، وقد أعلن الحزب قبل وبعد الانتخابات أنه لن يسلم شبراً واحداً من الأرض التي احتلت للعرب وأنه سيعمل لإقامة إسرائيل الكبرى من الفرات إلى النيل .

وإسرائيل متحدة في أهدافها ، متعاونة فيما بين أحزابها ، مؤتلفة وإن أظهرت للناس مسرحية تفرقها ، كل فرد فيها صالح لحمل السلاح ، وكل فتاة لا بد وأن تجند لخدمة دولتها ، وأرض إسرائيل معسكر كبير مشحون بأحدث الأسلحة وأقوى ما وصل إليه العلم الحديث من أساليب التدمير ، فما هو موقف العرب من قضية فلسطين بعد كل هذا الشتات والضياع والدمار والذل والهوان الذي لحق بالشعب الفلسطيني وما يزال ؟ .

أهو موقف الشعارات والخطب ، أم هو موقف الزعامات المتسلطة ذات

العقول المتحجرة والقلوب القاسية والنفوس الدنيئة الذليلة المستسلمة . أم هو موقف الحيرة بين آلهة الشرق وآلهة الغرب ، وموقف القضاء على الشخصية العربية الإسلامية المتميزة . أم هو موقف الحائر التائه الخائب في الداخل والخارج ، فلا هو أحيا في الداخل شعباً وأعز أمة ، ولا هو في الخارج اكتسب للشعب مجداً وبطولة وكرامة . أم هو موقف الذي حار في لقمة العيش لشعبه بعد أن سرقها من فمه وأطعمها لعدوه . أم هو موقف سفك الدماء والحبس والاعتقال وتعليق المشانق لكل من طالب بحرية الأمة وعزتها والعودة إلى دينها كي تنظم باسم الله أنفسها ، وتعيد ترتيب صفوفها ، وتتعاون وتتحاب فيما بينها ، وتندفع متحدة باسم الله لكي ترغم عدوها على احترامها ، وتعطيه الدرس الذي لا ينساه مهما امتدت به الحياة ؟؟؟؟ .

إن إسرائيل باسم الدين احتلت الأرض ، واغتصبت المال ، وأذلت كبرياء الأعزة الكرام ، وفرقت وشتتت وعربدت في المنطقة العربية بصورة مزرية للغرب ومخجلة لكل ذي حمية أو كرامة .

وزعماؤنا صمموا على إبعاد الدين عن المعركة واستلهموا القوة من جميع شياطين الأرض ، ومددنا أيدينا إلى كل أبالسة البشر، وصمَمْنا آذاننا عن كل نداء يدعونا إلى الله ، وصمَّمْنا حياتنا حسبما يهوي المجرمون أعداء الله وأعداء الإنسانية ، وتراخت عضلاتنا في الحق ، واشتدت في الباطل والعبث والكفر والضلال ، وحولنا شعوبنا إلى عقليات مفككة ، وأفكار مضللة ، وإمَّعات فاقدة الشخصية والمزية ، وفتحنا لكل شعار نادياً ، وأغلقنا نادي الله .

وعملنا لكل منحرف حزباً وحاربنا حزب الله .
واستعنا بأعداء الإسلام على رجالات الإسلام وأبطاله .
وألَّبنا الأدنياء على الشرفاء الأطهار ليقضوا عليهم ويذلوهم .
وأقمنا في كل بيت إسلامي مأتماً كمآتم فلسطين التي لا تنتهي .

وأحطنا كل حر مؤمن بأسوار من الحديد والنار كما فعلت إسرائيل

بإخواننا الفلسطينيين .

وأعلنا إسم الكفر في كل موقع ، وفي كل جهاز إعلام كما فعلت روسيا وبلاد الشيوعيين .

وأسلمنا القرآن للمنحرفين يتقولون عليه كما يشاءون .

وتركنا ألسنة الباطل تمضغ الإسلام وترميه في وجه المؤمنين به تحدياً لهم واحتقاراً .

وذبحنا القربان على مذابح الصليبيين والشيوعيين والانحلاليين وجميع أعداء الإسلام لنعلن انسلاخنا من هذا الدين وكفرنا به . أعاذنا الله .

فهل بعد ذلك كله نريد أن ندخل للقضية الفلسطينية من نفس المداخل التي شربنا منها الذل والهوان والضياع والدمار وبؤس الشعوب وشقاءها ، أم هناك اعتبار بالماضي من أجل مستقبل جديد ، وتنظيم جديد ، وسلاح جديد مبنى على مبادىء الإسلام ، وفضائل الإسلام ، وحرية الإسلام ، وكرامة الإسلام !!! .

لقد شبعت الشعوب مما شربت ، وضلت حتى ضاعت ، وذلت حتى ماتت ، وجاعت حتى هلكت ، وضُرِبت حتى تبلدت وتحجرت ، كل ذلك بسبب الحاكم الكافر بالله ورسله .

وبسبب القائد الملحد المضلل الضائع في صحاري الكفر والفسوق والفجور .

وبسبب الجيش الذي يحارَب فيه المسلم الصادق ويُرَفَّع فيه المجرم المنحرف .

وبسبب الشعب الذي أُبعد عن الدين بأجهزة إعلامية مستوردة .

وبسبب الحرب المعلنة في الداخل والخارج على كل مسلم حر أبي .

وبسبب التمزيق الذي أصاب الأمة في كل شيء .

وبسبب اللصوص الذين سرقوا قوت الشعب لمحاسيبهم وأقربائهم وأنصارهم .

وبسبب المدارس والجامعات التي تحولت إلى منابر متهالكة على حرب الإسلام واحتقاره والازدراء بكل من ينتمي إليه .

هذا الذي ذكرته كله هو الأعم الأغلب في الأمة الإسلامية اليوم فهل تصلح هذه الأمة لحل القضية الفلسطينية على هذه الأسس المتهالكة والأوضاع التي جربناها على مدى نصف قرن فلم تزدنا إلا ضياعاً وذلاً ؟؟؟ .

لا بد من وقفة نحاسب فيها الجميع بكل رجولة وشجاعة وعزة .

لا بد من مصارحة نواجه بها الزعماء التقليديين ونناقشهم ونردهم عن طريق الخطايا ومزالق الهلاك ، والتوغل في الضياع والتيه والشتات والغرور .

لا بد من رجوعٍ إلى الشعوب لنسألها هل تريد أن تدخل لهذه القضية ولجميع القضايا باسم الله أم باسم الشيطان ؟ .

يجب أن نوقف كل متزعم عند حده لنقول له أنت بالمرتزقة معك لا تساوون ٥٪ من الشعب فكيف تتكلم باسمه ، وتكفر باسمه ، وتستورد الهلاك للأمة باسمه ، وتدعي أنك تمثله ؟!! .

من ذا الذي زرع في أوهام الزعماء أن الشعب بريءَ من دينه ، وكفر بماضيه ، ورضي غير الله رباً وغير الإسلام ديناً ؟ من ؟ من ؟ من ؟ .

أيها المجرمون في حق هذه الأمة أفيقوا ، وإلا فإن لعنة الله آتية على كل من أسهم في إذلال هذا الشعب المسلم المسكين ، وإشقائه وحرمانه من رحمة ربه ، وجمال قرآنه ، وكمال نبيه ، وعظمة أسلافه وآبائه ، وحياة كريمة يحياها ويشعر معها بوجوده لا بوجود الأوصياء والأدنياء ، وصدق الله القائل :

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمْ الآخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالمُجْرِمِينَ ﴾ سورة المرسلات (١٦ ـ ١٨) .

إن جميع الشعارت التي وفدت على المنطقة الإسلامية كبديل عن الإسلام سقطت كما تسقط الراية من يد الأبله والمجنون وذي العاهة ، وجميع حملتها كشفهم الشعب المسلم وعراهم من زيهم الأجنبي البغيض ، فظهروا على حقيقتهم كأشد ما يكونون قبحاً ووقاحة وتوحشاً وإجراماً .

وظل الإسلام شامخاً يعلن عن سيادته وعزته وإبائه وتعاليه

وظل حملة الإسلام طاهرين كماء المزن ، مشعين بالنور كأنهم النجم الهادي في الليل الحالك الظلام ، أتقياء أنقياء فضلاء كأنهم ملائكة تمشي على الأرض .

وظلت كلمة الله هي العليا وستظل إلى يوم القيامة .

فعلى الأمة الإسلامية عامة وعلى الشعب الفلسطيني خاصة أن يمزقوا جميع الرايات الغريبة ، ويسقطوا كل الشعارات الداخلية، ويعلنوا في قوة وعزة نفس وصراحة كلمة ، وثقة كاملة أنهم

لن يرضوا بغير الله رباً ومعبوداً وحاكماً ومشرعاً .

ولن يرضوا بغير القرآن هادياً ومرشداً ومعلماً ودستوراً وقانوناً .

ولن يرضوا بغير محمد ﷺ قائداً ومربياً ورائداً .

وليكن هتاف الجميع من الآن : سبحان الله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

وإليك بعض الصور لأوائل المسلمين لعلك تصحو وتعتبر وتبدأ المسيرة الصادقة إلى الغاية النبيلة : الجهاد في سبيل الله من أجل تحرير الإنسان ، وتحرير الدين ، وتحرير الأرض ، وتحرير الكرامة .



وصايا وصور

للمسلمين الأوائل

أقدم إليك هذه الوصايا والصور كنماذج لما كان عليه سلفنا الصالح ورجال أمتنا الأوائل لتكون أسوة حسنة يحتذيها مسلمو اليوم ، ويجعلونها مثلاً رائدة لهم في جميع خطواتهم

قول هرقل في المسلمين

قال ابن جرير : ذكر سيف عن أبي الزهراء القشيري عن رجل من بني قشير قال : لما خرج هرقل نحو القسطنطينية لحقه رجل من الروم كان أسيراً في أيدي المسلمين ثم أفلت فقال : أخبرني عن هؤلاء القوم ؟ فقال : أحدثك كأنك تنظر إليهم : فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، ما يأكلون في ذمتهم إلا بثمن (يعني لا يأكلون طعام غيرهم إلا من طريق الحلال) ولا يدخلون إلا بسلام ، يقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه ، فقال : لئن كنت صدقتني لَيرِثُنَّ ما تحت قدميَّ هاتين . ا هـ حياة الصحابة ج ٤ ص ٦٤٨ .



أسباب نصر المسلمين

أخرج الطبراني عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال : خرج جيش من المسلمين أنا أميرهم ، حتى نزلنا الإسكندرية ، فقال صاحبها : أخرجوا إليَّ رجلاً منكم أكلمه ويكلمني ، فقلتَ : لا يخرج إليه غيري ، فخرجت ومعي ترجمان ومعه ترجمان ، حتى وضع لنا منبران ، فقال : من أنتم ؟ فقلنا : نحن العرب ، ونحن أهل الشوك والقرظ ، (ورق السَلَم يدبغ به) ونحن أهل بيت الله ، كنا أضيق الناس أرضاً ، وأشده عيشاً ، نأكل الميتة ، ويغير بعضنا على بعض ، بشر عيش عاش به الناس ، حتى خرج فينا رجل ليس بأعظمنا يومئذ شرفاً ، ولا أكثرنا مالاً ، فقال : أنا رسول الله . يأمرنا بما لا نعرف ، وينهانا عما كنا عليه ، وكانت عليه آباؤ نا ، فشنِفنا له (أبغضناه) وكذبناه ، ورددنا عليه مقالته ، حتى خرج إليه قوم من غيرنا ، فقالوا : نحن نصدقك ، ونؤمن بك ونتبعك ، ونقاتل من قاتلك ، فخرج إليهم وخرجنا إليه ، فقاتلناه فقتلنا وظهر علينا وغلبنا ، وتناول من يليه من العرب ، فقاتلهم حتى ظهر عليهم ، فلو يعلم من ورائي ما أنتم فيه من العيش لم يبق أحد إلا جاءكم ، حتى يشرككم فيما أنتم فيه من العيش ، فضحك ثم قال : إن رسولكم قد صدق ، قد جاءتنا رسلنا بمثل الذي جاءكم به رسولكم ، فكنا عليه حتى ظهر فينا ملوك ، فجعلوا يعملون فينا بأهوائهم ، ويتركون أمر الأنبياء ، فإن أنتم أخذتم بأمر نبيكم لم يقاتلكم أحد إلا غلبتموه ، ولم ينازلكم

أحد إلا ظهرتم عليه ، فإذا فعلتم مثل الذي فعلناه ، وتركتم أمر الأنبياء وعملتم مثل الذين عملوا بأهوائهم ، خلي بيننا وبينكم ، فلم تكونوا أكثر منا عدداً ولا أشد منا قوة ، قال عمرو بن العاص : فما كلمت رجلاً أذكر (أكثر رجولة) منه ، قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح غير عمرو بن علقمة وهو ثقة ا هـ حياة الصحابة .



وصية أبي بكر في ذلك

كتب أمراء الجند بالشام إلى أبي بكر يذكرون له أن الموت قد كثر فيهم وطلبوا منه مَدَداً فكتب إليهم : إنه قد جاء في كتابكم تستمدوني ، وإني أدلكم على من هو أعز وأنصر ، وأحضر جنداً . . الله عز وجل . . فاستنصروه (أطلبوا النصر منه) فإن محمداً ﷺ قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم . . قال الهيثمي : رجاله رجال الصحيح . أ هـ منه .



أثر التكبير في الجند

أخرج ابن جرير في تاريخه من طريق سيف عن محمد وطلحة وزياد بإسنادهم ، قالوا : قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يوم القادسية : إلزموا مواقفكم ، لا تحركوا شيئاً حتى تصلوا الظهر ، فإذا صليتم الظهر فإني مكبر تكبيرة ، فكبروا واستعدوا ، واعلموا أن التكبير لم يُعطَه أحد قبلكم . واعلموا أنكم أعطيتموه تأييداً لكم ، ثم إذا سمعتم الثانية فكبروا ولتُستتم عدتكم (أكملوا الاستعداد) ثم إذا كبرت الثالثة فكبروا وليُنَشط فرسانكم الناس ليبرزوا وليطاردوا ، فإذا كبرت الرابعة فازحفوا جميعاً حتى تخالطوا عدوكم ، وقولوا : لا حول ولا قوة إلا بالله . ا هـ .

وجاء في رواية زيادة على ما سبق أن سعداً رضي الله عنه لما صلى الظهر أمر الغلام الذي كان ألزمه عمر إياه ـ وكان من القراء (العباد) ـ أن يقرأ سورة الجهاد (الأنفال) وكان المسلمون يتعلمونها كلهم ، فقرأ على الكتيبة الذين يلونه سورة الجهاد ، فقرئت في كل كتيبة ، فهشت قلوب الناس (انتعشت) وعيونهم ، وعرفوا السكينة مع قراءتها ، ا هـ منه ص ٦٢٩ .



لا عزة إلا بالإسلام

أخرج الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي : عن طارق بن شهاب قال : خرج عمر بن الخطاب ـ إلى الشام ـ ومعنا أبو عبيدة ابن الجراح ـ فأتوا على مخاضة (موضع الخوض في الماء) وعمر على ناقة له فنزل عمر وخلع خفيه ، فوضعهما على عاتقه ، وأخذ بزمام ناقته ، فخاض بها المخاضة ، فقال أبو عبيدة : يا أمير المؤمنين ، أأنت تفعل هذا ؟! تخلع خفيك وتضعهما على عاتقك ، وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة ؟!! ما يسرني أن أهل البلد استشرفوك (نظروا إليك) فقال عمر : « أوَّه (كلمة تألم وتعجب) لو يقول ذا غيرك أبا عبيدة لجعلته نكالاً لأمة محمد ﷺ ، إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام ، فمهما نطلب العز بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله » .



أمانة المحاربين

أخرج ابن جرير في تاريخه عن أبي عبدة العنبري قال : لما هبط المسلمون المدائن وجمعوا الأقباض (الغنائم) أقبل رجل بِحُقٍّ معه فدفعه إلى صاحب الأقباض ، فقال الذين معه : ما رأينا مثل هذا قط : ما يعدله ما عندنا ولا يقاربه ! (لأنه كان مليئاً بالجواهر) فقالوا : هل أخذت منه شيئاً ؟ فقال : أما والله لولا الله ما أتيتكم به ، فعرفوا أن للرجل شأناً ، فقالوا من أنت ؟ فقال : لا والله ، لا أخبركم لتحمدوني ، ولا غيرَكم لتقرِّظوني (تمدحوني) ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه ، فأتبعوه رجلاً (أرسلوا وراءه رجلاً ليعرفه) حتى انتهى إلى أصحابه ، فسأل عنه ، فإذا هو عامر بن عبد قيس ا هـ منه ص ٦٢٥ .

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن قيس العِجْلي ، قال : لما قُدِمَ بسيف كسرى على عمر رضي الله عنه ومنطقته وزِبْرِجِه (زينته) قال : إن أقواماً أدوا هذا لذوو أمانة ، فقال علي رضي الله عنه : إنك عففت فعفتِ الرعية ا هـ منه .



كتاب عمر إلى عمرو بن العاص

أخرج ابن عبد الحكم عن زيد بن أسلم قال : لما أبطأ على عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فتح مصر كتب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه :

« أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وما أحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم ، وإن الله تعالى لا ينصر قوماً إلا بصدق نياتهم ، وقد كنت وجهت إليك أربعة نفر ، وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل على ما أعرف (وهم الزبير بن العوام ، والمقداد ابن الأسود، وعبادة بن الصامت ، ومسلمة بن مخلَّد) إلا أن يكون غيَّرهم ما غير غيرهم ؛ فإذا أتاك كتابي هذا فأخطب في الناس وحضهم على قتال عدوهم ، ورغبهم في الصبر والنية ، وقدِّم أولئك الأربعة في صدور الناس ، وأمر الناس أن يكونوا لهم صدمة (قوة) رجل واحد ، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة ، فإنها ساعة تنزل فيها الرحمة ، ووقت الإجابة ، وليَعُجَّ الناس إلى الله (يرفعوا أصواتهم بالدعاء) وليسألوه النصر على عدوهم . فلما أتى عمراً الكتاب جمع الناس وقرأه عليهم ، ثم دعا أولئك النفر فقدمهم أمام الناس ، وأمر الناس أن يتطهروا ويصلوا ركعتين ، ثم يرغبون إلى الله ويسألونه النصر ، ففتح الله عليهم » اهـ منه ص ٦٢٦ .



إخلاص الصادقين

كان مسلمة بن عبد الملك أميراً على جيش من جيوش الدولة الأموية ، وكان يحاصر بجيشه حصناً من حصون الأعداء ، واستعصى هذا الحصن على الجيش فلم يستطع له فتحاً ولا اقتحاماً ، فحرض مسلمة جنده على التضحية حتى يحدث بعضهم فتحة في ذلك الحصن ، فتقدم من وسط الجيش جندي ملثم غير معروف ، وقذف بنفسه إلى جهة الحصن غير مبال بسهام الأعداء حتى أحدث فيه نقباً كان سبباً في دخول الجيش وانتصاره ، وفرح المسلمون كثيراً وقال مسلمة : أين صاحب النقب ؟ فلم يجبه أحد ، فقال : إني أمرت حاجبي بإدخاله عليَّ حين يأتي فعزمت عليه (أمرته) إلا جاء، وكان يريد أن يخصه بجزء من الغنائم ، وجاء الرجل ، وقال للحاجب : استأذن لي على الأمير فقال الحاجب : أنت صاحب النقب ؟ قال : أنا أخبركم عنه ، فلما صار بين يدي الأمير قال له : إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثة شروط : ألا تبعثوا باسمه إلى الخليفة ، وألا تسألوه من هو ، وألا تأمروا له بشيء . قال مسلمة فذلك له ، فقال الرجل ، في استحياء : أنا صاحب النقب ، ثم انصرف مسرعاً ، فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال : اللهم اجعلني مع صاحب النقب يوم القيامة . ا هـ من بطولات إسلامية .



قتال امرأة وشجاعتها

حضرت أم عُمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية غزوة أحد مع رسول الله ﷺ وثبتت معه حين انهزم المسلمون وكان معها في ذلك ابنها وزوجها حتى قال ﷺ فيها : « **ما إلتفت يميناً ولا شمالاً إلا وأنا أراها تقاتل دوني** » وقال لابنها زيد : « **بارك الله عليكم من أهل بيت ، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان ، ومقام ربيبك (زوج أمك) خير من مقام فلان وفلان ، ومقامك خير من مقام فلان وفلان ، رحمكم الله أهل البيت** » قالت أم عمارة : أدع الله أن نرافقك في الجنة ، قال : « **اللهم اجعلهم رفقائي في الجنة** » قالت : « ما أبالي ما أصابني من الدنيا » ا هـ من إمتاع الأسماع ص ١٤٩ .



موقف لأم خلَّاد

حضرت أم خلاد غزوة أحد مع زوجها وولدها وأخيها ، فاستشهد الزوج والولد والأخ ، وحملتهم على بعيرها ، ولقيتها عائشة أم المؤمنين في طريق المدينة فقالت لها : عندك الخبر ، فما وراءك ؟ (ماذا حدث ؟) قالت أم خلاد : أما رسول الله فصالح ، وكل مصيبة بعده جَلَل (هينة) واتخذ الله من المؤمنين شهداء ، قالت عائشة : من هؤلاء ؟ قالت : أخي وابني خلاد ، وزوجي عمرو بن الجموح ، قالت عائشة : فأين تذهبين بهم ؟ قالت : إلى المدينة أقبُرهم فيها ، ثم زجرت بعيرها ليتابع سيره فما استطاع ، فلما وجهته إلى ميدان المعركة أسرع ، ومكث الرسول ﷺ حتى قبرهم (دفنهم) ثم قال : **«يا هند ترافقوا في الجنة، عمرو بن الجموح، وابنك خلَّاد، وأخوك عبد الله»** قالت يا رسول الله ، أدعِ الله أن يجعلني معهم . . إمتاع الأسماع ص ١٤٧ .



وصية قيمة لعمر بن الخطاب

كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد الذين توجهوا لحرب فارس :

أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل (الزيادة) في القوة علينا ، وإلا ننصر بفضلنا لن نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون ، فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيله ، ولا تقولوا : عدونا شر منا فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط الله عليهم شراً منهم ، كما سلط على بني إسرائيل ـ لما عملوا بمساخط الله ـ كفار المجوس « فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً » واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه النصر على عدوكم ، أسأل الله ذلك لنا ولكم . . . ا هـ من مختار العقد الفريد ص ٢٣ .



الخاتمة

أخي المسلم : أخي العربي . أخي الفلسطيني .

لقد حاولت في هذه الرسالة أن أفي ببعض ما يجب عليَّ نحو قضية العصر ـ قضية فلسطين ـ باعتبارها قضية إسلامية في مبناها ومعناها ، وفي جوهرها ومظهرها ، وفي جميع ملابساتها وظروفها . وأتمنى من كل قلبي وشعوري ووجداني أن يوجد القائد المسلم والزعيم المؤمن الذي يرفع اسم الله ويدعو إلى الجهاد في سبيله ، وحينئذ سأجد نفسي كما يجد غيري نفسه منخرطاً في سلك جيش الإسلام ، ليحرر الأرض الإسلامية ، والشعب المسلم والمسجد الأقصى من سلالات القردة والخنازير وأبناء القذرة المجرمين ، وعصابات الإفك والظلم والظلام ، وأشياع إبليس وتيمورلنك وفجرة الصليبيين والشيوعيين وجميع ذئاب البشر .

وقد حاولت في هذه العجالة أن أضع أمام القارىء حكم الإسلام ، وحكم التاريخ ، وحكم الإنسان المشرق في قضية فلسطين ، وفي جميع القضايا المماثلة ، والموزعة بكل دقة على بساط الأرض الإسلامية ، وعلى جميع الشعوب المؤمنة بالله ورسوله واليوم الآخر .

وقد اتخذت في الكتابة وذكر الأحكام طريقة تتفق مع مقتضيات العصر وظروف قضايانا ، وأحوال شعوبنا الإسلامية المكافحة ، بمعنى أنني اهتممت

بإبراز الجوانب المتصلة بواقعنا أكثر من غيرها ، وذلك لأني قصدت أن يكون هذا الكتاب كتاب الواقع الذي يعالج قضايانا باسم الإسلام ، وحسب هديه وأحكامه ، وفي ضوء تعاليمه وارشاداته ، ولذلك وضعت كثيراً من النقط فوق الحروف ، وأبرزت الملامح ، وكشفت المخازي والمآسي التي كان لا بد من كشفها لإظهار الحقائق ، وإزالة كل أسباب اللبس والغموض ، حتى يكون شعبنا على بصيرة من أمر دينه ، ويدرك واجبه نحو دينه وربه ، ويتحرك ولو شعورياً من أجل قضايا الحق والعدل والعزة والكرامة . . . باسم الله ، وتحت علم لا إله إلا الله ، وخلف قيادة تعتز بدين الله وتلتزم بتطبيقه والدفاع عنه .
والله أسأل أن يسدد خطانا ، ويهدينا سواء السبيل .

وسبحان الله ، ولا إله إلاَّ الله ، والله أكبر .

المؤلف

حسن أيوب



محتويات الكتاب